الكتـــاب .... : [(تعليقات) على شرح العلامة ابن سلطان لشفاء القاضي عياض]
المؤلـــف .... : محمد المُرير
تخريج .... : أحمد بن محمد المُرير
الناشر .... : المجلس العلمي المحلي بتطوان
تاريخ الإصدار ...... : سنة 2017 ـ الطبعة الأولى

الطبع والإخـراج ...... : مطابع جريدة طنجة / الهاتف : 0539943008
رقم الإيداع القانوني : 2017MO4747
الرقم الدولي ...... : 978-9954-9436-6-3

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ

الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ

الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين
وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

المملكة المغربية
المجلس العلمي الأعلى
الأمانة العامة
المجلس العلمي المحلي بتطوان

مقدمة

يعود المجلس العلمي المحلي بتطوان من حين لآخر لتراث شيخنا وأستاذنا وعمدتنا المرحوم العلامة السيد محمد المرير التطواني، وذلك بدافع نبيل وبتوجيه راشد من الأمانة العامة للمجلس العلمي الأعلى، الذي جعل من إحياء التراث والتنقيب عليه، من أولى المهمات التي يضطلع بها المجلس الذي يرأسه سيد البلاد أمير المومنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصير العلم والعلماء بما يقوم به حفظه الله وأعز أمره، من العناية بكتب التراث بإحياء بعضها وإعادة طبعها كالموطأ لإمام الأئمة مالك بن أنس رضي الله عنه، والشفا للقاضي عياض.

والمجلس العلمي الأعلى ماض في تنفيذ هذه التوجيهات السامية مصدرا تعليماته للمجالس العلمية المحلية، بالقيام بالبحث والتنقيب على أجود ما خلفه علماؤنا الأماجد ببحثه وتحقيقه وتخريجه ونشره.

واليوم، فإن المجلس العلمي المحلي بتطوان وضع يده على بحث طريف، وأثر فريد من أبحاث وطرائف، حجة المالكية في عصره المرحوم العلامة محمد المرير.

وما كان للمجلس أن يوفق إلى ذلك، لولا مد الولد البار أخينا الأستاذ الباحث السيد أحمد، المجلس بما عثر عليه من تراث والده رحمه الله، وقد ساعده على الاهتمام بأثر والده تفرغه الكامل لذلك، بعد ان استراح باله، ولم يبق ما يشغله عن تراث والده، والأثر الذي بين يدي المجلس الآن، الذي صرف فيه وقته لجمعه وترتيبه، هو أثر حميد وتوجه نبيل نحو سيرة المصطفى سيدنا محمد ﷺ من لدن العلامة والده رحمه الله، والذي تجلى في اعتنائه وتدوينه والتعليق عليه. كما ورد في مقدمته : "تعليقات على شرح العلامة ابن سلطان للشفا ".

وقد ذكر المؤلف في مقدمته لهذا التعليق ظروف وملابسات في تدريبه في منزله العامر لكتاب الشفا للقاضي عياض، وأنه وجد في ذلك بركة وأثرا عاد عليه وعلى حياته وغير ما كان يحس به من قلق وعدم اطمئنان.

وكتاب الشفا للقاضي عياض اهتم به أولا العلماء، وثانيا عموم المغاربة ممن أودع الله فيهم وجبلهم عليه من حب المصطفى ﷺ ، ووجدوا بسبب بركة ذلك أثرا حميدا واطمئنانا روحيا.

وقد ذكر المؤلف في مقدمته ذلك، واستشهد له بما ورد في صحيح الأثر من الاستشفاء بالقرآن ومشروعية " الرقية ".

وقد حضرني الآن أنني كنت من المترددين على الحلقات العلمية التي كان يعقدها المرحوم الداعية العلامة الدكتور تقي الدين الهلالي بالجامع الأعظم بتطوان.

وفي إحدى هذه الدروس تعرض لقراءة القرآن وطلب الرحمة في قراءته والاستشفاء به، فأنكر ذلك نصرة لمذهبه، فتدخلت أثناء الدرس والتمست منه كلمة، فأذن لي، فذكرته بحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي رواه الإمام البخاري وأنه كان في جماعة من أصحابه، فمروا على حي، فلدغ رئيس ذلك الحي، فبادروا إلى إسعافه، فلم ينفعه من ذلك شيء، فذهبوا إلى الجماعة، وسألوا عن رئيسهم، فأشاروا عليهم بأبي سعيد الخدري، فطلبوا منه أن يذهب معهم لإسعاف رئيسهم الذي لدغ، فاشترط عليهم قطيعا من الغنم، فرضوا بذلك، فقرأ أبو سعيد رضي الله عنه الفاتحة

على الملدوغ، فكأنما نشط من عقال". كما ورد. فرجع إلى أصحابه بقطيع من الغنم، فأرادوا ان يذبحوا بعضها فمنعهم من ذلك. وقال : حتى نعرض ذلك على رسول الله ﷺ فعرضوا ذلك عليه ﷺ، فخاطب أبا سعيد وقال له : ومن أدراك أنها رقية، -أي الفاتحة- اقتسموا واضربوا لي معكم سهما. أوكما قال ﷺ، فأجابني الدكتور الهلالي رحمه الله، بأنه أخذ الأجرة على التطبيب، فقلت له في آخر الحديث قال ﷺ : «إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله»، فسكت ولم يجب.

ولنرجع إلى كتاب الشفا الذي كان العلماء خصوصا وعامة الناس يحتفلون به ويدرسونه ويتبركون بسرده. وكانت العادة أن من اشتد به المرض، يعقد له أهله حلقة يحضرها بعض الفقهاء وأعيان الطلبة ويقومون بسرد كتاب الشفا عن آخره استشفاء به ودفعا لكل بأس، ويجدون في ذلك بركة وأثرا.

كما أن دروس "كتاب الشفاء" كانت منتظمة، وكان من بين العلماء الذين يدرسونها العلامة المحدث المرحوم السيد الحاج محمد الفرطاخ، وقد حضرت دروسه في الجامع الأعظم قبل صلاة الفجر من شهر رمضان في أوائل الخمسينات، حيث من المعتاد، أن تعقد دروس الوعظ بين السحر وصلاة الفجر، وكانت تراويح رمضان تتوقف مع إطلاق مدفع الإمساك، ويكون ذلك قبل نصف ساعة من آذان الفجر. ولا زلت أذكر أنني كنت أصلي التراويح بالزاوية التيجانية عند السحر، وكثيرا ما أسمع طلقة "المدفع" وأنا في صلاة الوتر، إلا أن بعض المساجد الآن يستمر بها إمام التراويح إلى غاية آذان الفجر، فالأمر لله ما شاء فعل.

هذا وقد اشتملت مقدمة المؤلف على أبحاث شيقة ومناسبات طريفة -كعادته رحمه الله- في أبحاثه من ذكر الاستطرادات المفيدة والجامعة.

نسال الله له المغفرة والرضوان على ما قدم وأسدى في جناب المصطفى ﷺ.

والله ولي التوفيق.

تطوان 25 شعبان 1438 هـ الموافق 22 ماي 2017

رئيس المجلس العلمي المحلي بتطوان

عبد الغفور الناصر

تمهيد

يعتبر كتاب " تعليقات على شرح ابن سلطان على الشفا " من أوائل ما ألف العلامة سيدي محمد المرير في حياته العلمية، فهو كتاب اجتمع فيه ثلاثة أعلام كبار، أولهم عالم المغرب العظيم القاضي عياض اليحصبي السبتي الذي قيل عنه "لولا عياض لما عرف المغرب"، وقيل في كتابه الشفا : "لولا الشفا لما ذكر عياض"، وابن سلطان صاحب شرح الشفا وهو من أعلام القرن العاشر والحادي عشر الهجريين وناهيك به علما واطلاعا في علوم الحديث والعقائد والتصوف واللغة، ومحمد المرير التطواني الذي وضع التعليقات على الشرح وهو الذي انتهت إليه مشيخة العلوم في عصره في مدينة تطوان .

فالكتاب الذي نضعه اليوم بين يدي القارئ العزيز حضر فيه القاضي عياض باعتباره مؤلفا لكتاب الشفا وابن سلطان باعتباره شارحا للشفا ومحمد المرير معلقا على شرح ابن سلطان هذا. وهذا الحضور الثلاثي يكفي كي يعطي الكتاب فضلا وقيمة وبروزا إلا ان العلامة المرير زاده أهمية وزانه علما ومعلومات حتى أضحى عصارة لأهم ما يمكن للطالب والباحث أن يزود به بالمعلومات والفوائد والدرر والفرائد.

ومما زاد الكتاب أهمية وأضفى عليه قيمة، كون العلامة محمد المرير سلك فيه مسلك الانتقاء ونهج فيه منهج الاصطفاء لما ينبغي شرحه وتبيينه، والوقوق عنه وتوضيحه، فكان لا يقف من الشرح إلا على العبارات، والألفاظ، والأعلام التي بتسليط الضوء عليها وتوضيحها يتسع مجال إدراك القراء ويسهل عليهم درك المعاني والمضامين الواردة في الكتاب وشرحه .

كما أن العلامة المرير بنبوغه التربوي وحسه التعليم، كان حين يوضح عبارة أو مفهوما يتوسل إلى ذلك بالتبسيط والإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه حتى يسهل فهمه وتتضح مقاصده ودلالاته .

ولقد أظهر العلامة المرير سعة علمه وتبحره واطلاعه حينما كان يتطرق لبعض الدقائق والحقائق، فتراه حينا يلبس لبوس الفقهاء، وحينا آخر لبوس المتصوفة، وحينا آخر لبوس المحدثين...الخ. وهو في كل مجال معرفي يعطي الأمور حقها ويبين معانيها ودلالاتها حق التبيين.

وفي الأخير كم تمنينا لو أن العلامة محمد المرير أكمل هذه التعليقات على شرح ابن سلطان للشفا. ولكن تجري رياح الأقدار بما لا تشتهي سفن الطموح العلمي. فلو أن الكتاب تم والتعليقات أكملت، لوجدنا أنفسنا أمام كتاب يعج بالمعلومات الفوائد في أمور العقائد والفقه والتصوف والسيرة النبوية والأعلام... وعلى الرغم من كل ذلك، فإن ما وصلنا منه يفي بالغرض، ويحقق المقصود ويشهد لصاحبه بأنه حقا شيخ العلوم، وبان كتابه حري بأن يتناوله القراء والمطلعون وينهل منه كل متعطش للعلم والمعرفة .

ذ. يوسف احنانة

عضو المجلس العلمي المحلي بتطوان

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

نبذة تاريخية عن المؤلف

(مقتطفات من بعض ما كتبه عن مراحل حياته)

المنبت والمنشأ - المرحلة التعليمية الأولية:

ولدتُ بتطوان أثناء عام 1304 هـ[1]، ونشأت بها فدخلت المكتب القرآني إذ بلغت السنة السادسة تقريبا. والمكتب القرآني هو أول مرحلة في التعليم المغربي، فحفظت القرآن كله، وتعلمت الكتابة والرسم وبعض ما يتعلق بذلك، وكنت في هذه الأثناء أتلقى من الأستاذ بعض مبادئ الدين وجملا من قواعده.

مرحلة التعليم الثانوي :

ولما أكملت حفظ القرآن، انتقلت إلى المرحلة الثانية، التي كانت في ذلك العصر بمنزلة التعليم الثانوي، فشرعت في حفظ متون فنون العلوم الإسلامية المتداولة حينئذ؛ من نظم «ابن عاشر»، و«الألفية»، و«اللامية»، و«سُلم» الأخضري، و«نظم الاستعارات» في البيان، و«مختصر» الشيخ خليل.

الالتحاق بالجامع الكبير :

كما صرت أحضر الدروس على أساتذة المدينة، الذين كانوا يلقون دروسهم

(1) [الموافق: 1887 م]

في مساجد إمامتهم وخطابتهم، غالباً. فزاولت في هذه المرحلة جل مواد العلوم الإسلامية التي كانت تدرس في هذا العصر؛ من التوحيد، وفقه العبادة، والنحو والتصريف، والأصول والبيان والمنطق، وفقه المعاملة والحديث والسيّر، وقواعد الحساب. حتى ختمت على الشيوخ جل المؤلفات الموضوعة في تلك العلوم، وبعضها ختمتها مراراً.

❑ مشاهير شيوخه بتطوان :

وأشهر من أخذت عنه هذه الفنون بتطوان: شيخ الجماعة وإمامها العلامة المشارك الشريف الجليل سيدي محمد بن أحمد البقالي، والفقيه العلامة سيدي أحمد الزواقي، وكان إليه المرجع في الفتوى وولي القضاء مراراً، والعلامة بهجة المدرسين سيدي محمد ابن الأبار، والفقيه العلامة سيدي أحمد الرهوني، وغيرهم.

❑ شغفه بالعلوم الأدبية والتاريخيه :

كما كنت أشتغل أيام العطلة بمطالعة كتب الأدب واللغة، وبالخصوص: «مقامات الحريري»، و«قلائد العقيان»، و«مطمح الأنفس»، و«ريحانة الألبا»، و«العقد الفريد»، و«كتاب الصناعتين»، حتى حفظت منها جملا كثيرة، من نثر ونظم. كما كنت أطالع كتب تاريخ المغرب كـ«المعجب» و«الاستقصا».

❑ رحلته إلى فاس العاصمة العلمية وذكر شيوخه بها :

ولما آنس منّي بعض الشيوخ أنّي حصلت على جل ما يمكنني تحصيله بمدرسة تطوان؛ صار يَحثني على إعمال الرحلة للحضرة الإدريسية لإتمام دراستي، حيث إن تلك الحضرة هي المدرسة العليا، وبها كلية القرويين التي تُعطى بها الدروس العالية في سائر العلوم المتداولة بالمغرب. فانشرح صدري لذلك وأعملت الرحلة للحضرة المذكورة[2].

أما بحضرة فاس، بالجامعة القرويين؛ فقرأت على شيخ العلوم بها كالعلامة المشارك سيدي أحمد ابن الخياط، وعلى العلامة إمام صناعة التدريس بها سيدي أحمد بن الجيلالي، وعلى حافظها العلامة سيدي عبد الرحمن بن القرشي، وعلى زاهدها وشعلة ذكائها العلامة المشارك، وكان يخصه أهل الحضرة بالنحوي، والحق

[2] توجه إلى فاس في 15 شوال من عام 1326هـ.]

انه مشارك في كل الفنون، سيدي عبد السلام بناني، وعلى العلامة الهيّن الليّن، سيدي الفاطمي الشرادي، وعلى المحقق المدقّق العلامة سيدي محمد بنانيَ، وعَلى تحفة الأدباء والعلماء النبلاء، سيدي أحمد بن المأمون البلغيثي، وعلى قاضي قضاتها ومفتاح مغلق نوازلها العلامة سيدي محمد بن رشيد العراقي. وحضرت بعض دروسَ «الشفا» على العالم العامل، المتحلي بسيرة السلف الصالح، سيدي محمد بن جعفر الكتاني. كذلك حضرت دروس الشيخ المتبرك به، العلامة سيدي التهامي كنون، حضرت عليه بعض دروس الحديث بزاوية سيدي ابن رحمون. وهناك أشياخ حضرت بعض دروسهم، ولي أشياخ أُخر تركت ذكرهم خوف الإطالة. انتهى من خطه، رحمه الله.

وكان قد حل بفاس يوم الجمعة، الثالث من ذي القعدة عام 1326، بعد ما غادر تطوان في 15 شوال، قال:

حللنا الحضرة الإدريسية، فلله الحمد. ويوم الأحد شرعنا في القراءة؛ فشرعت أقرأ صباحا: نصاب «المختصر» على القاضي العلامة العراقي، وهو يومئذ بباب الوكالة في قول المتن: (وفي رضاه إن تعدى به تأويلان الخ). وفي الساعة الحادية عشرة أقرأ نصاب سيدي الفاطمي الشرادي، أعني المختصر، وجدته في الجنائز: (وبياض الكفن وتجميره الخ). ونصاب الألفية في الساعة الثانية عشرة على سيدي عبد السلام بناني، وجدته في باب الترخيم، الخ، وعند الفراغ من الألفية، يعمل شيئا من السلّم، ووجدته عند قول النظم: وأول ثلاثة بلا شطط الخ.

ثم قال: الحمد الله. فتحت قراءة «المُقنع» على الفقيه المكناسي، ببيته بالمدرسة، يوم الأحد سابع عشر حجة، عام 1326.

الرجوع إلى تطوان ومواصلة الدراسة بها :

وعاد إلى تطوان أواخر شهر رمضان عام 1328، قال: قدمنا لتطوان قبل ليلة القدر بيوم، وأقمت هناك من الشهر المذكور، معتكفا على القراءة والمطالعة، متخذا بيتا في المدرسة - أي مدرسة لوقش - أحضر دروسا:

1) درس الفقيه سيدي محمد البقالي، بدأت من الإجارة.
2) درس سيدي أحمد الزواقي، من صدر البيوع.
3) درس سيدي أحمد الغماري، بدأت من المحاصات.

4) درس سيدي محمد ابن اللبار، من الفوائت.

5) درس سيدي أحمد الزواقي، في «التحفة» من باب اليمين.

❑ سفره إلى مدينة طنجة واشتغاله بها :

ثم سافرت في شهر جمادى الثانية لطنجة، فانتصبت بها للعدالة، وذلك شهر شعبان عام 1329، ثم أقمت إلى ربيع النبوي من سنة 1330هـ فوظفت بإدارة الدين المخزني.

❑ عودته إلى تطوان :

وفي شهر رجب من عام 1331، (موافق 1913)، عاد إلى تطوان، (عاصمة المنطقة الخليفية)، حيث كان قد حل بها خليفة جلالة السلطان، وهو الأمير مولاي المهدي بن إسماعيل الذي رشحه لمنصب الكاتب الثاني لوزير العدلية.

❑ تصدّره للإفتاء :

أذنت في الفتوى بهذه الحضرة التطوانية من جانب وزير العدلية، الفقيه العلامة سيدي أحمد الرهوني، وسعادة الفقيه القاضي، العلامة الشريف سيدي التهامي أفيلال، في 25 رجب الفرد، عام 1333هـ، فكان أول ما أفتيتُ به، جوابا على رسم فيه تسفيه امرأة، هل يجوز ما تبرعت به أولا؟ ونصها: الحمد الله. حيث علم بالبينة أعلاه، سفه المرأة الست فلانة، ردت تصرفاتها نظرا للحالة الثابتة بها. قال ابن هلال في «أجوبته»: العمل الآن إنما هو على قول ابن القاسم من اعتبار الحالة دون الولاية، فلا عبرة بها مع ظهور الرشد وحسن التصرف، ولا عبرة بعدم الولاية مع وجود السفه، وتبطل تصرفات السفيه وإن لم يحجر عليه والد ولا حاكم. بهذا العمل الآن منذ خمسين سنة ونحوها، وبه أفتى شيخنا القوْري والعقباني سيدي أبو الفضل قاسم، وبه يحكم حكام البلاد الآن ويفتي مفتيهم، وبه نفتي نحن، وهذا أمر شائع ذائع يعرفه العامة الممارسون لأمور الخصام، ولعمري انه هو الصواب. هـ[3]. وبعد نقله أيضا لكلام الشيخ التسولي في الموضوع قال :

ثم إن تصرفات السفيه إذا كانت بعوض كبيع وشراء وإجارة ونحوها، فهي

(3) [«أجوبة» الإمام ابن هلال، (الفصل الثالث في المبيعات والعطايا وما شاكلها، صفحة 1 من الكراس 2)، طبعة حجرية].

موقوفة على إجازة وليه إن كان له، وإن لم يكن له فالقاضي يقدم عليه من ينظر في ماله نظر الوصي. وإن كان بغير عوض كالعتق والصدقة والهبة فإنه مردودٌ ولو أجازه وليه، كما هو مقرر في كلام ابن رشد، وصاحب «اللباب»، ونقله الحطاب، والله أعلم. وكتبه عبد ربه محمد المرير.

❑ استدعاؤه لوظيفة قاضي الناحية الريفية مع رئاسة المجلس البلدي :

وفي فاتح شهر ذي الحجة من عام 1336، خوطبت من جهة المخزن بإلحاح تام ومراودة فائقة، لقبول خطة القضاء بمنطقة الريف مع رئاسة الاستئناف، (أي قاضي الناحية)، ورئاسة المجلس البلدي في نفس الوقت. فأبيت من ذلك، وتعللت بأشياء، فبعد التي واللتيا أعطيت مهلة للتأمل، ولكن لم أجب إلا بالامتناع، فأقلت.

❑ تعيينه في وظيفة الكتابة بالصدارة :

وفي 3 ربيع النبوي الأنور من عام 1337، وجه إلي المكلف بالأشغال الوطنية، على لسان الحاكم الكبير، والوزير الكبير، وطلب مني قبول وظيف الكتابة بدلا عن الفقيه الزواقي، فاعتللت بأشياء، ولكن بعد مراجعات كثيرة لم يسعني إلا المساعدة. وقد جلست في الوظيفة المذكورة في يوم السبت 14 ربيع الثاني 1337هـ.

❑ التحاقه بالقضاء :

وفي سنة 1919 عين قاضيا بالقصر الكبير وقبيلتي الخلوط والطليق. وفي سنة 1925 عين قاضيا بأصيلا وعمالتها. وفي سنة 1926 عين قاضيا بتطوان وقبيلة بني بسعيد.

❑ خروجه من القضاء والتحاقه بالتعليم :

ثم في سنة1934 عين في منصب شيخ العلوم بالمنطقة الخليفية، (عميد الدراسة الإسلامية) بشمال المملكة.

❑ عودته إلى القضاء :

وفي سنة 1939 عين رئيسا للمجلس الأعلى للاستئناف الشرعي بالمنطقة المذكورة حيث استمر في هذه المهمة إلى أن تحقق استقلال الوطن ووحدة ترابه، فرشح لعضوية المجلس الأعلى للقضاء بالرباط، وكان أول مجلس تأسس بعد الاستقلال وضم نخبة من كبار الفقهاء، فاعتذر عن قبول ذلك لكبر سنه وظروفه الصحية، فعين

رئيسا للقسم الإقليمي لاستئناف احكام القضاة بتطوان، وبقي في هذا المنصب إلى سنة 1963 حيث أحيل على المعاش.

عضويته في مجالس علمية وتنظيمية مختلفة، منها :

- عضوية المجمع العلمي الذي تأسس عام 1335، (1916)، وكان يترأسه باشا تطوان السيد الحاج أحمد الطريس، ويضم نخبة من العلماء والكتاب والأعيان وبعض الأجانب.
- عضوية مجلس تحضير نظام الأحباس العامة الذي تأسس عام 1358(1939م)، وكان يترأسه الصدر الأعظم.
- عضوية المجلس العلمي الثاني، الذي تألف عام 1345(1927) لإصلاح حالة التعليم.
- عضوية مجلس العلماء المعين لدراسة ومرجعة حقوق الانتفاع والتصرف في أملاك الاحباس، وقد تألف عام 1345(1927).
- عضوية وخلافة المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي، الذي تأسس عام 1934.
- عضوية لجنة تنظيم القضاء الشرعي، وكذلك عضوية لجنة تحضير نظام محاكم الباشوات والقواد بالمنطقة الخليفية.
- المساهمة في تأسيس المعهد العالي للتعليم الديني بتطوان، وتدريسه لكتاب الأحكام القرآنية لابن العربي المالكي.

حلقات الدروس العلمية :

كانت له في أول حياته العلمية حلقات بعدد من مساجد المدينة لتدريس مختلف العلوم للطلبة، من فقه ونحو ومنطق وسيرة وغيرها. ومن ذلك قوله:

في شهر ذي القعدة الحرام من عام 1336، أتى إليّ الشريف الجليل الفقيه العلامة سيدي محمد المؤذن، يعرض على العبيد خطة التدريس في زاوية العالم العلامة الولي الجليل سيدي علي بركة، على لسان ناظره الأجل السيد محمد الحصار، وكنت استصعبت ذلك، ولكن انشرح صدري لقبول تلك الخطة، ناويا بقبولها أمورا؛ أجلها التبرك بجناب ذلك الولي. فشرعت في الشهر نفسه في القراءة.

كما كانت له جلسات علمية أثناء قضائه بمساجد كل من القصر الكبير وأصيلا حيث درس مع الطلبة كتاب صحيح الإمام مسلم، ومتن ابن عاشر وغير ذلك.

وقبل التحاقه بمنصب القضاء (سنة 1919) كانت له جلسات أسبوعية بمنزله لقراءة «شفاء» القاضي عياض لعموم الطلبة. كما أنه في أواخر حياته، افتتح بمنزله أيضا سرد كتاب التفسير للإمام ابن كثير، بحضور نخبة من الأساتذة الفضلاء، واستمر في ذلك إلى أن وافاه الأجل المحتوم، رحمه الله تعالى وتقبل منه صالح عمله.

هذا مع اعتكافه وتفرغه للمطالعة والكتابة والاشتغال الدائم بالعلم، وكانت كتبه أحب شيء لديه، ولهذا حرص في وصيته أن تبقى الخزانة بعد وفاته محفوظة ومنظمة لينتفع بها من فيه الأهلية من أحفاده وذريته.

خزانته العلمية

هذه الخزانة جعلها صاحبها، الفقيه محمد المرير، بمقتضى وصيته المؤرخة بـ 23 ربيع الأول، عام 1390(8 شتمبر 1974) وقفاً مخلدًا، وحبسا مؤبّداً، لينتفع بمطالعة محتوياتها من فيه الأهلية والاستعداد من أحفاده وأولادهم ما تناسلوا، ثم في حالة انقراضهم وانعدام من تتوفر فيه شروط الانتفاع؛ فإنها تُجعل رهن إشارة طلبة التعليم الديني الفقراء، للاستفادة منها بالشروط المحددة في الوصية التي عهد بتنفيذها إلى ولده أحمد، وهو المشرف الآن على صيانة وتنظيم هذه الخزانة التي توجد ببيته.

وتحتوي الخزانة على مطبوعات ومخطوطات في علوم متنوعة، يزيد عددها عن ألفين ومائتين، وهي حسب التقسيم الوارد في الوصية تتكون من:

- كتب القرآن الكريم والتفسير وما يتعلق بذلك.
- كتب الحديث وشروحه وما يتعلق به.
- كتب التوحيد، والفقه من شروح خليل - المخطوطة والمطبوعة وكل ما يتعلق بالفقه من نوازل وأحكام.
- كتب أصول الفقه.

- كتب اللغة والنحو والمعاني والبيان، وما يتبع ذلك.
- كتب التاريخ والأدب على اختلاف أنواعها، من قديم وحديث.
- الكتب المؤلفة في موضوعات مختلفة، ومجلات ومطبوعات متنوعة.

أثره العلمي ومؤلفاته

كتبه المطبوعة :

1 - «الأبحاث السامية في تاريخ المحاكم الإسلامية»، طبع في حياة المؤلف الجزء الأول سنة 1951 والجزء الثاني سنة 1955، من طرف معهد الأبحاث العربية الإسبانية بتطوان. مع مقدمة وفهارس للأستاذ الفريد البستاني. وأعيد طبعه، مع ترجمة للمؤلف، ودراسة لمضامين الكتاب، من طرف مؤسسة «دار الحديث الحسنية» بالرباط سنة 2011. بعناية د, عبد الحميد عشاق، و د. رشيد كرموت، وتقديم: د. أحمد الخمليشي، مدير المؤسسة المذكورة.

2 - «الفهرسة» المسماة بـ «النعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم»، طبع الجزء الأول سنة 2000 بطنجة، وأعيد طبعه بتطوان سنة:2013 وطبع بتطوان أيضا الجزء الثاني سنة: 2003، والثالث سنة: 2005، والرابع سنة 2006 : والخامس سنة: 2007، والسادس سنة: 2008، والسابع سنة: 2009. والثامن سنة: 2011، والتاسع الخاص بالفهارس سنة: 2014، وذلك من طرف جمعية تطاون أسمير الثقافية.

3 - العقود الإبريزية على طرر «الصلاة المشيشية». يتناول الكتاب ترجمة الولي الصالح مولاي عبد السلام بن مشيش، ومقدمة في التصوف، مع شرح للصلاة المنسوبة للولي المذكور، طبع سنة 2013 بتطوان، من طرف جمعية تطاون أسمير كذلك.

4 - «بلوغ الأمل بالمهم من شرح العمل»، طبع المجلد الأول، من طرف المجلس العلمي بتطوان، سنة 2012، والمجلد الثاني والثالث يجري إعدادهما للطباعة بمشيئة الله.

5 - «تقييد» بعنوان: «القول الفصل، والحكم العدل، في مسألة القبض والسدل». طبع سنة 2015 بشراكة من المجلس العلمي بتطوان وجمعية تطاون أسمير.

6 - مقصورة «بهجة الخواطر وقرة الأحداق، في الوصايا الدينية والدنيوية ومحاسن الأخلاق»، تتكون من أبيات: 202 ، طبعت في ملحق ضمن الجزء الثامن من «النعيم المقيم»، سنة 2011.

7 - «تعليقات على شرح العلامة ابن سلطان لشفاء القاضي عياض»، في مجلد واحد -وهو هذا الكتاب- الذي حظي بعناية المجلس العلمي المحلي، واهتمامه مشكورا بطبعه ونشره.

❑ كتبه المخطوطة، التي لم تطبع إلى الآن :

1 - كتاب «الروض الباسم، من غيث نظم ابن عاصم»، وهو شرح لتحفة ابن عاصم في القضاء، في مجلدين، وصل فيه إلى نهاية فصل التداعي في النفقة.

2 - كتاب «الدرر العقيانية، على غرر الأحكام القرآنية»، في جزأين، جمع فيهما الدروس التي أملاها بالمعهد الديني العالي بتطوان، من أول سورة البقرة إلى الآية 184 منها. وهي بمثابة حاشية على كتاب «الأحكام» للإمام ابن العربي. كان موضوع أطروحة لنيل الدكتورة من طرف الطالبة بكلية أصول الدين بتطوان سابقا السيدة كريمة حبوبي، السنة الجامعية 2001/2002.

3 - كتاب «اللسان المعرب، عن تاريخ وسياسة ملوك المغرب» في مجلد واحد، (مقدمة في فن التاريخ ووصف بلاد المغرب جغرافيا واقتصاديا واجتماعيا وإداريا، مع نبذة من تاريخ مدنه، وخلاصة لتاريخ الدولة الإدريسية وما تلاها من إمارات، مع ملحق يتعلق بالدولة السعدية). قدم له الدكتور محمد الشريف، الأستاذ بكلية الآداب بتطوان، وهو قيد الإعداد للطباعة بشيئة الله تعالى.

4 - «تقييد» بعنوان: «إقامة الدليل والبرهان، على حرمة تمثيل قصة أهل الكهف في القرآن».

5 - «تقييد» بعنوان: «الدرر المؤتلفة، في ذكر آل المعرفة».

6 - رسالة «إيضاح الدلائل والشواهد في حكم أداء الصلاة في المقابر والمشاهد».

7 - رسالة «المباحث اللطاف، في الفطر والصوم بالتلغراف».

8 - رسالة «تسهيل العسير، من خطبة شرح الدردير» على مختصر الشيخ خليل.

9 - نظم «مبهج الحذاق، بمحاذاة ى لامية الزقاق». منظومة في الفقه والقضاء. تتكون من أبيات: 469.

10 - تقييد «المقتطف اللطيف من المقصد الشريف لصلحاء الريف».

11 - تعليق ألفاظ على أبيات العلامة القادري في «تعلق صفات المعاني».

12 - حاشية على شرح العلامة محمد بنيس لهمزية الإمام البوصيري، بخط المؤلف. عدد الصفحات التي وجدت 108، وقع خرم في آخر ما وجد منها، (من ص13 إلى ص17 من الشرح). إلى غير ذلك من الفتاوي والرسائل التي دونها في عدد من الدفاتر.

❑ وفاته ومدفنه، وحفل تأبينه :

انتقل إلى جوار ربه بعد مرض قصير، عصر يوم الاثنين 15 محرم من عام 1398هـ موافق 26 دجنبر سنة 1977م، ودفن بعد عصر يوم الثلاثاء، حيث شيع من بيته بحومة المطمار، إلى مدفنه بزاوية سيدي يوسف حنصال، بحومة أحفير، من المدينة العتيقة بتطوان. وتقدم للصلاة على جثمانه بالمسجد الأعظم، حبه وصديقه، الفقيه العلامة الأديب الشريف سيدي البشير ابن القاضي التهامي أفيلال، وأبّنه إثر ذلك بكلمة مؤثرة صادقة، الفقيه العلامة المصلح، السيد الحاج محمد الطنجي. رحم الله الجميع.

ونظم لتأبينه حفل خطابي مهيب بقاعة سنيما «أبنيدا» بتطوان، يوم 25 صفر الخير 1398؛ بمبادرة من «جمعية قدماء معهد مولاي المهدي» بتطوان، وبعض تلاميذ الفقيد. وألقيت كلمات في التنويه بأوصافه ومناقبه من لدن نخبة من الأساتذة الفضلاء السادة: الحاج امحمد عزيمان، والحاج الطيب بنونة، وعبد الغفور الناصر، ومحمد التجاني الدردابي، وإسماعيل الخطيب، ومصطفى الشعشوع، ومحمد الأمين أسلمان، وعبد القادر العافية، والشاعر عبد الواحد أخريف. وقد نشرت الجمعية المذكورة كتيبا بالمناسبة، تضمن كلمات المشاركين، وصدرته بمقدمة في تأبين الفقيد للشيخ العلامة الكبير، الوزير السيد محمد المكي الناصري.

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بهذا الكتاب

هذه نكتٌ علقها المؤلف على قطعة من شرح العلامة ابن سلطان لشفاء القاضي عياض، أثناء دروس «الشفاء» التي أقامها بمنزله لطلبة العلم وغيرهم عشية كل أربعاء، ابتداء من شهر صفر، عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، إلى غاية شهر محرم من عام ثمانية وثلاثين وثلاثمائة وألف.

وتوقف فيها -حسبما وجد منها- إثر كلام الشارح على استدلال المصنف في ختام المقدمة بالحديث الشريف: «من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»، وذلك بسبب استدعائه لولاية القضاء بمدينة القصر الكبير.

فبقيت هذه القطعة من (الحاشية) المخطوطة في خزانته، متوارية عن الأنظار مدة حياته، ولم تذكر ضمن أثره العلمي بعد وفاته، ولم أقف عليها إلا بعد أن كتب الله لي بعد نحو ثلاثة عقود، القيام بتخريج «فهرسه» الموسوم بـ(النعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم)؛ فاطلعت في المجلد السادس منه على تنويهه بكتاب (الشفا، بتعريف حقوق المصطفى)، وذكره لفضائله وثناء الناس عليه، وقال انه كان قد افتتح سرده بمنزله مع مجموعة من الطلبة وغيرهم، بنية التبرك والاستشفاء، وأنه كان يعتني بهذا الدرس، ويراجع في تحضيره شروح الكتاب وغيرها، مما له تعلق بهذا الموضوع، حتى كتب في ذلك جزءاً كأنه (حاشية).

وفيما يلي نص كلامه عن سبب إقامة هذه الدروس، وبيان توقيتها ومكان انعقادها، ومراجع تحضيرها، وما لمسه من بركاتها الخ، فقال:

- **سبب إقامة هذا الدرس :**

«كان أحوَجني الحَال، وقلة ما أقوم به في ضرورياتي من المَال؛ أن توليت وظيفة لا

يرضاها خاطري، ولا يقرّ بها نظري، وأنا أذهب إليها مضطرب البال، من شدّة الأكدار والأوجال. وكنت كلما دخلت دار تلك الأشغال ضقت ذرعاً، فأقول إلى الله متضرعاً: (رَبَّنا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً.)»[4].

«ثم في هذه الحالة، ألهمني الله لإقامة درس في منزلي، وأسرد فيه مع الطلبة هذا الكتاب، وهو كتاب «الشفاء»، فتيسّر لي ذلك، وافتتحت هذا الكتاب الجليل.»

«وكان من صحّة هذا الإلهام، وكونه من الواردات الإلهية، أن اغتبط به كل من في المدينة من الطلبة النبلاء، بل فيهم مَن هُم في عِداد الفقهاء الأذكياء».

● توقيت الدرس ومكانه وطريقة إعداده وإلقائه :

«فجعلت الوقت لذلك يوماً في الأسبوع، ووقع الاختيار على عشية يوم الأربعاء، وفتحتُ باب داري لكل من أراد الحضور من طالب علم وغيره؛ فصارت الغرفة الكبيرة في الدار، تمتلئ كل عشية بنبلاء الطلاب، ورؤساء أهل الصلاح ومن يشار إليهم بالخير والولاية. فزادني هذا الاغتباط والإقبال، نشاطاً واعتناء بالدرس، وجعلته عندي من أهم الأعمال؛ أراجع لإلقائه شروح الكتاب، ممّا وقفت عليه، كـ «شرح» ابن سلطان، و«نسيم الرياض» لشهاب الدين الخفاجي، وتقييد مفيد الذي هو حاشية على متن «الشفا» لإمام النحاة، العلامة الشمني، وغير ذلك مما له تعلق بهذا الموضوع».

«كان الدرس يبتدئ بسرد المتن، ثم يتبع بشرحه لابن سلطان، ثم إضافة إلى الشرح المذكور ما فيه إيضاح وبسط لما في ابن سلطان، و«نسيم الرياض»، أو من «المواهب اللدنية»، وغير ذلك مما له تعلق بذلك، حتى كتبتُ في ذلك جزءاً، كأنه «حاشية»، على شرح ابن سلطان»[5].

● ما لمسه المؤلف من بركة هذه الدروس :

«فكان هذا الدرس من المواهب الربانية، التي تجلت فيها الأنوار المحمدية، وظهرت تباشير قضاء تلك الحاجات التي جُعل هذا الكتاب الجليل وسيلة إلى الله تعالى، وقربة إليه في تيسير هذه الأمنية؛ فما أمضيت جملة يسيرة من هذه الدروس

(4) سورة النساء: الآية 74

(5) النعيم المقيم للمؤلف: 6/ 226

إلاّ والباري سبحانه أبدل قبضي بسطا، وأخرجني ممّا كان يضيق منه صدري، وأبدلني عنه منزلا رفيعا، وجبر انكساري مما كنت أعده انحطاطا؛ بإنزالي منازل فخر، ذات عز وبهجة، ورفع مقامي رفعا لم أر بعده خفضا ولا حطا، وكل ذلك أعده من مواهب الجليل، كرامة لخاتم أنبيائه وإمام أرساله، النبي الهاشمي الذي خصه فضلا منه، بالمعجزات الباهرة، والخلق العظيم الجميل»[6].

● وصف هذه الدروس :

وقد وصف الجوانب الروحية والاجتماعية لهذه الدروس، العلامة سيدي التهامي الوزاني، في كتابه «الزاوية»، حيث كان آنذاك من بين المهتمين بحضورها، فقال:

«فكان يحضر هذا الدرس تقريباً كل الطلبة الموجودين في تطوان، بل وكثير من الأساتذة. وكان الفقيه المرير يحتفل احتفالاً ما مزيد عليه؛ فكان يلبس جميل الثياب، ويفرش غرفته ذات الخَرّاجَة[7] بأفخم الفرش. وإذا كان وقت الدرس، كان بخور العود يعبق به المكان، حتى إذا فرغنا من الدراسة أحضرت آنية الشاي وقدمت صواني الحلواء، وفي هذه الأثناء يكون المُزمزمُون يردّدُون الأذكار، وقطع الموسيقى الجميلة، وأبياتاً من همزية البُوصيري وكلام القوم، وعلى رأس المسمعين سيدي محمد النبخُوت[8]، رحمه الله، وسيدي أحمد بن عبد الكريم الحداد»[9].

«وكان موعد هذا الدرس يوم الأربعاء، بعد صلاة العصر، فكنا نجد فيه متعة وذكرى، وناديا نتصل فيه بأماثل أهل العلم والفكر. فإذا تمّ ذلك، أخذ الحاضرون في حديث دونه متساقط الطل على غرُوس البرتقال وقد أزهرت فروعها، وانتشرت

[6] النعيم المقيم للمؤلف: 6 / 227

[7] غرفة كبيرة في الطابق الأول من البيت المغربي، مفتوحة على غرفة بداخلها، يطلق عليها (الخرّاجة). ولا تتوفر عليها غالبا إلا الدور الكبيرة. وهذه الغرفة توجد بدار صهره المرحوم الناظر محمد القناوي، حيث كان يسكن معه آنذاك. وتحد بالجامع العتيق، (جامع القصبة)، من جهة المقصورة والقبلة، ويقال ان القائد المنظري الأندلسي الغرناطي، مجدد بناء تطوان وحاكمها، ربما كان يسكن بذلك الموقع، لقربه من مقر الحكم آنذاك ومجاورته لمقصورة المسجد التي يدخل منها الحاكم عادة. انظر تاريخ تطوان للأستاذ داود، المجلد الأول قسم1 ص 94 . والله أعلم. أ /م

[8] ورد ذكره في كتاب «عائلات تطوان» للعلامة سيدي محمد داود، تحقيق وإضافات الأستاذة حسناء داود (ج 1 /279). من مواليد 1886م، قرأ العلم بتطوان ثم بالقرويين بفاس، شغل خطة العدالة والتدريس، كان رئيس المنشدين بالزاوية الريسونية وكان يحفظ الكثير من صنائع الآلة الأندلسية ويحسن الإنشاد والعزف على آلات العود والرباب والكمنجة. توفي سنة 1927م.هـ باختصار من الكتاب المذكور.

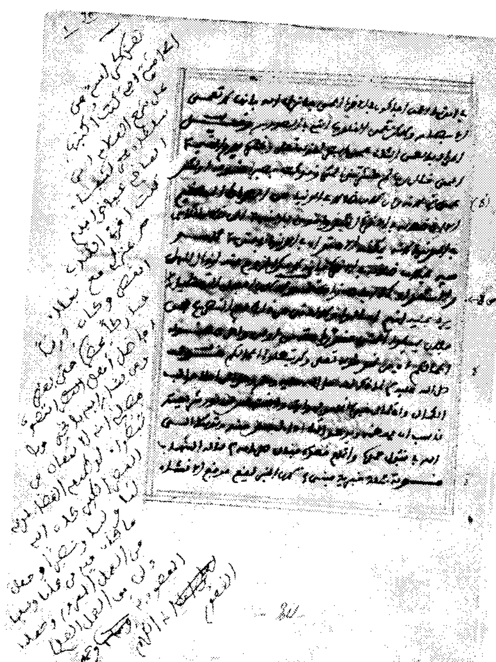
[9] الفقيه الوزير سيدي أحمد بن عبد الكريم الحداد، كان أيضا هو السارد في هذه الدروس، حسبما روى عنه ذلك الأخ الأستاذ سيدي عبد الغفور الناصر، في كلمة التأبين التي نشرها في جريد الميثاق عدد 264، وفي كتيب: (شيخ العلوم المرحوم سيدي محمد المرير في ذكراه الأربعينية). انظر ترجمته في كتاب العلامة سيدي محمد داود «على رأس الأربعين»، إذ كان من أفاضل علماء تطوان، اشتغل بالعدالة ثم تقلب في عدة مناصب حكومية سامية آخرها منصب الوزير الصدر (رئيس الوزراء) في الحكومة الخليفية بتطوان.

روائحها، حتى إذا حضر وقت المغرب صليناها جماعة، ثم لا يكون انصرفنا إلا قرب العتمة». ثم قال سيدي التهامي الوزاني:

«فلما دخلتُ في الطريق بقي في نفسي شيء من هذا الدرس، سيما ويعسُوب مثوله هو الفقيه المرير، فاستشرت الشيخ[10] في حضوره فسمح لي بذلك وعزم على أن يرافقني. فلما حل الموعد، اختار جماعة من الفقراء وقصدنا دار الفقيه المرير، فتلقينا الدرس، وبعد ذلك طاب الوقت بالذكر والمذاكرة، وكانت ساعة تعادل بالأعمار» الخ.[11]

وقد أشار لهذه لدروس أيضا العلامة سيدي محمد داود، رحمه الله، في مذكراته (على رأس الأربعين)، حيث قال أنه حضرها.[12]

فتوجه اهتمامي -بعد الاطلاع على ما تقدم من كلام المؤلف- إلى البحث في خزانته عن هذه (الدروس)، وخلال ذلك وقفتُ صدفة على كراسة منفردة، هذه صورة لصفحة منها:



وهي بخطه، وقد كتب بهامشها، لأجل التنبيه والتعريف، ما نصه :

«هذه كراسة من الحاشية التي كنتُ أكتبها على شرح العلامة ابن سلطان لشفاء القاضي عياض، أيام كنت أقرئ الكتاب بمنزلي مع نبلاء العصر». قال:

«وكان درساً مباركاً يحضره حتى بعض أفاضل أهل التصوف، ومن يشار إليه بالخير، وما فصلني عنه إلا الانتقال من تطوان لوظيفة القضاء بمدينة القصر الكبير[13]، كان الله لنا

[10] أي شيخ الزاوية الحراقية الدرقاوية بتطوان آنذاك، الذاكر الشريف، سيدي إدريس الحراق. أ/م

[11] الزاوية: 136، باختصار. ـ تقديم ومراجعة د عبد العزيز السعود، طباعة 1999 بطنجة.

[12] «على رأس الأربعين»: ص 122

[13] ولي هذا المنصب في 29 محرم عام1338 ، حيث انقطع عن هذه الدروس التي كان قد افتتحها في21 صفرعام1337. وفي هذا قال العلامة التهامي الوزاني: وقد حدث أن الفقيه المرير استدعي من طرف الحكومة ليقوم بوظيف القضاء في القصر الكبير: فلم تمض إلا أيام قلائل حتى فارق تطوان. «الزاوية»: ص136.

ولياً ونصيرا، وجعل ما كان فيه من عملنا وسعينا من العمل المبرور، وجعل ذلك من العمل الصالح المقصود به وجهه الكريم الغفور».

فكانت هذه (الكراسة) بمثابة رأس الخيط الذي أوصلني إلى بقية الأوراق؛ فعكفت على جمعها، وترتيبها حسب الكلمة التي بذيل الصفحة، لكونها لم تكن مرقمة، وقد تفرقت أوراقها، لتقادم الزمان وتصاريف الأيام.

وهذه هي النسخة الخطية الوحيدة بخط المؤلف، وتتكون من 191 صفحة. وقد توقف فيها - حسبما وجد منها - إثر الكلام، على مسألة أخذ الأجرة على تعليم العلم وتبليغه، أي عند ذكر المصنف للحديث الشريف: «من سُئل عن عِلم فكَتمَهُ أَلجمهُ الله بِلجَام مِن نَار يوم القيامة».

وتوجد بالنسخة إسقاطات، وخاصة ما بين صفحة 136 والصفحة التي تليها، التي أولها: قوله : (مهامه فيح تحار فيها القطا)، أي ما يتعلق بشرح قول المصنف: (فإنك كررت عليّ السؤال)، إلى قوله: (وخصائص هذه الدرجة العلية.)، وقد استدركت ذلك في ذيل الصفحة، كما أشرت إليه فيها، حيث نقلت من خط المؤلف، ما كان كتبه في شرح ما تقدم من كلام المصنف، في كراسة عثرت عليها منفردة، يبدو أنها سقطت من مخطوطة أخرى له في نفس الموضوع.

هذا كل ما وجد محرراً من هذه (الحاشية). وهي من القطع المتوسط، وبهامشها إلحاقات وتوقيفات له بخطه أيضا، وقد اقتبَستُ من بعضها عناوين لموضوعات معينة. وقد تم تخريج ورقن ذلك، مع الاجتهاد قدر الإمكان في وضع النقط والفواصل، ومقابلة النصوص بأصولها، وإثبات المراجع، حسب الإمكان. وقد جعلت كلام «الشفاء»، بين هلالين، ووضعت سطراً تحته، وتحت كلام الشارح ابن سلطان أيضا، أي عند: قوله: «كذا الخ»، وجعلته بين مزدوجتين.

كما أثبت بالتتابع مقدمة الشارح، وجعلتها داخل مربع، وكذلك بالنسبة لمقدمة المصنف، أي «الشفاء»، وذلك للتمييز بين المتن والشرح والحاشية، والتيسير على القارئ.

هذا وكما يلاحظ في المخطوطة، فإن المؤلف، رحمه الله، لم يجعل لهذا العمل عنوانا، واكتفى في المقدمة بقوله: «فهذه نكت كنتُ علقتها على شرح العلامة ابن سلطان» الخ.

○ طبع هذا الكتاب :

هذا وبعد إنجازي لهذا العمل -حسب جهد المُقل- وقرَ في نفسي أنْ أُسعى لطبعه ونشره، إن يسر الله ذلك: إحياء لذكرى الوالد ولذكرى تلك المجالس الربانية التي كانت تحفها السكينة والرحمة، ويجلِّلها التآخي والمودة والوقار، والصدق في التوجه إلى الله تعالى ومحبة نبيه ورسوله الحبيب المختار، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وتذكيراً لأولي الألباب بهذه السُّنة الحسنة -ولعلها الأولى من نوعها في تطوان آنذاك، بعد الندوة الأسبوعية الخاصة للعلامة الصوفي سيدي محمد ابن الأبار[14] - وهي فتح الفقهاء أبواب منازلهم لاستقبال طلبة العلم وغيرهم من أجل التبليغ والإرشاد، والذكر والمذاكرة، وتوثيق عرى التعارف والتآلف بينهم. وقد حقق الله الرجاء فيسر طبع الكتاب على يد المجلس العلمي المحلي بتطوان. جعله الله من العلم الذي ينتفع به مَن شرح الله صدره له، سيما وكتاب «الشفاء» كتاب مبارك جليل، شهير بفضائله ومقاصده، يُعرِّف بمقام النبوة العظيم، وبحقوق المصطفى، الرسول المجتبى الكريم ﷺ.

وهو الموضوع الذي أصبح في هذا العصر واجباً ملحاً على الأمة العناية به، وإبراز مكانته في قلوب المسلمين، وخاصة منهم طبقة الشباب، لما يلاحظ من تطاول بعض الأقزام على هذا المقام، الذي هو من أركان عقيدة الإسلام. ولكن هيهات هيهات! فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.[15]

كما أنه مما ميّز أيضاً هذه (الدروس) كونها كانت فرصة للتواصل الفكري بين طلبة العلم، وغيرهم من المثقفين والمهتمين بالشأن العام، في تلك الفترة الأولى من الحماية الأجنبية، إذ لم يكن آنذاك بهذه المدينة، كما هو معلوم -أي منذ ما يناهز مائة سنة- نوادي ثقافية مغربية، ولا وسائل إعلامية، ولهذا قال سيدي التهامي الوزاني -كما تقدم- في وصف هذه الدروس: «فكنا نجد فيها متعة وذكرى، وناديا نتصل فيه بأماثل أهل العلم والفكر». وقال: «وكانت ساعة تعادل بالأعمار».[16]

---

(14) سورة التوبة، الآية: 32

(15) الزاوية: 136، باختصار.

(16) ......

فالموضوع له أيضا دلالة تاريخية واجتماعية تستدعي الوقوف عندها، لارتباطها بفترة عصيبة من تاريخ هذه المدينة، التي ساهم أبناؤها على اختلاف مستوياتهم، في خدمتها والتأسيس لمستقبلها عن طريق التوعية ونشر العلم والمعرفة.

لذا أحمد الله تعالى، وأشكر كل من عمل على إبراز مساهمة المؤلف، رحمه الله، في هذا المجال، واهتمامه بالاشتغال بالعلم والتعليم، واقتفائه بنهج سيد المرسلين ﷺ، رجاء نيل شفاعته، والفوز برضى الله العلي الكريم، يوم الفزع الأكبر والموقف العظيم.

رحم الله جميع من سبقونا بالإيمان، وأثابهم على حسن مقاصدهم، وقوة يقينهم، وغفر لنا ولهم، وهو سبحانه الغفور الرحيم، آمين، والحمد لله رب العالمين.

تطوان في فاتح شعبان، عام 1438

موافق 28 أبريل، سنة 2017

أحمد بن محمد المرير

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير للمؤلف

الحمد لله..

قال عليه
الصلاة والسلام، في الحديث
الصحيح الذي رواه عنه الأئمة الأعلام:
«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».
ومن المأثور، وبين الكافة والخاصة مشهور، وتلقيناه من الشيوخ، وممن له في قدم الصدق ثبوت ورسوخ، أن «شفاء» القاضي عياض، التي تزري أزهار معانيها بأرج «الرياض»، مجربة في الاستشفاء من الأدواء، وقد جربه بعض الأعلام، فنال به المرام.

وإن العبد الجاني، قد فتح سرد هذا الكتاب الجليل، مع بعض الإخوان بمنزله، راجياً نوال بركة هذا الكتاب، والشفاء مما ألم به من الأوصاب الحسية والمعنوية، والله تعالى يصحح النية، ويبلغ الأمنية، بجاه عين الرحمة الربانية، عليه أزكى صلاة وأفضل تحية، وذلك يوم الأربعاء: 21 من شهر صفر الخير، عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف (1337). محمد بن محمد المرير، وفقه الله..[17]

---

[17] من خط المؤلف على واجهة الصفحة الأولى للجزء الأول من شرح العلامة ابن سلطان. طبع عام 1316 هـ بالمطبعة العثمانية بدار الخلافة العثمانية. أ/م

مقدمة الشارح ابن سلطان [19]:

الحمد لله الذي أنزل القرآن شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وشفى به من كان أشفي على شفائر جهنم من الكافرين. والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، وعلى آله وأصحابه الطيّبينَ الطاهرين، وأتباعه أجمعين إلى يوم الدّين. (يتبع)

«الحمد لله الذي أنزل القرآن»؛ القرآن هو في اللغة مصدر بمعنى الجمع، يقال: قرأت الشيء قرآنا، أي جمعته. وبمعنى القراءة يقال: قرأت الكتاب قراءة وقرآنا. ثم نقل إلى هذا المجموع المقروء المنزل على الرسولﷺ، المنقول عنه تواتراً فيما بين الدفتين، وهو المراد هنا. قاله السيد[20] في حواشي الكشاف[21].

وقيل: هو اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله، فهو غير مهموز، وروي هذا القول عن الشافعي، واختاره السيوطي[22].

أنزل القرآن، على ما هو الأصح والأشهر، إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجما في عشرين سنة، أو ثلاثة وعشرين سنة، أو خمسة وعشرين، قاله السيوطي[23].

ولهذا أشار صاحب «الكشاف»[24] في خطبته، إذ قال: الحمد الله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما، ونزّله بحسب المصالح منجّما[25].

[الاستشفاء من الأدواء القلبية والبدنية بالقرآن]

«شفاء لما في الصدور» : من الأدواء القلبية، كالجهل والشك، والشرك، والنفاق،

[19] [ذكر الشرح هنا هو إضافة، وليس من وضع المؤلف.] أ /م.

[20] هو علي بن محمد بن علي الشريف الشهير بالسيد فقيه وفلكي ولغوي مدقق ولد في جرجان في أواسط القرن الثامن الهجري له عدة مؤلفات من أشهرها التعريفات وحواشي على الكشاف للزمخشري توفي في شيراز عام 816 هـ.

[21] [ج1ص3].

[22] هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد السيوطي العالم والفقيه المتفنن المصري صاحب التآليف العديدة والمتميزة توفي في القاهرة عام 911 هـ.

[23] [الإتقان:1ـ 39].

[24] هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري العالم والمفسر المعتزلي لقب بجار الله توفي عام 538 هـ.

[25] [تفسير الكشاف:1/2 ـ 4].

وغيرها من الأدواء البدنية. فقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري، قال: جاء رجل إلى النبيﷺ، فقال: إني أشتكي صدري؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «اقرأ القرآن؛ يقول الله تعالى: (شفاءٌ لِما في الصُدُور)».

وأخرج البيهقي في»الشعب»، عن وائلة بن الأسقع، أن رجلا شكى إلى النبيﷺ، وجع حلقه، فقال: «عليك بقراءة القرآن».

وأخرج ابن ماجهْ وغيره، من حديث ابن مسعود: «عليكم بالشفاءين؛ العسل والقرآن». وأخرج أيضا من حديث علي: «خير الدّواء القرآن».

وأخرج أبو عبيد عن طلحة بن مصرف، قال: كان يقال: إذا قرئ القرآن عند المريض، وجد لذلك خفة. وقضية الرقية بالفاتحة شهيرة في الصحيحين وغيرهما. قال ابن القيم :

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة، فما الظن بكلام رب العالمين الذي فضله على كل كلام، كفضل الله على خلقه الذي هو الشفاء التام والعصمة النافعة، والنور الهادي والرحمة التامة، الذي لو أنزل على جبل لتصدع من عظمته وجلاله، قال الله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)[26] والصحيح أن(من) هنا لبيان الجنس لا للتبعيض. وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ)[27]. فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة.هـ ونحوه في «المواهب».

[آيات الشفاء ومسألة التداوي بالنشرة]

وتجربة الصالحين في الاستشفاء بالقرآن كثيرة؛ فعن القشيري[28] أن ولده أشرف على الموت فرأى النبيﷺ، في المنام فقال له: «أين أنت من آيات الشفاء ؟»، ففكر فإذا هي في ستة مواضع، وهو قوله تعالى:

* (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)[29].

(26) [الإسراء: 82]

(27) [سورة يونس: 57]

هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الصوفي الشهير بالرسالة القشيرية ولد قرب نيسابور عام 346 هـ وتوفي عام 465 هـ

(29) [سورة التوبة: 14]

* (وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ)[30]
* (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ)[31]
* (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)[32]
* (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)[33].
* (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ)[34].

قال: فكتبتها وحللتها بالماء، وسقيته إياها؛ فكأنما نشط من عقال. نقل ذلك عنه في «المواهب».

وقوله: وحللتها بالماء؛ يفيد جواز سقي كتابة القرآن. وبهذا صرح النووي[35]، ناقلاً له عن أئمة، حيث قال في «شرح المهذب»: لو كتب القرآن في إناء، ثم غسله وسقاه المريض؟ فقال الحسن البصري ومجاهد وأبو قلابة والأوزاعي: لا بأس به. وكرهه النخعي. قال: ومقتضى مذهبنا أنه لا بأس به. هـ. وأفتى ابن عبد السلام بالمنع من الشرب، لأنه يلاقيه نجاسة في الباطن. وفيه نظر، قاله السيوطي.[36]

قلت: والجواز، هو مقتضى مذهبنا أيضا، ففي «المدخل» لابن الحاج[37] المالكي:

وما زال الأشياخ من الأكابر، رحمة الله عليهم، يكتبون الآيات من القرآن والأدعية، فيسقونها لمرضاهم، ويجدون العافية عليهم.هـ. وفيه أيضا:

ولا بأس بالتداوي بالنشرة؛ تكتب في ورق أو إناء نظيف سور من القرآن، أو بعض سور، أو آيات متفرقة من سورة، أو سور، مثل آيات الشفاء. هـ. وفيه أيضا:

وكان سيدي أبو محمد -يعني شيخه المرجاني- [38] رحمه الله، أكثر تداويه بالنشرة، يعملها لنفسه ولأولاده ولأصحابه، فيجدون على ذلك الشفاء.[39]

---

(30) [سورة يونس: 57]
(31) [النحـل، الآية: 69]
(32) [الإسراء، الآية: 82]
(33) [الشعراء، الآية: 80]
(34) [فصلت، الآية : 43]
(35) هو أبو زكرياء يحيى بن شرف الحزامي النووي عالم حديث وفقيه ولد أواسط القرن السابع الهجري واشتهر بشرحه على صحيح مسلم وبالأربعين النووية توفي بالشام عام 676 هـ
(36) [الإتقـان: 166/2]
(37) هو أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي عاش بين القرنين السابع والثامن اشتهر بكتابه المدخل إلى تنمية الأعمال .... توفي عام 737هـ
(38) هو أبو محمد عبد الله المرجاني من علماء تونس عاصر الشيخ أبا الحسن الشاذلي وتوفي عام 699 هـ [المدخـل: 121/4].
(39) [المدخل: 121/4]

[مستند ما يذكر في خواص القرآن]

تنبيه: غالب ما يذكر في خواص القرآن، مستنده تجارب أهل الصلاح. وقد ورد بعض ذلك مرفوعا وموقوفا؛ أخرج الحاكم وغيره، من حديث أبي هريرة: «ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل فقال: يا محمد، قل: تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ[40]، و(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)».[41]

وأخرج الترمذي والحاكم، من حديث سعد بن أبي وقاص: «دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، لم يدْعُ بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له». وعند ابن السني[42]: «إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج عنه؛ كلمة أخي يونس: (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)».[43]

وأخرج البيهقي وابن السني، وأبو عبيد عن ابن مسعود أنه قرأ في أذن مبتلى فأفاق، فقال رسول الله ﷺ: «ما قرأت في أذنه؟»، قال: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) إلخ السورة[44]، فقال: «لو أن رجلاً مُوقناً قرأها على جبل لزال».[45]

[شرط وقوع التأثير بهذه الآيات]

قلت: وفي هذا الحديث فائدة، وهو أن التأثير من شرطه أن يكون صدور ذلك من مُوقن صادق الإيمان، صالح الأحوال. قال ابن التين: الرقى بالمعوذات، وغيرها من أسماء الله تعالى، هو الطب الروحاني؛ إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى. فلما عز هذا النوع، فزع الناس إلى الطب الجثماني.[46]

---

(40) [نص الآية: 58 من سورة الفرقان: (وتوكل على الحي الذي لا يموت)]

(41) [الإسراء، الآية:110]

(42) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق من علماء الحديث من أشهر مؤلفاته كتاب عمل اليوم والليلة وكتاب فضائل الأعمال توفي عام 364 هـ

(43) [الأنبياء، الآية: 86]

(44) [المؤمنون، الآية: 116]

(45) [الإتقان: 2/ 165]

(46) [الإتقان: 2/165]

وعن يحيى بن أبي كثير[47]، قال: من قرأ (يس) إذا أصبح، لم يزل في فرح حتى يمسي، ومن قرأها إذا أمسى، لم يزل في فرح حتى يصبح. أخبرنا بذلك من جرب ذلك.[48]

[أوجه الهداية
ومعنى الصلاة والسلام على النبي ﷺ]

«**وهدى**»؛ ولفظ هُدى في الأصل: مصدر هَدَى، أو اسم مصدر. ولم يجئ من المصادر بهذه الزنة إلا قليل، كالتُّقى وُالسرى والبُكى في لغة والتقى. وهو هنا من إطلاق المصدر وإرادة الفاعل، أي هاديا إلى طريق الحق واليقين، بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل الإبانية والأنفسية.

واختلف في حقيقة الهدى؛ فقيل: هو عبارة عن الدلالة. وقال صاحب «الكشاف»: هو الدلالة الموصلة إلى البغية[49]. ورده الفخر[50] بوجوه؛ انظر «تفسيره».

وهداية الله تعالى للإنسان -كما قال الراغب[51]- على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عمّ بجنسها كل مكلف؛ من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية، كقوله تعالى: (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى).[52]

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن، ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا).[53]

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، كقوله: (والذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً).[54]

---

(47) هو أبو نصر يحيى بن أبي كثير الطائي مولاهم يعد من الطبقة الخامسة من طبقات رواة الحديث توفي عام 132 هـ

(48) [الإتقان: 2/ 165]

(49) [الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري: 89/1]

(50) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي الشافعي من متأخري الأشعرية له العديد من المؤلفات ومن أشهرها تفسيره المسمى مفاتيح الغيب توفي حوالي 605 هـ

(51) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الإصفهاني أو الإصبهاني عالم ألف في التفسير والبلاغة والأدب توفي عام 502 هـ

(52) [طه، الآية: 49]

(53) [السجدة، الآية: 24]

(54) [محمد، الآية: 18]

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعنيّ بقوله: (سَيَهْدِيهِمْ ويُصْلِحُ بَالَهُمْ)[55]. هـ[56].

«ورحمة للمُؤْمنين»: أي سببا لرحمة المؤمنين الذين آمنوا به، وامتثلوا ما فيه من الأحكام. «وشفى»: من الشفاء. «من كان أشفى»: أي أشرف «على شفائر»، جمع شفير. وشفير كل شيء: حرفه.

«جهنم من الكافرين»: أي ممن كان كافرا. وبين شفا وأشفى جناس الاستيقان، كما بيْن شفا وشفائر جناس التذييل، كقول الخنساء:

إن البكاء هو الشفاء من الجوَى بين الجوانح

ولا يخفى ما في هذه الألفاظ من براعة الاستهلال، وقد نمق افتتاحه هنا العلامة الشهاب[57]، إذ قال:

الحمد الذي نوّر الخافقين ببعثة النور المبين، وجعلها شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. فأزال ظلمات الضلال المدلهمة، فإذا همّت أفواه الأباطيل بإطفاء نوره أبى الله إلا أن يتمّه.[58]

وما أحسن هذه السجعات ولكن لا عجب، حيث لمع نور البلاغة من شهاب الأدب.

«**والصلاة**» : هي عند كثير من أهل اللغة: الدعاء والتبريك والتمجيد، يقال: صليت عليه، أي دعوتٍ له وزكّيت. وقال عليه السلام: «**إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، وإن كان صائما فليُصَل**»، أي ليدْع لأهله. (وَصَلِّ عليْهِمْ، إنّ صَلوَاتكَ سَكَنٌ لَهُمْ)[59]. (يُصَلُّونَ عَلَى النّبيءِ يَا أيُّهَا الذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْه)[60]. وصلوات الرسول، وصلاة الله للمسلمين، هوَ فِي التحقيق، تزكيته إياهم، قال: (أوْلائكَ عَليْهِمْ صَلوَاتٌ مّن رَبّهِمْ وَرَحْمَةٌ)[61]. ومن الملائكة هو الدعاء والاستغفار. قاله الراغب[62].

[55] [محمد، الآية: 6]

[56] [«معجم مفردات القرآن»، ببعض اختصار: ص570 طبعة بيروت1997]

[57] هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي عالم مصري اشتهر بالعديد من المؤلفات في فنون شتى توفي في 1069 هـ

[58] [نسيم الرياض:2/1]

[59] [التوبة، الآية: 104]

[60] [الأحزاب، الآية: 56]

[61] [البقرة، الآية : 156]

[62] [المعجم: 319]

«والسلام»: في معنى السلام هنا ثلاثة أوجه:

- أحدها : السلامة من النقائص والآفات، فهو مصدر بمعنى السلامة.

- ثانيها : السلام مداوم على حفظك ورعايتك؛ فهو من أسماء الله.

- ثالثها : الانقياد؛ فالسلام من المسالمة وعدم المخالفة، والمراد الدعاء بان يصير الله العباد منقادين مذعنين له، عليه السلام. والأرجح الأول.

«على سيد المرسلين وسيد الأولين والآخرين» : لقوله : «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**». والسيد يطلق على الرب والمالك، والشريف والفاضل، والكريم والحليم، ومتحمل أذى قومه، والزوج، والرئيس، والمقدم. وأصله: من ساد يسود. قاله في «النهاية».

[إطلاق السيادة على النبي ﷺ]

وقد أنكر بعض أهل العصر إطلاق السيادة عليه، صلى الله عليه وسلم، وقال: من زادها في الصلاة بطلت صلاته! وكنت كتبتُ جوابا مختصراً في المسألة فقلت:

ينحصر الكلام في إطلاق السيادة عليه ﷺ، في ثلاثة مباحث:

- الأول : إطلاقها عليه في غير التصليـات.

- الثاني : إطلاقها عليه فيها من غير الصلاة.

- الثالث : إطلاقها عليه في نحو التشهد في الصلاة.

أما إطلاقها عليه في غير التصليات؛ فهو جائز شائع، إذ هو من أسمائه، عليه السلام، حسبما في «الشفا»، و «دلائل الخيرات». وقد ورد إطلاقها عليه في أحاديث كثيرة صحيحة في الصحيحين وغيرهما، فمنها حديث الصحيحين: «**أنا سيد ولد الناس يوم القيامة**». ومنها حديث الشفاعة: «**انطلقوا إلى سيد ولد آدم**»، ومنها: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**». وفي القرآن، في حق يحيى، عليه السلام: (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا).[63]

---

[63] [آل عمران، الآية: 39]

وأما ما استدل به المانع مما رواه البيهقي عن مطرف، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله».[64]

وعليه، فلفظ هذا الحديث يفيد بظاهره الحصر، أي لا سيد إلا الله، فلا يقال سيد لغيره. فيقال:

أولاً: إن إسناد هذا الحديث ليس بالقوي، كما للسهيلي[65] وغيره.

وثانيا: إن معنى الحديث أن الذي تحق له السيادة المطلقة هو الله، (إِنْ كُلُّ مَن في السَّمَاوَاتِ والأرضِ إلاّ آتي الرّحْمَن عَبْدا)[66].

وقال العلقمي: «إنما منعهم أن يدعوه سيداً، مع قوله: «أنا سيد ولد آدم»؛ من أجل أنهم قوم حديثو عهد بالإسلام، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة تأتي بأسباب الدنيا، وكان لهم رؤوس يعظمونهم، وينقادون لأمرهم، فقال: «قولوا بقولكم»؛ يريد: قولوا بقول أهل دينكم، وادعوني نبياً ورسولا كما سمّاني الله في كتابه، ولا تسمُّوني سيداً كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم، ولا تجعلوني مثلهم، فإني لست كأحدهم؛ إذ كانوا يسودونكم بأسباب الدنيا، وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة؛ فسمُّوني نبيا ورسولا».

وأما إطلاقها عليه، في الصلاة عليه خارج الصلاة، فهو جائز أيضا سائغ، لورود ذلك في المأثور. ففي الصلاة المروية عن سيدنا علي، حسبما في «المواهب» و«الشفاء» و«الدلائل»، التي أولها: (إِنَّ اللهَ وَملائكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[67]، لبيك اللهم ربي وسعديك. إلى أن قال: محمد بن عبد الله، خاتَمَ النبيئين، وسيد المرسلين.

وفي الصلاة المروية عن سيدنا عبد الله بن مسعود، حسبما أخرجه ابن ماجه والبيهقي والدارقطني وغيرهم: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، الخ.

---

(64) [نسيم الرياض: 241/1]

(65) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الخطيب السهيلي عالم مغربي من أشهر مؤلفاته الروض الأنف توفي في مراكش عام 581هـ

(66) [مريم، الآية: 93]

(67) [الأحزاب، الآية: 56]

[فتوى أئمة المذهب المالكي في مسألة السيادة]

وبما قلناه، أفتى أئمتنا المالكية؛ ففي «المعيار»: وسئل سيدي قاسم العقباني[68] هل يجوز أن يقال: اللهم صل على سيدنا محمد، أم لا ؟ فأجاب: الصلاة على نبينا سيدنا محمد ﷺ، من أفضل العبادات، ومن معنى الوارد في الذكر، لأن ذكره ﷺ، يقارنه أبداً في القلب وفي اللسان ذكر مولانا جل جلاله. وأفضل الأذكار ما جيء به على الوجه الذي وصفه صاحب الشريعة، ولكن ذكر نبينا ﷺ، بالسيادة وما أشبهها من الصفات التي تدل على التعزير والتوقير ليس بممنوع، بل هو زيادة عبادة وإيمان، ولاسيما بعد ثبوت: «أنا سيد ولد آدم»، إذ ذكْره ﷺ، بسيدنا، بعد ورود هذا الخبر، إيمان بهذا الخبر. وكل تصديق بما جاء به المصطفى ﷺ، فهو إيمان وعبادة. والله الموفق بفضله.[69]

قال في «إكمال الإكمال»: ما يستعمل من لفظ: السيد والمولى حسن وإن لم يرد، والمستند فيه ما صحّ من قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم». واتّفق أن طالباً يُدعى بابن عمْرو، قال: لا يُزاد في الصلاة لفظ سيدنا، لأنه لم يرد، وإنما يقال: على محمد. فنقمها عليه الطلبة، وبلغ الأمر إلى القاضي ابن عبد السلام[70]؛ فأرسل وراءه الأعوان، فاختفى مدة ولم يخرج حتى شفع فيه صاحب الخليفة حينئذ، فخلى عنه، وكان رأى أن تغيبه تلك المدة هو عقوبته.

وأجاب سيدي عبد الله العبدوسي[71] عن مثل هذه، فقال: ينبغي أن لا يزاد فيها ولا ينقص منها، فإن زاد فيها (سيدنا ومولانا)؛ فجائز، لأنه ﷺ، أتى بها تعليما لهم حين قالوا له: إن الله سبحانه أمرنا أن نصلي عليك، فكيف نصلى عليك؟ فقال: «قولوا» كذا إلى آخرها. وأما الصلاة المرتجلة التي لم ترد بلفظه فتزيد فيها: سيدنا ومولانا محمد؛ فجائز، إذ هو سيدنا ومولانا.[72]

وأما الإتيان بالسيادة في الصلاة عليه ﷺ، داخل الصلاة المكتوبة فلا مانع منه أيضا، ولا يوثر في الصلاة خللا. إذ اللفظ الوارد عنه، عليه السلام، إنما هو

---

(68) هو أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني عالم جزائري من أعلام القرن التاسع الهجري ابن العالم الشهير سعيد العقباني توفي عام 854 هـ

(69) [معيار الونشريسي:11 /66]

(70) هو أبو محمد عبد الله بن عبد السلام التونسي قاضي الجماعة بها له شرح مختصر ابن الحاجب توفي عام 749 هـ

(71) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي الفاسي توفي عام 849 هـ

(72) [معيار الونشريسي:11 /67]

للتعليم، وجواز إطلاق السيادة عليه ورد ما يدل عليه من خارج، وغاية ما يقال إن هذه الصلاة مرتجلة، ولا يشترط لفظ بعينه في الصلاة، وإن كان الأفضل هو الإتيان باللفظ الوارد.

وبهذا أفتى علماؤنا المالكية، وقد علمت ما وقع زمن ابن عبد السلام، الإمام المالكي التونسي، الذي نسب إليه الاجتهاد، أنه طلب تأديب من قال ببطلان صلاة من أتى بالسيادة فيها. قال الشيخ الحطاب[73] في «شرح مختصر» الشيخ خليل: الذي يظهر لي، وأفعله في الصلاة وغيرها، الإتيان بلفظ السيد.[74]

واختار المجد، صاحب «القاموس»، الحنبلي، ترك السيادة في الصلاة إتباعا للفظ الحديث، والإتيان بها في غير الصلاة.

[الخلاف في السيادة ينحصر في الامتثال أو سلوك الأدب]

والمسألة ـ كما قال العز بن عبد السلام[75] الشافعي ـ تنبني على الخلاف: هل الأولى امتثال الأمر، أو سلوك الأدب؟.

قلت: فمن قال بالامتثال تركَ السيادة، ومن قال بسلوك طريق الأدب أتى بها.

ويؤيد طريق سلوك الأدب، ما فعله سيدنا علي، كرم الله وجهه، لما أمره ﷺ، في صلح الحديبية، أن يمحو (رسول الله)؛ فقال: ما أنا بالذي أمحوه. وفي رواية: والله لا أمحوك أبداً. والقضية في الصحيحين وغيرهما.

ويؤيده أيضا ما في الصحيح؛ حديث أبي بكر، رضي الله عنه، حين أمره، صلى الله عليه وسلم، أن يثبت مكانه، فلم يمتثل وقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ.

«وعلى آله»: أي أهل بيته، بدليل ما بعده. وإن فسر بالأتباع كان ما بعده من عطف الخاص على العام. وسيأتي الكلام على الآل في الشرح والحاشية.

(73) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني الشهير بالحطاب أصله من المغربلكنه ولد في مكة عام 902 هـ من أشهر مؤلفاته شرحه على مختصر خليل الذي سماه مواهب الجليل توفي في طرابلس الغرب عام 954 هـ.

(74) [مواهب الجليل:1 ـ 21]

(75) هو أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الفقيه الشافعيلقب بسلطان العلماء ولد في دمشق وتوفي في القاهرة عام 660 هـ.

[الصحابة، رضي الله عنهم، ومقامهم وعدالتهم]

«وأصحابه»: جمع صاحب، بمعنى الصحابي بياء النسب. وهو مخصوص في العرف بأصحاب النبي ﷺ.

«الطيّبين»؛ الطيّب من الإنسان: من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال؛ وإياهم قصد بقوله: (الذين تتوفّاهُمُ الملائكة طيّبينَ)[76]، قاله الراغب.[77] فمعنى الطيب: الطاهر. وفي الحديث أنه قال لعمار: «مرحبا بالطيب المطيّب»، قال في «النهاية»: أي الطاهر المطهّر.

«الطاهرين» : أي التاركين للذنب، العاملين للصلاح. فهذه الصفة في معنى ما قبلها، فهي إطناب في محله لأن المقام مقام مدح وثناء. وأفاد بهذا أن أصحاب النبي ﷺ، كلهم طيبون طاهرون من درن الفسق وقبيح الأفعال، موصوفون بالعدالة وصدق الأقوال. وعلى هذا اتفق أهل السنة، قال الحافظ ابن حجر: اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة.[78] وقال الآمدي[79] في «إحكامه»: اتفق الجمهور من الأئمة على عدالة الصحابة.[80] وقال أبو عمر بن عبد البر[81] : ونحن وإن كان الصحابة، رضي الله عنهم، قد كفينا البحث عن أحوالهم، لإجماع أهل الحق من المسلمين، وهم أهل السنة والجماعة، على أنهم كلهم عدول.[82]

تعقب كلام الشارح وغيره في مسألة معاوية

ووقع للشارح آخر هذا الكتاب، ما لفظه: «وأما معاوية وأتباعه، فيجوز نسبتهم إلى الخطإ والبغي والخروج والفساد. وأما لعنهم فلا يجوز أصلا.»[83]

---

(76) [النحل، الآية: 32]

(77) [«معجم مفردات ألفاظ القرآن»: 349 ط بيروت1997]

(78) [الإصابة:1 - 9].

(79) هو أبو الحسن سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد الآمدي التغلبي أصولي من أشهر كتبه الإحكام في أصول الأحكام توفي 631هـ

(80) [الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي: 2 /128]

(81) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله النميري المعروف بالحافظ ابن عبد البر فقيه مالكي ومحدث أندلسي مشهور من أشهر مؤلفاته التمهيد والاستيعاب في معرفة الأصحاب توفي عام 463 هـ

(82) [الاستيعاب :1ـ 9 بهامش الإصابة].

(83) [شرح ابن سلطان: 2 / 556].

فكلامه هذا فيه بعض مخالفة لما عليه الجمهور، لأنه يقتضي تفسيق طائفة كبيرة من الصحابة.

وكأنّ المؤلف في هذه المسألة، اغترّ بما للشيعة وجماعة من المعتزلة، من القول بتفسيق من خرج عن علي. وهو مردُودٌ بأن تمسك الصحابة، رضي الله عنهم، بما تمسكوا به من الشبه، يدل على أنهم لم يقدموا على ذلك جرأة على الله وتهاونا بدينه.

وجناب الصحبة أمر عظيم، فمن انتهك أعراض بعضهم فقد وقع في هوة لا ينجو منها سالما. وقد كان في أهل الشام صحابة صالحون عرضت لهم شبه لولا عُروضها لم يدخلوا في تلك الحروب، ولا غمسُوا فيها أيديهم، وقد عُدّلوا تعديلا عاما بالكتاب والسنة. قاله في «إرشاد الفحول».[84]

قلت: وقد أولع بالطعن على مثل معاوية من أهل العصر، صاحب «المنار»[85]، وهو على عادته مقلد للمعتزلة، وهي من إحدى هناته الموجبة لنفور كثير من أهل العلم من تآليفه. وإن كان في «المواقف» ما يفيد أن كثيراً من أهل السنة ذهبوا إلى التفسيق، ولفظها مع الشرح: «والذي عليه الجمهور من الأمة، هو أن المخطئ قتلة عثمان ومحاربُو علي، لأنهما إمامان؛ فيحرم القتل والمخالفة قطعا. إلا أن بعضهم، كالقاضي أبي بكر[86]، ذهب إلى أن هذه التخطئة لا تبلغ إلى حد التفسيق. ومنهم من ذهب إلى التفسيق كالشيعة وكثير من أصحابنا.»[87].

وبالجملة؛ فأمر الصحبة عظيم، والإقدام على التضليل ضلال. وفي «الرسالة»: ويجب أن لا يذكر أحدٌ من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يُلتمس لهم أحسن المخارج، ويُظن بهم أحسن المذاهب.[88]

وفي «شرح العقائد» للسعد[89] : وما وقع بينهم من المنازعات والمحاربات؛ فله محامل وتأويلات. فسبهم والطعن فيهم، إن كان مما يخالف الأدلة القطعية؛ فكفرٌ كقذف عائشة، رضي الله عنها، وإلا فبدعة وفسق.[90]

(84) [إرشاد الفحول. إلى تحقيق الحق من علم الأصول. للقاضي الشوكاني: ص62]

(85) يقصد محمد رشيد رضا المفكر الإسلامي وأحد تلامذة محمد عبده وصاحب مجلة المنار توفي سنة 1935 م

(86) هو أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الشهير بالقاضي أبي بكر المعافري عالم من إشبيلية (الأندلس) من أشهر مؤلفاته العواصم من القواصم وقانون التأويل وأحكام القرآن توفي في المغرب ودفن بفاس عام 543 هـ

(87) [المواقف: 8 ـ 374].

(88) [رسالة ابن أبي زيد القيرواني: 13]

(89) هو سعد الدين أبو مسعود بن عمر التفتازاني السمرقندي الحنفي من أشهر مؤلفاته شرح العقائد النسفية توفي حوالي 792 هـ

(90) [شرح العقائد. للسعد: 146]

وقال حجة الإسلام[91] في كتاب «قواعد العقائد»: واعتقاد أهل السنة: تزكية جميع الصحابة، والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ.

وما جرى بين معاوية وعليّ، رضي الله عنهما، كان مبنيا على الاجتهاد، لا منازعة من معاوية في الإمامة؛ إذ ظن علي رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان -مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر- يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها، فرأى التأخير أصوب. وظن معاوية أن تأخير أمرهم -مع عظم جنايتهم- يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك. وقد قال أفاضل العلماء: كل مجتهد مصيب. وقال قائلون: المصيب واحد. ولم يذهب إلى تخطئة علي ذو تحصيل أصلاً.[92]

قلت: ومن كلام سيدنا عليّ: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنَرِدَ المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك».[93]

[ارتفاع جناب الصحبة وجلالة قدرها]

ومما يدل لارتفاع جناب الصحبة وجلالة قدرها، وهيبة مكانها عند كبار الصحابة، ما في «الإصابة»، عن نبيح، يعني العنزي، عن أبي سعيد الخدري قال: كنا عنده وهو متكئ، فذكرنا عليا ومعاوية، فتناول رجل معاوية، فاستوى أبو سعيد الخدري جالسا، ثم قال: كنا ننزل رفاقا مع رسول الله ﷺ، فكنا في رفقة فيها أبو بكر، فنزلنا على أهل أبيات، وفيهم امرأة حبلى، ومعنا رجل من أهل البادية فقال للمرأة الحامل: أيسرك أن تلدي غلاما؟ قالت: نعم. قال: إن أعطيتني شاة ولدت غلاما. فأعطته فسجع لها أسجاعا، ثم عمد إلى الشاة فذبحها وطبخها، وجلسنا نأكل منها ومعنا أبو بكر، فلما علم بالقصة قام فتقيأ كل شيء أكل. قال: ثم رأيت ذلك البدوي أتى به عمر بن الخطاب، وقد هجا الأنصار، فقال لهم عمر بن الخطاب: لولا أن له صحبة من رسول الله ﷺ، ما أدري ما نال فيها، لكفيتكموه، ولكن له صحبة من رسول الله ﷺ. قال الحافظ[94]: ورجال هذا الحديث ثقات. وقد توقف عمر رضي الله عنه عن معاتبته، فضلا

---

(91) هو أبوحامد محمد الغزالي الطوسي الشهير بحجة الاسلام الفقيه والمتكلم والصوفي والفيلسوف توفي في 505 هـ

(92) [إحياء علوم الدين:1/102]

(93) [نهج البلاغة: 1/267]

(94) هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني عالم حديث مصري من أشهر كتبه فتح الباري شرح صحيح البخاري والاصابة في تمييز الصحابة توفي في مصر عام 852 هـ

عن معاقبته، لكونه علم أنه لقي النبي ﷺ. وفي ذلك أبْيَن شاهد على أنهم كانوا يعتقدون أن شأن الصحبة لا يعدله شيء، كما ثبت في الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري، من قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه».

ثم أتى الحافظ، رحمه الله، بأحاديث تأييدا لما قال، فانظر ذلك أول»الإصابة».[95]

قوله: «وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين»: أي يوم الجزاء، ومنه قولهم: كما تدين تُدان. أي كما تفعل تجازى، ومنه قول الحماسي:

ولم يبق سوى العُدوَ ... انِ دِنَّاهُم كما دَانُوا

أي جازيناهم بمثل ما ابتدءونا به، وتعبيره بيوم الجزاء أحسن من يوم القيامة ونحوه، لما فيه من رعاية السجع وإفادة العموم. فإن الجزاء يتناول جميع أحوال الآخرة إلى السرمد، بخلاف يوم القيامة.

ثم قال الشارح :

أما بعد. فيقول أفقر العباد إلى كرم ربه الباري، علي ابن سلطان محمد القاري: لما رأيت كتاب الشفاء، في شمائل صاحب الاصطفاء، أجمع ما صنف في بابه مجملا في الاستيفاء، لعدم إمكان الوصول إلى انتهاء الاستقصاء؛ قصدت أن أخدمه بشرح، الخ. (يتبع)

قوله: «أما بعد. فيقول أفقر العباد إلى كرم الباري». [الباري]: هو الذي خلق الخلق لا عن مثال. و[لهذه] اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلما تستعمل في غير الحيوان، فيقال: برأ الله النسمة، وخلق السماوات والأرض. قاله في «النهاية». وفي «الكشاف»: البارئ هو الذي خلق الخلق بريا من التفاوت، (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُت)[96]، ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصورَ المتبايِنة.[97] أي التفاوت بأن تكون إحدى اليدين في غاية الصغر والرقة، والأخرى بخلافه، ومتميزا بعضه عن بعض بالخواص والأشكال، والحسن والقبح، أي فالباري أخص من الخالق.

(95) [الإصابة في تمييز الصحابة. لابن حجر:11/1]
(96) [المُلك. الآية: 3]
(97) [تفسير الكشاف: 215/1]

وفي «المقصد الأسنى» للغزالي:

قد يظن أن هذه الأسماء - أي التي هي الخالق البارئ المصور - مترادفة، وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع، ولا ينبغي أن يكون كذلك، بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود فيفتقر إلى التقدير أولا، وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانيا، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثا. والله تعالى خالق من حيث إنه مقدر، وبارئ من حيث إنه مخترع موجد، ومصور من حيث إنه مرتب صور مخترعات أحسن ترتيب. وهذا كالبناء مثلا؛ فإنه يحتاج إلى مقدر يقدر ما لا بد منه من الخشب واللبن ومساحة الأرض، وعدد الأبنية وطولها وعرضها، وهذا يتولاه المهندس فيرسمه ويصوره، ثم يحتاج إلى بنّاء يتولى الأعمال التي عندها يحدث حصول الأبنية، ثم يحتاج إلى مزين ينقش ظاهره، ويزين صورته، ويتولاه غير البناء. هذه هي العادة في التقدير والبناء والتصوير، وليس كذلك في أفعال الله تعالى، بل هو المقدر والموجد والمزين؛ فهو الخالق البارئ المصور.هـ[98]

[ترجمة الشارح العلامة ابن سلطان]

«عليّ ابن سلطان محمد القاري»: نسبة لقار: قرية بالري، منها أبو بكر القاري. ويحتمل أنه فاعل من القراءة. الهروي الحنفي. كان من أهل التصوف، كما يؤخذ من هذا الشرح - أي شرح الشفاء - وغيره.

وحلاّه الشيخ جسوس[99]، في «شرح الشمائل»، بقوله: الإمام البحر الهمام.[100]

وله ولوع بالحديث، وغالب تآليفه المشهورة في هذا الفن، إذ له هذا «الشرح»، و«جمع الوسائل، في شرح الشمائل»، و«شرح الأربعين النووية»، و«مرقاة المفاتيح»، و«المنح الفكرية، بشرح المقدمة الجزرية». وله في التوحيد: «ضوء المعاني، على بدء الأماني». توفي - حسبما في بعض الفهارس - سنة أربعة عشر وألف.

ثم قال: «لما رأيت كتاب الشفاء». أي الكتاب المسمى بـ «الشفاء»؛ فالشفا عَلَم، فنقول هذا الكتاب، وأصله من شفا الله المريض شفاء، أي أبرأه. والشفاء: البرء،

[98] [المقصد الأسنى: 36]

[99] هو أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد جسوس الفقيه المالكي والمتصوف السني من علماء فاس له شرح شمائل الترمذي توفي عام 1182 هـ

[100] [الفوائد الجليلة البهية: ص 3]

وعرف بأنه رجوع الأخلاط إلى الاعتدال، واستعمل في القرآن بمعنى الفرح، كقوله: (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)، أي يسرهم. وبمعنى العافية كقوله: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ). وبمعنى البيان كقوله: (شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ)، كما أفاده الشهاب.

قوله: «في شمائل»: جمْع شمال بكسر الشين: الطبع والخُلق، قال ابن الفارض[101]:

تبارك الله ما أحلى شمائلــــه ... فكم أماتت وأحيت فيه من مُهج

قوله: «صاحب الاصطفاء»: أي الاختيار والقرب. من الصفاء؛ وأصله خلوص الشيء من الشوب. والاصطفاء: تناول صفو الشيء، أي شمائل المصطفى. وقد تصرف الشارح في اسم المؤلف، لأنه: «الشفا، بتعريف حقوق المصطفى».

قوله: «أجمع ما صُنّف»: أي ألف وجمع. والتصنيف في اللغة: التمييز. وصنفت الشيء: جعلته أصنافاً، فكأن المصنف لكتاب، مبين النوع، أو القدر الذي أتى به في كتابه من غيره. قاله النووي في «التهذيب»[102]. «في بابه»؛ وهي شمائل المصطفى ﷺ، وأول من أفردها بالتأليف الإمام الحافظ، أبو عيسى الترمذي[103]، وإلا فهي حافلة في سيرته ﷺ.

وعُرف علم السِّير بأنه العلم الباحث عن أيام النبي ﷺ، وأحواله من أول مبعثه إلى أن توفاه الله، فدخل فيه المغازي والشمائل.

«مجملاً في الاستيفاء، لعدم إمكان الوصول إلى انتهاء الاستقصاء».

يعني أن هذا التأليف هو أجمع مؤلف إجمالي فيما يتعلق باستيفاء شمائله، عليه السلام، لتعذر الوصول إلى الإحاطة والاستقصاء؛ بمعنى أن التأليف في هذا الشأن كلها جاءت مجملة ولم تستوف المقصود، لعدم إمكان الوصول إليه. وفي «البردة»:

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى ... في القرب والبعد منه غير منفحم

كالشمس تظهر للعين من بُعـــد ... صغيرة، وتكل الطرف من أمَـــم

(101) هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي من أشهر الشعراء الصوفية ولد في مصر معظم شعره في الحب الإلهي توفي في مصر 632 هـ.

(102) [تهذيب الأسماء، للنووي: 180/1]

(103) هو أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي الترمذي صاحب كتاب السنن توفي عام 279 هـ.

وفي «الهمزية»:

إنما مثلوا صفاتك للنـــــــا   س كما مثل النجـوم المــــاء

ولابن زكري[104] :

كنهك الأحمدي سرٌّ مصـــــون   عن عُـلاه تقاصـر العلمـــــاءُ

وفي الأثر، حسبما في «المواهب»، أن خالد بن الوليد خرج في سرية من السرايا، فنزل ببعض الأحياء، فقال له سيد الحي: صف لنا محمداً. فقال: أما إني أفصّل فلا! فقال الرجل: أجْمل. فقال: الرسول على قدر المرسِل.[105]

[بعض ما قيل في مدح كتاب الشفاء]

وأشار بهذه الفقرة لمدح هذا الكتاب والثناء عليه. وهو حقيق بذلك، فقد أثنى الناس عليه، نظما ونثرا.

قال ابن فرحون: أبدع فيه - أي في كتاب الشفا - كل الإبداع، وسلم له أكفاؤه كفاءته فيه، ولم ينازعه أحد في الانفراد به ولا أنكروه مزية السبق إليه؛ بل تشوفوا للوقوف عليه، وأنصفوا في الاستفادة منه. وحمله الناس عنه، وطارت نسخه شرقا وغربا.

وقال العلامة القسطلاني[106] في «مواهبه» : وكل من صنف في شيء من المنح النبوية، والمناقب المحمدية، لا يستغني عن استجناء معارف اللطائف من رياض عياض، والاستشفاء من أدواء المشكلات بدواء «شفائه» المبرئ لمعضل الأمراض.[107]

وقال الشهاب الخفاجي: هذا، وإن كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»؛ كتاب قدره جليل، وهو على جلالة مصنفه أدلّ دليل. قال:

وقد وفّى بيان بعض ما يجب من آياته، ونشر على كاهل الدهر ألوية الثناء بين يدي صفاته، مما يحق له أن يكتب بالنور، في صحائف وجنات الحور، وينقش بقلم العقل معانيه، ويخط على ألواح الأذهان لأطفال الأرواح مبانيه.

---

(104) هو العالم والصوفي المغربي الفاسي له العديد من المؤلفات ومن بينها قصيدته الهمزية في مدح الجناب النبوي توفي بفاس عام 1144 هـ

(105) [المواهب اللدنية، للقسطلاني:1/249]

(106) هو شهاب الدين أحمد بن حسين بن علي القسطلاني المصري فقيه شافعي من أشهر مؤلفاته «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» توفي بالقاهرة سنة 1517هـ

(107) [المواهب اللدنية، للقسطلاني:1 /5]

صحف أترعت بشهد حلا ... في كل ذوق لذاك كان شفا

ولعمري لقد نثر الدر فيه من فيه، وبلغت أمانيه ما كانت تنويه من التنويه.

حديث لو أن الميت نودي باسمه ... لأصبح حياً بعد ما ضمّه القبرُ [108]

ومن «الأزهار»: وأنفس كتاب احتوى على هذا المعنى -أي شمائله ﷺ- الشفا، بتعريف حقوق المصطفى.[109] وقال فيها نظما الإمام النظار، أبو إسحاق الشاطبي:

هذي رياض يروق العقل مخبرها ... هي الشفا لنفوس الخلق إن دنفت

يُجنى بها زهر التكريم أو ثمر التعظيم ... والفوز للأيدي التي قطفت

أبدت لنا من سناها كل واضحة ... حسابها دونها الأطماعُ قد وقفت

وشيد العقل أركانا موطدة ... بها على متن أصل الشرع قد وصفت

فيا أبا الفضل حزت الفضل في عرض ... به أقرت لك الأعلام واعترفت

لأنتَ بحر علوم ضلَّ ساحله ... منه استمدت عيون العلم واغترفت [110]

وقال لسان الدين ابن الخطيب[111] :

شفاء عياض للنفوس شفاءُ ... فليس بفضل قد حواه خفاءُ

هدية بر لم يكن لمهديها ... سوى الأجر والذكر الجميل كفاءُ

وفى لنبي الله حق وفائه ... وأكرم أوصاف الكرام وفاءُ

وجاء به بحرا يقول بفضله ... على البحر طعم طيب وصفاء

وقال أيضا:

يا ناقل الأثر يُعنى بها ... وواصلا في العلم جري الجموحْ

طرفك في الفضل بعيد المدى ... طَرفك للمجد شديد الطمُوحْ

كفاك إعجازاً كتابُ الشفا ... والصبحُ لا ينكر عند الوضوحْ

لله ما أجزلت فينا به ... من منحة تقصر عنها المنوحْ

---

(108) [نسيم الرياض، للخفاجي: 1 ـ 2]

(109) [الأزهار لابن الحاج: 190 ط حجرية].

(110) [بنقل المعيار للونشريسي: 110/11]

(111) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله السلماني الخطيب اختص بخدمة أمراء بني نصر في غرناطة فلقب بذي الوزارتين تزين مجموعة من أشعاره جدران قصر الحمراء إلى يومنا هذا توفي عام 776 هـ

قوله : (الحمد الله) الخ. لما كان هذا الأمر الذي تصدي له المصنف، من أهم الأمور؛ افتتحه بالحمدلة والثناء، للحديث المأثور، وكما هي سنة النبي، عليه السلام، وطريقة صحابته الكرام، ونهج الأئمة التابعين لهم في كل حال ومقام.

قال العارف ابن أبي جمرة[117]، في حديث البخاري، عن أسماء، أن النبيﷺ، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما من شيء لم أكن أريته»، الحديث:

الوجه الأول : قولها، [أي السيدة أسماء راوية الحديث]: «حمَد الله»؛ فيه دليل على أن الأمور المهمة تستفتح بحمد الله، لأن هذا الذي استفتح، عليه الصلاة والسلام، بالحمد فيه، كان أمراً مهما عظيما، وهو أنه، عليه الصلاة والسلام، كان انصرف من صلاة كسوف الشمس ثم أقبل على الناس يعظهم ويذكرهم. وكذلك كانت سنته، عليه الصلاة والسلام، في كل أمر له بال، يستفتحه أولا بالحمد. وكذلك في السنة، في خطبة النساء، لأنه أمرٌ له بال، وقد تقرر ذلك من فعله، عليه الصلاة والسلام، ومن فعل الصحابة، رضي الله عنهم.

الوجه الثاني : قولها: «وأثنى عليه»؛ فيه دليل على أن الثناء بعد الحمد من السنة ومرغب فيه، لأنه عليه الصلاة والسلام، كان يفعل ذلك واستمر عمله، وعمل الصحابة على هذه السنة فيما يخصه، عليه الصلاة والسلام. وأما غيره فلا بدّ له من الصلاة عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدي». والخلفاء بعده والصحابة عن آخرهم، كانوا يصلون عليه ﷺ، بعد الحمد والثناء على الله عز وجل. هـ.

والحمد : مصدر حمد يحمد، قال أبو حيان في «بحره»: الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها باللسان وحده ونقيضه الذم، وليس مقلوب مدح، خلافا لابن الأنباري، إذ هما في التصريفات متساويان، وإذ قد يتعلق المدح بالجماد فتمدح جوهرة، ولا يقال تحمد. والحمد والشكر بمعنى واحد، أو الحمد أعم. والشكر ثناء على الله تعالى بأفعاله، والحمد ثناء بأوصافه؛ ثلاثة أقوال أصحها أنه أعم، فالحامد قسمان: شاكر، ومثن بالصفات.هـ[118]

والمشهور أن الحمد لغوي وعرفي. فاللغوي: هو الوصف بالجميل على الجميل الاختياري. والعرفي: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب إنعامه على الحامد أو غيره، سواء كان قولا باللسان، أو اعتقادا بالجنان، أو عملا وخدمة بالأركان. فاللغوي

[117] هو أبو محمد عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأندلسي توفي بالقاهرة وبها دفن عام 699 هـ
[118] [التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط: 18/1]

روض من العلـم همى فوقـه — من صيب الفكر الغمام السفـوحْ
فمن بيان الحـق زَهْـر بـدا — ومن لسـان الصدق طير صـدحْ
تأرّج العـرف وطـاب الجنـى — وكيـف لا يثمـر أو لا يفـوحْ
وحلـة من طيـب خيْر الـورى — في الجيب والأعطاف منها نضـوحْ
ومعلـم للـديـن شيّـدتـه — فهـذه الأعـلام منهـا تلـوحْ[112]

وبالجملة؛ فهذا الكتاب مما ابتهجت به هذه الأمة، واعترفت بفضائله الجمّة، وأعدته للملمّات المدلهمة.

قال الشهاب: قرأت في ديوان ابن المقري[113] اليمني الشافعي، رحمه الله، ان كتاب «الشفا» مما شاهدوا بركته، حتى لا يقع ضرر لمكان كان فيه، ولا تغرق سفينة كان فيها، وأنه إذا قرأه مريض، أو قرئ عليه، شفاه الله. وهو مما جرب، وكان ابتلي بمرض فقرأه فعافاه الله منه، وقال في ذلك:

ما بالكتاب هـواي لكن الهـوى — أمسى بمـن أمسى بـه مكتوبـا
كالدار يهوى العاشقون بذكرهـا — شغفًا بها لشمُـولهـا المحبـوبـا
أرجو الشفاء تفاؤلا باسم الشفـا — فحوى الشفـاء وأدرك المطلوبـا
وبقدر حسن الظن ينتفع الفتـى — لاسيما ظـن يصيـحُ مجيبـا

[هـ][114]

وقال بعد هذا: واسمه - أي هذا الكتاب - موافق لمسماه. فإن السلف [الصالحين قالوا: إنه جرب قراءته لشفاء الأمراض وفكّ عُقد الشدائد، وفيه أمان من الغرق والحرق والطاعون؛ ببركته ﷺ، وإذا صحّ الاعتقاد، حصل المراد.][115]

[مقدمة المصنف، (الشفا)] [116]

الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى، المختص بالملك الأعز الأحمى، الذي ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى. (يتبع)

(112) [نفح الطيب للمقري، 211/3]

(113) هو أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله الشاوري الزبيدي اليمني الشافعي الشهير بابن المقري من أشهر مؤلفاته إرشاد الغاوي إلى مسالك الحاوي توفي 837 هـ

(114) [نسيم الرياض، للخفاجي: 4/1]

(115) [هذه الفقرة سقطت من المخطوطة ونقلتها من الأصل، أي«نسيم الرياض»: 66/1]. أ م

(116) [ذكر متن الشفاء هنا إضافة، وليس من وضع المؤلف]. أ م

قوله : (الحمد لله) الخ. لما كان هذا الأمر الذي تصدي له المصنف، من أهم الأمور؛ افتتحه بالحمدلة والثناء، للحديث المأثور، وكما هي سنة النبي، عليه السلام، وطريقة صحابته الكرام، ونهج الأئمة التابعين لهم في كل حال ومقام.

قال العارف ابن أبي جمرة[117]، في حديث البخاري، عن أسماء، أن النبيﷺ، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما من شيء لم أكن أريته»، الحديث:

الوجه الأول : قولها، [أي السيدة أسماء راوية الحديث]: «حمَد الله»؛ فيه دليل على أن الأمور المهمة تستفتح بحمد الله، لأن هذا الذي استفتح، عليه الصلاة والسلام، بالحمد فيه، كان أمراً مهما عظيما، وهو أنه، عليه الصلاة والسلام، كان انصرف من صلاة كسوف الشمس ثم أقبل على الناس يعظهم ويذكرهم. وكذلك كانت سنته، عليه الصلاة والسلام، في كل أمر له بال، يستفتحه أولا بالحمد. وكذلك في السنة، في خطبة النساء، لأنه أمرٌ له بال، وقد تقرر ذلك من فعله، عليه الصلاة والسلام، ومن فعل الصحابة، رضي الله عنهم.

الوجه الثاني : قولها: «وأثنى عليه»؛ فيه دليل على أن الثناء بعد الحمد من السنة ومرغب فيه، لأنه عليه الصلاة والسلام، كان يفعل ذلك واستمر عمله، وعمل الصحابة على هذه السنة فيما يخصه، عليه الصلاة والسلام. وأما غيره فلا بدّ له من الصلاة عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدي». والخلفاء بعده والصحابة عن آخرهم، كانوا يصلون عليه ﷺ، بعد الحمد والثناء على الله عز وجل. هـ.

والحمد : مصدر حمد يحمد، قال أبو حيان في «بحره»: الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها باللسان وحده ونقيضه الذم، وليس مقلوب مدح، خلافا لابن الأنباري، إذ هما في التصريفات متساويان، وإذ قد يتعلق المدح بالجماد فتمدح جوهرة، ولا يقال تحمد. والحمد والشكر بمعنى واحد، أو الحمد أعم. والشكر ثناء على الله تعالى بأفعاله، والحمد ثناء بأوصافه؛ ثلاثة أقوال أصحها أنه أعم، فالحامد قسمان: شاكر، ومثن بالصفات.هـ[118]

والمشهور أن الحمد لغوي وعرفي. فاللغوي: هو الوصف بالجميل على الجميل الاختياري. والعرفي: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب إنعامه على الحامد أو غيره، سواء كان قولا باللسان، أو اعتقادا بالجنان، أو عملا وخدمة بالأركان. فاللغوي

(117) هو أبو محمد عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأندلسي توفي بالقاهرة وبها دفن عام 699 هـ.
(118) [التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط: 18/1]

أخص مورداً، لكون محل وروده اللسان فقط، وأعم متعلقا، أي لكونه يكون متعلقا بالإنعام وبغير إنعام. والعرفي أعم موردا، أي لكون محل وروده ليس خاصا باللسان بل يكون باللسان وباليد وغيره من الجوارح وبالقلب، كما يشير له القائل:

أفادتكم النعمـــاء مني ثلاثـــة   يدي ولساني والضمير المحجبـــا

وأخص متعلقا، أي لكون ما يتعلق به لا يكون إلا إنعاما، لأنه في مقابلة الإحسان. وهذا أجلى من أن يسطره قلم، لأنه أشهر من نار على علم.

قوله، أي الشارح، عند قول المصنف الحمد الله: «بالجملة الإسمية لإفادة الديمومة» الخ.[119] قوله: «خلافا للمعتزلة» الخ؛ [أي في قولهم: إن اللام في الحمد لتعريف المسمى دون الاستغراق، حسبما صرح بذلك زعيمهم الزمخشري، وذلك بناء منهم على أن أفعال العباد ليست مخلوقة الله تعالى، فلا يكون جميع المحامد راجعة إليه. ولكن ما قاله الشارح، تبعا لغيره، فيه نظر!

[ترجمة العلامة الشمني]

قوله: «وأغرب الشمني»الخ. هو الإمام تقي الدين أبو العباس، أحمد الشمني[120] الحنفي، من شيوخ السيوطي، وحيد عصره في الفنون. له على المتن «مزيل الخفا»، وهي حاشية صغيرة، وله حاشية على «المغني»، و«شرح النقاية» في الفقه، وشرح «نظم النخبة» لأبيه. وله غير ذلك. طلب لقضاء الحنفية فأبى. مات سنة872 هـ. وانظر ترجمته في»حسن المحاضرة».

وقوله: «أغرب»الخ. الذي حمل الشمني على هذا، هو ما قاله أبو حنيفة، رضي الله عنه، أن أسماءه تعالى وصفاته، مستوية في العظم والفضل، لا تفاوت بينها. وهو مناف لما ذكره المصنف؛ فأوّل، رحمه الله، ما ذكره المصنف بأن أخرج إسم التفضيل عن بابه. ولكن مراد أبي حنيفة، رضي الله عنه، كما قاله الشهاب، انها من حيث إضافتها إلى المسمى والموصوف، لأن مسمى جميع الأسماء والموصوف بجميع الصفات واحد، وهو الله تعالى. وهذا لا ينافي التفاوت في حقائقها.][121]

(119) [سقطت هنا جملة أو أكثر]

(120) هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد الشمني القسنطيني الأصل من مواليد الإسكندرية بمصر عام 801 هـ وكان جلال الدين السيوطي أحد تلاميذه توفي عام 872 هـ

(121) [هذه الفقرات سقطت من المخطوطة، ونقلتها من خط المؤلف بهامش «شرح ابن سلطان»، ابتداء من قوله: «خلافا للمعتزلة»، إلى قوله: «وهذا لا ينافي التفاوت في حقائقها». وذلك بقصد ربط الموضوع وإتمامه].أم

ثم إن قول المصنف: (المختص بالملك):

الباء داخلة على المقصور، وهو الملك. وهذا الاستعمال هو الكثير، وهو فصيح، وإن كان القياس دخولها على المقصور غلبة، وهذا يفيده كلام السيد، والسعد، فقول الناظم:

والباء بعد الاختصاص يكثر دخولها على الذي قد قصروا
وعكسه مستعمل وحيد ذكره الحبر الهمام السيد

صوابه: *ذكره السعد كذاك السيدُ*، ليلا يفيد أن السعد يخالف في هذا. وقوله: «مستعمل وحيد». الصواب أن يشير بأنه الأصل والقياس، كما أفاده كل من السعد والسيد. قال السعد: الأصل في لفظ التخصيص، والاختصاص، والخصوص، أن يستعمل بإدخال الباء في المقصور عليه؛ فيقال: اختص الجود بزيد، أي صار مقصوراً عليه. إلا أن الأكثر في الاستعمال إدخالها على المقصور بناء على تضمن ذلك معنى التمييز والإفادة. وقيل مجاز صار بمنزلة الحقيقة؛ هذا ما لهم.

وللعلامة الشهاب الخفاجي تفصيل آخر، وحاصله أنه يقول:

إن الباء تدخل على كل منهما حقيقة، وقد يترجح أحدهما بحسب المقام، فإن الفاعل الحقيقي من قام به الفعل لا من أو جده، فإذا أسند إلى أحدهما حقيقة تعين دخول الباء على الآخر، لأن قيام الاختصاص به إما بحسب الأمر والاستحقاق، أو بقهر وتغلب. فعلى الأول يسند حقيقة للمقصور، لأنه اختص بنفسه. وعلى الثاني يسند للمقصور عليه حقيقة، لأنه بفعله، مثاله: لو مات رجل عن ابن وخال، يختص المال بالابن، فتقول: اختص مال فلان بابنه دون خاله. فلو كان له ابنان، وحاز أحدهما المال كله تغلبا، فاللائق أن تقول: اختص الابن بالمال. فيتعين دخول الباء على المقصور عليه. وفي الثاني بالعكس، قال: فالظاهر أن كلا منهما فصيح صحيح لغة حقيقة فيهما، وليس المعنى فيهما واحدا كما تقرر، وزعمه مع هذا أنه مجاز خبَطٌ. وفي كلام اللغويين ما يصرح بما قلناه.هـ.[122]

وقد نظمت ما ذهب إليه السعد والسيد، مع الإشارة لما ذهب إليه الشهاب، [فقلت]:

والباء بعد الاختصاص وصلها بنفس مقصور عليه أصلها
وأدخلت أيضا على المقصور وشاع ذا في لغة الجمهور

(122) [نسيم الرياض:1-9]

لكـــن بتضميـن أو المجـــاز بنحو إفـراد أو امتيـــــاز
تقول خصّ الحسْنَ بالنبــــي واختص بالخُلق العلي البهـــي
وللشهـــاب الحـق في المـــرام رجوعنـا لمقتضى المقـــام
فما بـه الفعل الحقيقي قامـا بالباء في السوي لـه إلزامـا
وفاعلٌ حقيقـة من اتّصـــفْ بالفعل لا مُوجده كما عُـرفْ

***

قوله: (الذي ليس دونه منتهى، ولا وراءه مرمى)؛ في معنى هذه العبارة احتمالات:

الأول: أن يكون(الذي) نعتا لملك؛ والمعنى: ليس قبل ملكه شيء، ولا بعده شيء؛ فهو مالك كل ملك.

الثاني: أن يكون (الذي) صفة لاسم الجلالة، فيكون المعنى: الذي ليس قبله تعالى شيء، ولا بعده شيء؛ إذ هو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، فيكون مفيدا لصفتي البقاء والقدم، وعلى هذا يتصل الكلام بما بعده اتصالا ظاهرا.

الثالث: أن يكون (الذي) صفة لاسم الجلالة أيضا، لكن يكون من باب نفي الشيء بنفي لازمه؛ فيكون نفي القرب والبعد والمراد ملزومهما الذي هو الجهة؛ ويكون المعنى: الله تعالى ليس للقرب منه نهاية. وكل من ليس للقرب منه نهاية ليس في جهة؛ فيفيد: الله تعالى ليس في جهة. هذا مذهب أهل السنة والجماعة خلافا للحشوية.

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: من زعم أن الله في شيء، أو من شيء، أو على شيء؛ فقد أشرك. إذ لو كان على شيء لكان محمولا، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً.هـ[من الرسالة القشيرية:6].

وفي «الرسالة» للقشيري أيضا: سمعت الإمام أبا بكر بن فورك[123]، رحمه الله تعالى، يقول: سمعت أبا عثمان المغربي[124] يقول: كنت أعتقد شيئا من حديث الجهة، فلما قدمت بغداد زال ذلك عن قلبي، فكتبت إلى أصحابنا بمكة: إني أسلمت الآن إسلاما جديدا.[125]

(123) هو أبو بكر محمد بن فورك الاصبهاني الشافعي الأشعري من كبار علماء الأشاعرة الأوائل له العديد من المؤلفات من أهمها مجرد مقالات وكتاب الحدود .... توفي عام 406 هـ

(124) هو أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي القيرواني من أعلام التصوف في القرن الرابع الهجري توفي عام 373 هـ وصلى عليه تلميذه ابو بكر بن فورك

(125) [الرسالة: ص5]

فهذه أوجه ثلاثة في كلام المصنف، وقد أشار الشارح للوجه الثاني أول التقرير بقوله: «أي موضع غاية ومحل نهاية، فيفيد معنى البقاء»الخ.

وأشار إلى الثالث بقوله: «وحاصل الجملتين» الخ. وهذا الثالث عليه اقتصر الشمني في «مزيل الخفا»[126]. وفي «نسيم الرياض» التصدير بالوجهين الأولين.
قوله: «مقتبس من قوله ﷺ»،الخ: أي كما رواه المصنف في «مشارقه»، وابن الأثير في «النهاية».

قوله: «أي ليس غيره»،الخ. هذه إشارة لتفسير (وراءه)، ولها معان منها هذان، وهما: غير وبعد، ومنها نقيض قدام، ومنها قدام فهو من الأضداد.

قوله: «قال النابغة». أي الذبياني،[الذي قال: وليس وراء الله للمرء مذهب]الخ، وهذا عجز بيت من الطويل، وصدره:

*** حلفت فلم تترك لنفسك ريبة * الخ.**

قوله: «وفي النهاية». «النهاية» لابن الأثير، أحد الإخوة الثلاثة، وهو الإمام المحدث اللغوي، مجد الدين. له «النهاية» هذه، و«جامع الأصول». ثانيهم: صاحب «الكامل» في التاريخ، وهو عز الدين علي بن محمد. ثالثهم: صاحب «المثل» وهو الوزير الأديب ضياء الدين.

قوله: «ليس في جهة ولا في حيز». الحيز، بحسب اللغة، كل مكان يفصل عن الحوز، وهو الجمع والضم.

وعند المتكلمين هو الفراغ المتوهم الذي يشغله شيء ممتد، [كالجسم، أو غير ممتد] كالجوهر الفرد. وعند الحكماء هو السطح الباطن من الحاوي المماس للسطح الظاهر من المحوي، قاله السيد.[127]

[معنى قرب العبد وبعده من ربّه]

قوله: «وأما القرب والبعد» الخ. أي فإن قلت: إنه ورد في بعض الأحاديث ما يفيد قرب العبد من ربه وبعده الخ! الجواب: إن ما ورد من ذلك، من القرب والبعد،

---

[126] [مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا، لأحمد بن محمد بن حسن الشمني: ص 1 مخطوطة بخزانة المؤلف.] أ م

[127] [التعريفات، للسيد الجرجاني: ص65]

فالمراد به المعنوي لا الحسي، وهو القرب بالطاعة، والبعد بالمعصية. فإن قلت: لم اقتصر على هذا الحديث وهو قوله: «لا مقرب» الخ، مع أن القرب ورد في القرآن وفي أحاديث أخر في الصحيح وغيره، كقوله تعالى: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[128]، وقوله عليه السلام، كما في مسلم وغيره: يقول الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي، فأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم. وإن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». ونحو ذلك؟. يقال:

إن هذا الحديث فيه الجمع بين القرب والبعد، وللقوم في هذا المنزع عبارات، وأوضحها ما نقله القشيري عن الحسين بن منصور[129] : قربه كرامة وبعده إهانة. هـ. ونقل عن الخراز[130] أنه قال: القرب فقد حس الأشياء من القلب، وهدوء الضمير إلى الله تعالى.

وقال القشيري أيضا:

أول رتبة القرب: القرب من طاعته، والاتصاف في دوام الأوقات بعبادته. وأما البعد، فهو التدنس بمخالفته، والتجافي عن طاعته. فأول البعد بعد عن التوفيق، ثم بعد عن التحقيق، بل البعد عن التوفيق هو البعد عن التحقيق. قال ﷺ، مخبراً عن الحق سبحانه: «ما تقرب إلي المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى يحبّني وأحبّه؛ فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا؛ فبي يبصر، وبي يسمع الخير». فقرب العبد أولاً؛ قرب بإيمانه وتصديقه، ثم قرب بإحسانه وتحقيقه. وقرب الحق سبحانه ما يخصه اليوم به من العرفان، وفي الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان، وفيما بين ذلك بوجوه اللطف والامتنان. ولا يكون قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق. ثم قال:

فقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة عام للكافة، وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين، ثم بخصائص التأنيس مختص بالأولياء، قال تعالى: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[131]، وقال تعالى: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ)[132]، وقال تعالى: (وَهُوَ

---

(128) [سورة ق: الآية 16]

(129) المقصود به الحلاج وهو أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج صاحب نظرية الحلول توفي مقتولا عام 309 هـ

(130) هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز من كبار أعلام التصوف في العراق في القرن الثالث الهجري مشهورا بالورع والمراقبة وكثرة الذكر توفي عام 277 هـ

(131) [ق: الآية 16]

(132) [الواقعة: الآية 85]

مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم)[133]، وقال: (مَا يَكُونُ مِن نَجوَى ثَلاثَةٍ إلاّ هُوَ رَابِعُهُمْ)[134].

ثم قال بعد هذا: فأما القرب بالذات فتعالى الله الملك الحق عنه، فإنه متقدس عن الحدود والأقطار، والنهاية والمقدار. ما اتصل به مخلوق، ولا انفصل عنه حادث مسبوق. به جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل؛ فقرب هو في نعته محال، وهو تداني الذوات. وقرب هو واجب في نعته، وهو قرب بالعلم والرؤية. وقرب هو جائز في وصفه يخص به من يشاء من عباده، الخ[135]. أي على وجه يشارك الخالق، جل شأنه، مع مخلوقاته التي خلقها وسواها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾[136]؛ قال المفسرون: أي جعلك مسوى الخلق، سالم الأعضاء.

[معنى الفناء والبقاء في إصطلاح الصوفية]

قوله: «ويفنى عن شهود» الخ. الفناء عند الصوفية سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة. والفناء فناءان: احدهما ما ذكرنا، وهو بكثرة الرياضة. والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت، وهو بالاستغراق في عظمة الباري تعالى ومشاهدة الحق. قاله السيد[137]، ونحوه للقشيري، وانظر بسط ذلك في «الرسالة» و«العوارف».

قوله: «ويبقى ببقاه». أي ويبقى حاضراً في بقاء الذات ومشاهداً لها. قال الخراز: الفناء هو التلاشي بالحق، والبقاء هو الحضور مع الحق.هـ. وقال الشيباني: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغالط والزندقة.هـ. والشيباني هذا من الصوفية، وأحد رجال «الرسالة». ونقل هذا عنه السهروردي[138] في «العوارف»، والقشيري في «الرسالة».

الظاهر لا تخيلاً ووَهماً، الباطن تقدساً لا عدماً. وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأسبغ على أوليائه نعماً عماً. (يتبع)

[133] [الحديد: الآية 4]
[134] [المجادلة: الآية 7]
[135] [الرسالة: 45]
[136] [الانفطار: الآية 7]
[137] [«التعريفات» للسيد الشريف: 113]
[138] هو شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي البغدادي من أشهر متصوفة أهل السنة وصاحب كتاب عوارف المعارف توفي عام 632 هـ

[تفسير قوله تعالى :
﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾]

قوله: «أي بالأدلة» الخ. الظاهر من أسمائه تعالى، وهو في الأصل اسم فاعل من ظهر إذا بدا ولم يخف، ويقابله الباطن، ثم عم كل محقق معلوم بالبصر أو البصيرة، وهو المراد هنا لمقابلته بالباطن. ويصح أن يفسر بالغالب من ظهر عليه إذا غلبه، وقد صحّ وسُمع. قال القرطبي:

اختلف في معاني هذه الأسماء - أي من قوله تعالى: (هُوَ الأوّلُ والآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)[139] - وقد شرحها رسول الله ﷺ، شرحا يغني عن قول كل قائل؛ فإنه روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهمّ أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء؛ اقض عنا الدين، واغننا من الفقر». عنى بالظاهر: الغالب. وبالباطن: العالم ببواطن الأشياء. قال الشيخ زاده: قيل القول بأن الباطن العالم ضعيف، لأنه يلزم التكرار في قوله: والله[140] بكلِ شيءٍ عَليم.هـ[141].

قوله: «يقينا». في النسخة التي بأيدينا من «الشرح» وقعت لفظة يقينا بين هلالين على أنها من المتن، والموجود في نسخ المتن إسقاطه. وعلى الإسقاط شرح الشهاب.

[الكلام على التخيل والوهم]

قوله: (لا تخيلا ووهما). اختلف في تفسير هذه العبارة، فقيل: التخيل معناه الوهم، ويكون عطف الوهم عليه تفسيرا. وقيل: التخيل بمعنى الظن، والوهم بمعنى السهو؛ والمعنى لا يجب الظن أو السهو. وقيل: التخيل بمعنى الظن، أي الطرف الراجح، والوهم الطرف المرجوح. وقيل: لا بإدراك القوة المتخيلة أو الواهمة، فإن من شأنهما إدراك ما لا تحقق له، فقلبت المتخيل والموهوم على كل ما لا تحقق له، فنفى أن يكون ظهوره كذلك.

(139) [الحديد. الآية: 3]
(140) [كذا في حاشية الشيخ زاده. وصوابه إذا كان القصد تمام الآية المذكورة قبله: (وهو بكل شيء عليم)] أم
(141) [حاشية زادة على تفسير البيضاوي: 3/448]

قول الشارح: «أي لا ظنا بالقوة الخيالية» الخ. هذا كأنه ذهاب منه إلى الوجه الرابع، وقد رجح هذا الوجه.

واعلم أن الحكماء قسموا القوة الباطنة إلى أربعة:

- القوة الواهمة.
- والقوة العاقلة.
- وقوة الحس المشترك.
- والقوة المفكرة.

ولكل من القوى الثلاث خزانة : فخزانة الواهمة الحافظة. وخزانة العاقلة العقل الفياض، على زعمهم. وخزانة الحس المشترك الخيال. قالوا: وبهذه السبعة ينتظم أمر الإدراك، لأن المفهوم المدرك إما كلي أو جزئي، والجزئي إما صورى، وهو المحسوسة بالحواس الخمس الظاهرة، وإما معان. ولكل واحد من الأقسام الثلاثة مدرك وحافظة. فمدرك الكلي هو العقل وحافظه المبدأ الفياض، ومدرك الصور وهو الحس المشترك وحافظها هو الخيال، ومدرك المعاني هو الوهم وحافظها هو الذاكرة، ولا بد من قوة أخرى وهي متصرفة، وتسمى مفكرة ومتخيلة. وهذا كما علمت كله عند الحكماء.

وأما أهل السنة؛ فإنهم لا يقولون بالعقل الفياض، وما عدا ذلك فإنهم يجوِّزُونه. ويجوز عندهم أن يكون المدرك قوة واحدة، وتسمى بهذه الأسماء باعتبار تَعلقها بتلك المدركات وحكمها بتلك الأحكام، فهي من حيث حكمها بالأحكام الكاذبة، وإدراك المعاني الجزئية، وهم. ومن حيث إدراك الصور الظاهرية من الحواس؛ حس مشترك وخيال. ومن حيث التصرف الصادق وإدراك المعاني الكلية متعقلة. ومن حيث التصرف الكاذب متخيلة ومتوهمة. انظر حواشي السعد في «مختصره»، في الفصل والوصل.[142]

قوله: «بل ظهوراً يغلب نوراً». نوراً: تمييز محول عن فاعل، والتقدير : بل ظهوراً يغلب نوره. ويفسر هذه العبارة عبارة أبي حامد في «المقصد الأسنى»، قال: فإنه إنما خفي مع ظهوره لشدة ظهوره، وظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره. وكل ما جاوز الحد انعكس على ضده.[143]

---

[142] [تجريد البناني على مختصر السعد: 2 /56].

[143] [المقصد الأسنى:74].

وبالجملة؛ فالمصنف، رحمه الله، أتى بالسجعتين متضمنتين تفسير هذين الإسمين الجليلين، كما فسرهما حجة الإسلام في «المقصد الأسنى» و«الإحياء»، وأطال في ذلك على عادته، قدس سره، ونصه في «المقصد»:

الظاهر الباطن؛ هذان الوصفان أيضا من المضافات، فإن الظاهر يكون ظاهراً لشيء، وباطنا لشيء، ولا يكون من وجه واحد ظاهرا وباطنا، بل يكون ظاهراً من وجه واحد بالإضافة إلى الإدراك، وباطنا من وجه آخر. فإن الظهور والبطون إنما يكون بالإضافة إلى الإدراكات، والله تعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال، ظاهر إن طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال.[144]

***

قوله: *ففي كل شيء له آية*، الخ. هذا بيت لأبي العتاهية، وقبله:

أيا عجبا كيف يُعصى الإلـه ... أم كيف يجحده الجاحدُ

وله في كل تحريكة ... وسكينة في الورى شاهدُ

وفي كل شيء له آية ... [تدل على أنه الواحدُ]

قوله: «فإنه كما قال الغزالي» الخ. [الغزالي] بتشديد الزاي وتخفيفها: أبو حامد، حجة الإسلام، وستأتي ترجمته.

قوله: (وسَعَ) الخ. لما كان مطمح نظره، رضي الله عنه في هذا الكتاب [أي الشفاء] بيان شرف المصطفى ﷺ، وأنه النعمة العظمى على جميع المخلوقات؛ بدأ بحمد الله تعالى ونعته بما يدل على عظمته في ذاته، وأن الملك له لا تصرف فيه لأحد سواه، ثم ثنى ببيان حال خلقه في ملكه، وما يعاملهم به على وجه ينساق إلى المراد، فقال: (وسعَ) الخ، واستعار السعة هنا للشمول، أي شمل كل شيء رحمته وعلمه. أما إحاطة علمه وشموله فظاهر. قال في «جمع الجوامع»: وعلمه شامل لكل معلوم: جزئيات وكليات.[145]

وأما شمول الرحمة، فالمعذب مرحوم بالنظر إلى العذاب الأشد. ثم إن الرحمة لغة: ميل الطبع ورقته، وهو مما لا يوصف به الباري، فيحمل على لازمه القريب أو

---

(144) [المقصد الأسنى: 73]

(145) [جمع الجوامع: 3/273]

البعيد، وهي إرادته الإنعام، أو الإنعام بالفعل. وذهب الباقلاني[146]، رحمه الله، إلى أنه تجوز به عن معاملته معهم معاملة الراحم بمن يرحمه. وذهب الأشعري[147] أنه تجوز به عن إرادته ذلك، فعلى رأي القاضي يجوز أن يقال: اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك. وعلى رأي الشيخ لا يجوز.

وفي القرآن مواضع تناسب كلا من الرأيين، فقوله تعالى: (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً)[148]؛ يناسب الإرادة، لاقترانها بالعلم. وقوله: (هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي)[149]؛ يناسب الإنعام، لأنه إشارة إلى أن السيد يناسبه الإحسان.

قوله: «فإن كل شيء» الخ. في «الحكَم» لابن عطاء الله : نعمتان ما خرج موجودٌ عنهما، ولا بدّ لكل مكوّن منهما نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد؛ أنعم عليك بالإيجاد، وثانيا بتوالي الإمداد.[151]

وقوله: «إمدادا»: بكسر الهمزة، مصدر أمده. وقوله: إعداداً، أي معطوف على إحصاء؛ والإحصاء العلم والعد والإطاقة، يقال: أحصيته علمته، وأحصيته عددته، وأحصيته أطقته. ومجملهما قوله تعالى: (وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدا)[152]. قال المفسرون: عدداً حال؛ أي وعلم كل شيء معدوداً محصوراً. أو مصدر في معنى إحصاء.

وهنا لا ينبغي أن يكون بمعنى العلم، لقوله: وعلمه إلخ؛ وعليه فيكون بمعنى العد. وقوله: إعدادا؛ يحتمل أن يكون بكسر الهمزة، من أعد الشيء إذا أحضره، فيكون المعنى: إن علمه تعالى شامل للكليات والجزئيات على سبيل الحصر والحضور، فلا يعزب عن علمه تعالى مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

ويحتمل أن يكون أعداداً، بفتح الهمزة، جمع عدد، الذي هو اسم من العد، فيكون معطوفاً للتفسير. وعلى هذا لو قال: وتعداداً؛ لكان أحسن. والله تعالى أعلم.

---

(146) هو أبو بكر محمد بن الطيب الشهير بالقاضي الباقلاني من أعلام الأشاعرة الكبار كان مالكي المذهب ومن أشهر نظار الأشاعرة توفي عام 403 هـ

(147) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري مؤسس مذهب أهل السنة والجماعة الأشاعرة وإمام أهل الحق من أشهر مؤلفاته مقالات الإسلاميين واللمع توفي عام 324 هـ

(148) [سورة غافر: الآية 7]

(149) [سورة الكهف: الآية 98]

(150) هو تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد الشهير بابن عطاء الله السكندري صحب أبا العباس المرسي وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وصارا من كبار أعلامها توفي في القاهرة ودفن بها عام 709 هـ

(151) [شرح ابن عجيبة للحكم: ص464]

(152) [سورة الجن: الآية 28]

[معنى الاقتباس من القرآن والحديث، وحكم ذلك]

قوله، أي الشارح: «والاقتباس»، الخ. أما من القرآن فيسمى اقتباسا، إجماعا. قال ابن حجة: الاقتباس هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية، أو آية من آيات كتاب الله خاصة، هذا هو الإجماع. ثم قال: ومنهم من عد المضمن في الكلام من الحديث النبوي اقتباسا.هـ. وعلى هذا ذهب في «التلخيص»، فقال: هو أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث، لا على أنه منه.هـ.

ثم إنه على نوعين: أحدهما لا يخرج به المقتبس عن معناه، كقول الحريري: «فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب، حتى أنشد فأغرب»، ومنه ما هنا. ونوع يخرج به المقتبس عن معناه، كقول ابن الرومي:

لئن أخطأتُ في مدحك ما أخطأتَ في منعي
لقد أنزلتُ حاجاتي (بوادٍ غير ذي زرْعٍ)

فإن الشاعر كنى به عن الرجل الذي لا يرجى نفعه. والمراد به في الآية الكريمة أرض مكة، شرفها الله.

ولا بأس بالتغيير اليسير، كما وقع هنا، لأن الآية: (ربّنا وسِعْتَ)، بالخطاب، فجاء المصنف بها للغيبة، ومنه قوله:

كان الّذي خفتُ أن يكونَا إنّا إلى الله راجعُونَا

وأما حكم الاقتباس، فاعلم أنه على ثلاثة أقسام: مقبول، ومباح، ومردود.

فالأول: ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي ﷺ، ونحو ذلك.

والثاني: ما كان في الغزل والرسائل والقصص.

والثالث: على ضربين؛ أحدهما ما نسبه الله تعالى إلى نفسه، ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه، كما قيل عن أحد بني مروان، أنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله: إنا إلينا إيّابهم ثم إنا علينا حسابهم! والآخر تضمين آية كريمة في معنى هزل، ونعوذ بالله من ذلك، كقول القائل:

أوحى إلى عشّاقه طرفه هيهات هيهات لما توعدون

[إلخ]. ومثل هذا لا ينبغي أن يُذكر إلاّ لأجل أن يُنكر.

قوله: «على وجه لا يكون فيه إشعار» الخ. احتراز عما يقال في أثناء الكلام: قال الله تعالى، أو قال النبي، عليه الصلاة والسلام: كذا، أو في الحديث كذا، أو من الحديث الخ. وإلى الاقتباس أشار صاحب «الجوهر المكنون» بقوله:

والاقتباس أن يضمن الكــلام | قرءانا أو حديث سيد الأنــام
والاقتبـاس عندهم ضربــان | محوّلٌ وثـابت المعـانـــي
وجـائـز لوزن أو ســـــواهُ | تغيير نـدر اللفظ لا معنـــاه

قوله: (على أوليائه) الخ: جمع ولي، فعيل بمعنى فاعل، أو بمعنى مفعول، أي موالِي. ويطلق على الله وعلى غيره، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[153]، وقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾[154]؛ من الموالاة، وهي الاتصال والقرب، ويكون ذلك في النسب والدّين والصداقة والنصرة، وله معنى يعم كل مربي، وآخر يختص بمن أخلص الله مولاه أمره، وعلى المعنى الأول حمله «الشارح».

قوله: (عُمّا) الخ: في هذه اللفظة احتمالات، وكلها صحيحة: الأول أن تكون جمع عُمى كحبلى، قال ابن دريد: العم العظام، وأحدها عُمى كحبلى، وهذا أقيس الوجوه. الثاني أن يكون جمع عميمة، وفي هذا احتمالات: الأول أنه فعُل بضمتين ثم خفف بالسكون، ثم وقع الإدغام. الثاني أنه فُعْل من أول الأمر، أي بضم فسكون، قالوا لأن فعيلة تجمع على فعل قياسا. والاحتمال الثالث أن يكون عم مصدر يستوي في الوصف به المفرد والجمع تقول: نخلة عُمّ ونخيل عم، أي طوال، وهذا الوجه عن اللحياني وقد ضُعِّف. والاحتمالات الثلاث كلها جوزتْ في قول الشاعر:

طافت به الفرس حتى بذّ ناهضها | عمّ النخيل لقاحاً غير منتشــر

قوله: «والحاصل» الخ: أراد بهذا تبيين أن الرحمة قسمان: عامة وهي التي تعم المؤمن والكافر في الدنيا بالإيجاد والإمداد وغيرهما، والثانية خاصة، وهي التي تخص المؤمنين أهل السعادة. وهذا إن لم نقل إن الكافر ينعم عليه، بالنظر إلى الأشد من العذاب كما تقدم.

---

(153) [سورة البقرة، الآية: 257]
(154) [سورة يونس، الآية: 62]

[المعية، ومقام الجمع والفرق عند الصوفية]

قوله: «وهو مَعَكُمْ» الخ: هذه الجملة في معنى ما أجاب به الجنيد لما سأله ابن شاهين عن معنى مع؟ فقال: مع: على معنيين: مع الأنبياء بالنصرة والكفاءة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[155]، ومع العامة بالعلم والإحاطة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[156].

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[157]: أي بالعلم والقدرة عموما، وبالفضل والرحمة خصوصا. وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[158]: بالنصرة والحفظ.

قوله: «فإن الثاني مشير إلى مقام جمع الجمع» الخ. اعلم أن من الألفاظ الاصطلاحية الجارية بين الصوفية؛ لفظ التفرقة والجمع، أو الفرق والجمع، وجمع الجمع.

قال القشيري: لفظ الجمع والتفرقة يجري في كلامهم كثيراً، وكان الأستاذ أبو علي الدقاق يقول: الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سُلب عنك. ومعناه أن ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية؛ فهو فرق. وما يكون من قبل الحق من إبداء معان، وإسداء لطف وإحسان؛ فهو جمع. ثم قال:

فقوله: (إيّاكَ نَعْبُدُ): إشارة إلى الفرق. وقوله: (إيّاكَ نَسْتَعِينُ)[159]: إشارة إلى الجمع. وإذا خاطب العبد الحق سبحانه بلسان نجواه، إما سائلاً أو داعيا، أو مثنياً أو شاكراً، أو متنصلاً أو مبتهلا؛ قام في محل التفرقة. وإذا أصغى بسره إلى ما يناجيه به مولاه، واستمع بقلبه ما يخاطبه به فيما ناداه أو ناجاه، أو عرفه معناه، أو لوح لقلبه وأراه؛ فهو يشاهد الجمع.[160]

وأما جمع الجمع، فهو أتمّ وأعلى من الجمع. قال السيد: فالجمع شهود الأشياء بالله، والتبري من الحول والقوة إلا بالله، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية والفناء عما سوى الله تعالى، وهي المرتبة الأحدية.[161]

---

(155) [طه: الآية 46]

(156) [المجادلة: الآية 7]

(157) [الحديد: الآية 4]

(158) [التوبة: الآية 40]

(159) [الفاتحة: الآية 5]

(160) [الرسالة: 38]

(161) [التعريفات: 53].

قال شيخ الإسلام، زكريا الأنصاري[162]، في حواشي «الرسالة»: فالحاصل أن من كانت أفعاله الله تعالى، وشاهدها طاعة له تعالى؛ فهو في التفرقة. ومن شاهدها جارية عليه فضلا من الله، فقد شاهدها بالله، فهو في الجمع. ومن غفل عنها وعن نفسه شغلا بالله؛ فهو في جمع الجمع.[163]

قوله: «وأما ما ذكره الدلجي» الخ: قال السيد عيسى: الصفات الجارية على واحد، قد تذكر بالعطف للمناسبة والتصريح بالاجتماع، وقد يترك عطفها إشعاراً باستقلال كل منها، وقد يذكر في موضع ويترك في بعض تفننا، فإنه يوجب توجه الذهن، أو لزيادة مناسبة؛ فرعاية الأنسب أبلغ، والأبلغ أنسب.[164]

وبعث فيهم رسولا من أنفُسهم أنفسهم عربا وعجما، وأزكاهم محتِدًا ومنمَى، وأرجحهم عقلا وحلما، وأوفرهم علما وفهما، وأقواهم يقينا وعزما، وأشدهم رأفة ورحما. (يتبع)

قوله: (وبعث فيهم) الخ. هذا من عطف الخاص على العام، ونكتته براعة الاستهلال، لأنه لما ذكر عموم الرحمة أتبع ذلك ببيان أن رحمته، الكاملة الشاملة، مخصوصة بأوليائه، وهم مطلق المؤمنين، وأن من أعظمها عليهم، بعد الإيمان بالله، بعثة هذا الرسول ﷺ، فيهم، واتباعهم له. قوله : «أي أرسل» الخ؛ أشار به إلى أن بعث هنا بمعنى أرسل، والبعث له معان: منها الإثارة، والإيقاظ من النوم، والإحياء والنشر من القبور،[165] وبمعنى إرسال الرسل، وهو المراد هنا.

قوله: «أي في أوليائه». أشار بهذا لتفسير الضمير المجرور بفي، فإنه يرجع إلى أوليائه من قوله: وأسبغ على أوليائه نعما الخ. وهذا هو الظاهر من غير تكلف، لأنه ليس قبله ما يصلح للرجوع له، وقد تقدمت الإشارة إلى أن المراد بأوليائه مطلق المؤمنين.

قوله: «ولأجل أحبائه»؛ أشار بهذا إلى جعل (في) بمعنى لام الأجل، أي التعليل على حد قوله تعالى: (فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ)[166]، أي لأجله، وقوله: (لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ)[167]، أي لأجله، وقوله، عليه السلام: «إِنَّ امرأة دخلت النار في هرة حبستها»،

---

[162] هو أبو يحيى زكرياء بن محمد بن أحمد الأنصاري فقيه ومحدث وقاض مصري شافعي توفي بالقاهرة عام 926 هـ.

[163] [رسالة القشيري: 38].

[164] [نسيم الرياض: 14/1].

[165] قال تعالى: (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا). [طرة للمؤلف].

[166] [سورة يوسف: 32]

[167] [سورة النور: 14]

أي لأجلها. فالمعنى إذن: بعث لأجلهم، أي لأجل المؤمنين؛ فلا ينافي هذا أن بعثته عامة، فإن عمومها بالنظر إلى الإرسال، وأما بالنظر إلى الانتفاع؛ فهي خاصة بالمؤمنين.

ولهذا قال النسفي، وغيره من المفسرين، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[168] : وخصّ المؤمنين منهم، لأنهم هم المنتفعون بمبعثه.[169]

ولكن إذا علمت أن البعث تارة يتعدى بفي، ويكون معناه الجعل بين أظهرهم، وتارة يتعدى بإلى فيكون معناه الإرسال لدعوتهم، سواء كان فيهم أم لا، كما قاله الشهاب؛ تبين لك أنه لا يحتاج لهذا الجعل، وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر. وهنا لا ينبغي أن تجعل في بمعنى إلى حتى يرد عليه أن البعثة عامة للثقلين، غير خاصة بهم، وأنه ينبوا عنه قوله الآتي: (عرباً وعجما).

قوله: (رسولا): مفعول بعث، ولم يذكر المرسل إليهم إشارة إلى عموم رسالته ﷺ، قاله الشهاب.[170]

والرسول: بمعنى المرسل، وهو نبي أوحي إليه ما أمر بتبليغه. والنبي: من أوحي إليه مطلقا. فبينهما عموم وخصوص مطلق، وسيأتي ذلك في كلام المصنف.

قوله: «بضم الفاء»[من أنفسهم]،الخ. أي فهو جمع نفس. والنفس في كلام العرب لها معان؛ منها: العين، ومنها: الذات الشاملة للروح والجسد، ومنها: الروح. ومرجع الضمير: الأولياء، بمعنى المؤمنين كالضمير الذي قبله. والمراد أنه من جنسهم البشري وإنما امتاز عنهم بالرسالة والخصائص المودعة في ظاهر عنصره.

قوله: «من جنسهم العربي، أو البشري» الخ. اعلم اته فسر أنفسهم في قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)[171]؛ بتفاسير:

منها: من جنسهم العربي.
ومنها: أن المراد به من ولد إسماعيل.
ومنها: أن المراد به من جنسهم البشري، ليس بملك ولا أحد من غير بني آدم.

والاحتمالات الثلاثة ذكرها الخازن وغيره. والشارح حمل المتن على الاحتمال

---

(168) [سورة آل عمران: 164]
(169) [مدارك التنزيل للنسفي: 192/1].
(170) [نسيم الرياض: 19/1]
(171) [آل عمران، الآية: 164]

الأول أو الثالث، لكن رجح الشهاب تفسير المتن بالاحتمال الثالث لأنه هو الذي يناسب التعميم في قوله: (عربا وعجما)، ولكل مقام مقال.

قوله: «للحكم الإلهي» الخ. قال تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً)[172]، قال المفسرون: أي ولو أرسلنا إليهم ملكا لجعلناه في صورة رجل، وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها. ولو نظر إلى الملك ناظرٌ، لصعق عند رؤيته. ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس، كما جاء جبريل إلى النبي ﷺ، في صورة دحية الكلبي، وكما جاء الملكان إلى داوود، عليه السلام، في صورة رجلين. قاله الخازن.[173]

وقوله: «كما جاء جبريل إلى النبي» الخ. أي في أعم الأحوال؛ فلا ينافي ذلك أنه رآه في بعض الأحيان على الصورة التي خلقه الله عليها. وقوله تعالى: (وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ)[174]، قال النسفي[175]: ولخلطنا وأشكلنا عليهم من أمره إذا كان سبيله كسبيلك يا محمد، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة الإنسان: هذا إنسان وليس بملك.[176]

وبالجملة؛ فحكمته البالغة اقتضت أن يكون الرسول من جنس البشر.

- (المصدر أصل الاشتقاق وفي المسألة أربعة مذاهب):

قوله: «والثاني أفعل من النفس» الخ. الأولى في العبارة أن يقول أفعل من النفاسة، لأن الصحيح أن المصدر هو الأصل المشتق منه، وهو مذهب البصريين، وأشار لذلك ابن مالك بقوله:

※ وكونه أصلا لهذين انتخب ※

وخالف بعضهم فجعل الوصف مشتقا من الفعل، فهو فرع الفرع، أي لأن الفعل مشتق من المصدر، والوصف مشتق من الفعل. وذهب الكوفيون إلى أن الفعل أصل لهما. وزعم ابن طلحة أن كلا من المصدر والفعل أصل برأسه ليس أحدهما مشتقا من الآخر. ويُنظر على هذا المذهب ما أصل الوصف؟

---

(172) [الأنعام، الآية: 9]

(173) [لباب التأويل: 5/2]

(174) [الأنعام، الآية: 9]

(175) هو أبو البركات حافظ الدين عبد الله بن أحمد النسفي مفسر وأصولي حنفي توفي عام 710 هـ

(176) هو علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم الشهير بالخازن عالم شافعي ولد في بغداد وسكن الشام من أهم مؤلفاته لباب التأويل في معاني التنزيل توفي عام 741 هـ [لباب التأويل: 5/2]

وعلى كل حال، فالمذاهب أربعة وليس [في] واحد منها أن الوصف أصل. وتصح عبارة المصنف بتقدير مضاف، أي أفعل من مصدر النفيس.

قوله : «كما قرئ في الآية بهما». أي قرئ في الآية، على أن أنفسهم جمع نفس، وعلى أنها لفعل من النفاسة، وروي أن الثانية قراءة مولانا رسول الله ﷺ، على ما سيأتي في المصنف.

قوله: «ونصب أنفسهم الثاني» الخ. ذكر في إعرابه وجهين: النصب والرفع. وذكر في وجه النصب احتمالات ثلاثة:

الأول أنه صفة رسولا، وفي هذا الوجه نظر، لأنه لا يأتي على الصحيح الذي هو مذهب الجمهور من أن النعت يجب أن يتبع منعوته في التعريف والتنكير كما قال ابن مالك:

وليعط في التعريف والتنكير ما ... لما تلا كامْرُرْ بقومٍ كُرَما

وإنما يأتي على مذهب الأخفش[177] الذي يجيز نعت النكرة إذا خصصت بالمعرفة. وهنا قد تخصصت بالجار والمجرور، وجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾[178]؛ من أن الأوليان نعت لآخران.

الثاني: أنه بدل من رسول، وإبدال المعرفة من النكرة جائز، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ﴾[179]. وعلى هذا الاحتمال اقتصر الشهاب في هذا الوجه.

الثالث: أنه حال، وفي هذا الوجه أيضا نظر، لما هو معلوم من أن الحال يجب أن يكون نكرة، وما سمع من العرب معرفة في اللفظ يجب تأويله بالنكرة كما أشار لذلك في «الألفيه» بقوله:

والحال إن عرف لفظا فاعتقد ... تنكيره معنىً كوحدك اجتهدْ

إلا على مذهب يونس والبغداديين الذين يجيزون تعريف الحال مطلقا بلا تأويل، ويجيزون: جاء زيد الراكبَ، بنصب الراكب على أنه حال.

---

(177) هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد الشهير بالأخفش من علماء اللغة العربية والنحو توفي عام 177 هـ
(178) [المائدة، الآية: 107]
(179) [الشورى، الآية: 52 ـ 53]

وما قررناه، كله بناء على ما هو المشهور من أن إضافة أفعل التفضيل محضة، حسبما صرح بذلك غير واحد من المحققين، ونسب الأشموني[180] القول بأنها غير محضة لابن السراج والفارسي، ثم قال: والصحيح أنها محضة نص عليه سيبويه لأنه ينعت بالمعرفة. ولكن نقل في التصريح القول بأنها غير محضة عن أبي البقاء والكوفيين وجماعة من المتأخرين، كالجزولي وابن أبي الربيع وابن عصفور، ونسبه إلى سيبويه وقال إنه الصحيح بدليل قولهم: مررت برجل أفضل القوم. ولو كانت إضافته محضة، لزم وصف النكرة بالمعرفة، فإن خرجه المخالف على البدل أبطلناه بأن البدل بالمشتق قليل.هـ. وما في «التصريح» نقله العلامة الصبان[181] وسلمه.

وبالجملة؛ فالقول الأول هو الأشهر، لأنه صدر به غير واحد كما علمت، واختاره ابن مالك، ونسب مقابله للفارسي[182] فقط. والثاني: مشهور لكثرة القائلين به أيضا، ولكن لا يفوق قوة القول الأول كما لا يخفى على من راجع كتب النحو. والله أعلم.

قوله: «وفي البعض»الخ. أدخل أل على بعض، على مذهب النحويين، خلافا للأصمعي[183] فإنه يمنع ذلك. قال أبو حاتم: قلت للأصمعي: رأيت في كلام ابن المقفع[184]: «العلم كثير، ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل». فأنكره أشد الإنكار، وقال: كل وبعض معرفتان، فلا تدخلهما الألف واللام لأنهما في نية الإضافة. ومن هنا قال أبو علي الفارسي: بعض وكل معرفتان، لأنهما في نية الإضافة، وقد نصبت العرب عنهما الحال، فقالوا: مررت بكل قائما .هـ.قاله في «المصباح»[185]. ولهذا يشير ابن سهل الإسرائيلي[186]، المختلف في إسلامه:

أمُوسى أيا بَعضي وكلـي حقيقـة ... وليس مجازاً قولي الكل والبعضَا
خفضتَ مكاني إذ جزمتَ وسائلي ... فكيف جمعت الجزم عنديَ والخفضا

ويحتمل أن تكون الألف واللام هنا تحريفا في الطبع.

[180] هو أبو الحسن نور الدين علي بن محمد الشهير بالأشموني عالم نحو مصري من أشهر مؤلفاته شرحه على ألفية ابن مالك توفي عام 929 هـ

[181] هو أبو العرفان محمد بن علي الصبان العالم المصري المتفنن له حاشية على شرح الأشموني على الألفية توفي عام 1206 هـ

[182] هو أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي عالم لغوي ونحوي دخل بغداد عام 307 هـ وتوفي بها عام 377 هـ

[183] هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي من علماء البصرة في اللغة والأدب توفي بالبصرة عام 208 هـ

[184] هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أديب من اشهر مؤلفاته كليلة ودمنة والأدب الكبير توفي مقتولا بعدما اتهم بالزندقة عام 142 هـ

[185] [المصباح المنير: 1 /75]

[186] هو أبو إسحاق ابراهيم بن سهل الإشبيلي الإسرائيلي شاعر من عائلة يهودية أندلسية مات غريقا حوالي 649 هـ

قوله: «ضُبط بالرفع». أي وضبط أنفسهم الثاني في بعض الحواشي بالرفع على أنه الخ. وبقي عليه في الوجه الأول احتمال رابع أن يكون منصوبا بفعل محذوف. كما بقي عليه وجه ثالث من أوجه الإعراب، وهو الجر على[ ][187] من أنفسهم. فتحصل أن في أنفسهم الثاني من أوجه الإعراب ثلاثة: النصب وفيه احتمالات أربع. والرفع وفيه احتمال واحد. والجر وفيه احتمال واحد أيضا. ورجح هذا الوجه بأنه المروي والموافق لقراءة اللآية.

قوله : «والمراد بالعرب» الخ. العرب اسم جنس. جمع واحده: عربي. وقيل: لا واحد له. وقد يخص سكان القرى والأمصار منهم، كما يخص الأعراب سكان الأخبية والبوادي، فأشار الشارح إلى أن المراد بالعرب: الجيل المعروف الذي يقابل العجم. والعجم: ما سوى العرب من سائر الأمم وإن غلب العجم على صنف من فارس. قوله: «لأهل الفارس» الخ. أل زائدة، ولعلها تحريف في الطبع.

قوله: «ونصبهما على التمييز». أي أو بنزع الخافض. وما قاله الدلجي فيه تكلف، لأن الأصل في الحال أن يكون مشتقا، كما قال ابن مالك:

❊ وكونه منتقلا مشتقا يقلب ❊

وليس هذا من الأنواع التي يكثر الجمود فيها لأنها ليست في الأشعار، ولا مما يبدي التأويل بلا تكلف.

قوله: «لازمان». الحال باعتبار انتقال معناها، ولزومه على قسمين: منتقلة وهو الغالب، ولازمة وذلك واجب، كما في «المغني»، في ثلاث مسائل: أحدها: الجامدة غير المؤولة بالمشتق نحو: هذا مالُك ذهبا، وهذه جبتك خزاً.[188] وقد علمت أن هذا من ذلك؛ فقوله: لازمان لبيان الواقع. ثم إن الأرجح، كما سبق في كلام المصنف، هو التمييز للسلامة من جمود الحال، ولزو مها، أي عدم انتقالها لما علمت أن الأصل في الحال الاشتقاق والانتقال، وجمودها ولزومها على خلاف الأصل. وقد نبه على ذلك العلامة ابن هشام في «مغنيه» فيما يحتمل الحالية والتمييز.

قوله: «وردا بيانا» الخ. كأنه أشار لهذا إلى وجه كون الحال جامدة، وذلك لأنهم ذكروا لما تأتي الحال فيه جامدةٍ غير المؤولة إذا جيء بها دالة على عدد كقوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[189]؛ فيكون المسوغ هو مطلق البيان. وقد يقال: إنه

[187] [كلمة غير واضحة]

[188] [مغني اللبيب: 90/2]

[189] [الأعراف، الآية: 142]

هنا من قبيل قولهم: هذا خاتمك حديدا. فإن حديدا حال جامدة، وسوغ ذلك كونها أصلا للخاتم. والعرب والعجم هما أصلا المرسل إليهم، والله أعلم.

قوله : «إلا أن تعليله لا يصح». أي وهو قوله لأن الضمير عائد إلى الأولياء، قد يقال إنه لا مانع من هذا التعليل لان مراده أن ضمير (أنفسهم) الثاني ليس قبله ما يصح عوده، ولو كان قبله ما يصح عوده عليه لربما صح هذا الضبط بان يكون توكيدا له مثلا.

قوله : «وإن أراد مطلقا» الخ. أي لا يجوز الضم لا في الأول ولا في الثاني، أو لا يجوز الضم، ولو على أن أنفسهم ليس بمكرر، أما على أنه مكرر فقد علمت أن الأول يتعين فيه ضم الفاء، والثاني يتعين فيه الفتح. وأما على أنه ليس بمكرر فإنه يصح فيه الوجهان كما قرئ بهما في الآية، والله أعلم.

قوله: «أي أصلاً وطبعا». هذا ما في «القاموس»، وأن المحتد: الأصل والطبع. وفي «فقه اللغة» للثعالبي[190] أن المحتد أصل النسب. فظاهر «القاموس» أنه الأصل مطلقا، والثعالبي أنه الأصل مقيد بالنسب. قال الشهاب فكأنه مشترك. أي إشراكا لفظيا، بأن وضع للأصل مطلقا وللأصل المقيد بالنسب؛ وعليه فتقول: محتد الباب -مثلا- من الخشب، ومحتد فلان من العرب؛ أي أصل الباب من الخشب، وأصل فلان من العرب، وهذا محتده، أي أصل نسبه. والمراد أنه ﷺ، أشرف العرب و العجم، وأعظمهم نسبا.

قوله : «مصدر ميمي» الخ. لا وجه للاقتصار على هذا الوجه -وإن اقتصر عليه الشمني في «حاشيته» على «الشفاء»- مع أن المتبادر من العبارة أنه عطف تفسير على ما قبله، فيكون من نميته إذا نسبتَه. قال الأندلسي:

※ نمتك حميرٌ ونمته لخم ※

وهو إما مصدر ميمي بمعنى انتماء وانتساب؛ فيكون المعنى: أزكاهم، أي أطهرهم أصلا ونسبا. أو مكان، أطهرهم أصلا ومكان انتماء ونسبة.

قوله: «وقد ذكر الحلبي» الخ. اعلم أن المفعل إذا أريد به المصدر فهو بالفتح مطلقا، إلا إذا كان واوِيَ الفاء صحيح اللام فمكسور. وإذا أريد به الظرف فمفتوح أيضا، إلا

---

[190] هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري عالم لغوي مدقق توفي عام 429 هـ

إذا كان من المضاعف اللازم، أو مما اشتهر بالكسر، أو واويَ الفاء؛ فمكسور. ولهذا أشار ابن مالك في «لاميته»:

مِنْ ذي الثلاثة لا يفعل له ائت بمفعَل ... بمصْدر أوْ مَا فيه قدْ عُملا
كذاك مُعتل لام[191] مطلقا وَإذا الفَا ... كانَ واوًا بكسر مُطلقا حَصَلا
ولا يُؤثر كَوْنُ الواو فاءً إذا ... مَا اعْتل لامٌ كمولى فارْعَ صدْقَ وَلا
في غيْر ذا[192] عيْنه افْتَحْ مصْدرا وسِواه، اكْسرْ وشذ الذي عن ذلك اعْتزلا

وقال سيدي العربي الفاسي في بسط «اللامية»: فصل يصاغ مفعل مرادا به المصدر أو الزمان أو المكان من الثلاثي مفتوح العين إن أعلت لامه مطلقا كمسرى ومولى ومأوي، أو صحت كمذهب ومدخل ما لم تكسر عين مضارعة فيفتح في المصدر، ويكسر في الزمان والمكان، أو تكن واوه واوا فيكسر في الثلاثة، كموعد ومورد. ومعتل العين من مكسورها كالصحيح منه، وقيل موقوف على السماع. هـ.

وإذا علمت هذا، بان لك أن مراد الحلبي وغيره الاحتراز عما إذا كان الفعل واوي الفاء، فإن المصدر منه مفعل بكسر العين. والله تعالى أعلم. وقلتُ في هذا بإيضاح:

والعين ما فتح في اشتقاق المفعل ... لمصدر كمضرب ومقتل
كذاك مجهل ومنه مرمي ... والواويُّ الفا فاكسرنها حتما
والظرف إن ترد ففتحه ألف ... في غير لازم وبضعف عرف
وغير ما فاؤه واوا كوعد ... فالكسر في الظرفين منه يعتمد

قوله : (وأرجحهم): رجحان العقل زيادته، ووصفه به مشهور في الكتب القديمة، وسيأتي، ويقابله: الخفة والنقص، وهو في الأصل يستعمل في الموزون، ثم صار حقيقة عرفية في مطلق الزيادة الممدوحة، تمثيلا أو مجازا مرسلا، أو استعارة مكنية، من رجحت كفة الميزان إذا زاد ما فيها، فأريد به لازمه، والاستعارة فيه أحسن، كما قال الأخطل[193] :

---

[191] قوله: كذاك معتل لام كرمى وولى و[ ]ونمى، فتقول منمى ومولى و[ ]ومنمى، يتحد فيها المصدر والزمان والمكان أيضا. طرة للمؤلف.

[192] قوله: في غير ذا، وهو الصحيح المشهور بالكسر كضرب، تقول في مصدره مضرب بفتح العين، ومضربه أي مكانه وزمانه. طرة للمؤلف أيضا.

[193] هو أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت الشاعر الأموي الشهير بالأخطل شهر بمهاجاته مع الشاعر جرير توفي عام 92 هـ.

وإذا وزنت حلومهن إلى الصبا رجح الصبا بحلومهن فمالا

قاله الشهاب.

- [المراد بقوله : وأرجحهم عقلا] :

قوله: «أي تعقلا» الخ. بحثَ بعض شيوخنا في هذا التفسير، لما فيه من الإتيان بهذه الصفة التي هي للتكلف، كأنه قال: أي تكلفا للعقل؛ ولم يجب عنه بشيء!

قلت: مرادُ ابن سلطان، رحمه الله تعالى، والله أعلم، أن المراد بقوله: (أرجحهم عقلا)، أي استعمالا للقوة المتهيئة لقبول العلم، لما تقرر أن العقل عقلان:

- مطبوع، أي جبلي، وهو القوة الخ.
- ومسموع، وهو استعمال تلك القوة.

قال الراغب، حسبما نقله عنه في «تاج العروس»:

العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للذي يستنبط الإنسان بتلك القوة عقل، ولهذا قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[194] : «العقل عقلان: مطبوع ومسموع؛ فلا مطبوع إذا لم يكن مسموعا، كما لا ينفع ضوء الشمس وضوء العين ممنوع».

وإلى الأول أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ما خلق الله خلقا أكرم من العقل».

وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هُدى، أو يرده عن ردًى». وهذا العقل هو المعنيّ بقوله، عز وجل: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[195].

وكل موضع ذمّ الله الكفار بعدم العقل؛ فإشارة إلى الثاني دون الأول، كقوله تعالى: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)[196]، ونحو ذلك من الآيات. وكل موضع رفع التكليف عن العبد، لعدم العقل، فإشارة إلى الأول.[197]

وكأنه يشير إلى أن الذي يوصف بالزيادة هو الثمرة، لا نفس العقل بمعنى القوة

(194) - قوله: ولهذا قال علي الخ، كذا أورده غيره. وفي الإحياء،[176/1]: قال علي، كرم الله وجهه:

رأيت العقل عقلين مطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

[هـ من خط المؤلف بالهامش]

(195) - [العنكبوت، الآية:43]

(196) - [البقرة، الآية: 171]

(197) - [تاج العروس: 8 /25]

التي استعد بها لقبول العلوم، أما هي فقد تساوت أفرادها بالعقل إذا من قبيل الكلي المتواطئ أي الذي تساوت أفراده ولم تتفاوت. وهذا القول أحد القولين، ومقابله أن يتفاوت أيضا، وهو القول المنصور عند حجة الإسلام أبي حامد الغزالي فإنه قال في «الإحياء»:

وأما الأول، وهو الأصل، أعني الغريزة، فالتفاوت فيها لا سبيل إلى جحده، فإنه نور يشرق على النفس ويطلع صبحه، ومبادئ إشراقه عند بدو سن التمييز، ثم لا يزال ينمو ويزداد نموا، خفي التدريج، إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة. ثم قال:

ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة، فكأنه منخلع عن ربقة العقل، ومن ظن أن عقل النبي ﷺ، مثل آحاد السوادية[198] وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية, وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلفت الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم، وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة، وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم، كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[199]، وذلك مثل الأنبياء، عليهم السلام، إذ يتضح لهم في باطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع. ثم قال:

ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روي أن عبد الله بن سلام، سأل رسول الله ﷺ، في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش، وأن الملائكة قالت: يا ربنا هل خلقت شيئا أعظم من العرش؟ قال: نعم؛ العقل. قالوا: وما بلغ من قدره؟ قال: هيْهات، لا يحاط بعلمه، هل لكم علم بعدد الرمل!؟ قالوا: لا. قال تعالى: فإني خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل، فمن الناس من أعطي حبة، ومنهم من أعطي حبتين، ومنهم من أعطي الثلاث والأربع، ومنهم من أعطي فرقا، ومنهم من أعطي وسقا، ومنهم من أعطي أكثر من ذلك.[200]

وهذا الحديث قال العراقي[201] : رواه داود بن المحبر في «كتاب العقل» عن أنس، مع اختلاف يسير، ورواه الحكيم الترمذي في»النوادر» مختصرا، انظر لفظه في «شرح الإحياء»،[1/469].

---

(198) [السوادية: هم أهل الأرياف]

(199) [النور، الآية: 35]

(200) [إحياء علوم الدين: 78/1].

(201) هو زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي الأصل المصري المولد من علماء الحديث المبرزين له ألفية الحديث توفي عام 806 هـ

وإذا علمت هذا، تبين لك أنه لا حاجة لتفسير (عقلا) بقوله: تعقلا. أخرج أبو نعيم في «الحلية»، من رواية الحرث بن أبي أسامة عن داود بن المحبر: حدثنا عباد بن كثير عن أبي إدريس عن وهب بن منبه، قال: قرأت أحدا وسبعين كتابا، فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس، من بدء الدنيا إلى انقضائها، من العقل في جنب عقل محمد ﷺ؛ إلا كحبة رمل من جميع رمال الدنيا، وأن محمدا ﷺ، أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا.هـ من»شرح الإحياء».[202]

قوله: «أي تحلما». انظر أيضا ما وجه تفسيره بالتحلم. مع أن التحلم هو تكلف الحلم، قال في «القاموس»: وتحلم: تكلفه، أي الحلم، وأنشد الجوهري:

تحلم على الأذنين واستبق ودّهم   ولن تستطيع الحلم حتى تحلّما

ويمكن أن يقال انه أراد به غاية التكلف، وهو الكمال والمبالغة، لأن المتكلف يبالغ فيما تكلفه ويتأنق فيه، نظير ما قيل في اسمه تعالى: المتكبر.

وبالجملة؛ فهذه الصيغة الأصل فيها هو التكلف، يقال: تحلم إذا تكلف الحلم، وتأتي مضارعة لفعل كعلمته فتعلم، وللصيرورة كتحجر الخمر أو تحلل، أي صار بنفسه كذا، وتأتي للمبالغة، كما هنا، ومنه المتكبر.

والحلم: قالوا إنه قوة توجب الصبر على الأذى. وقال الراغب: الحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب.[203] وقيل غير هذا، ويأتي الكلام عليه في غير هذا المحل.

والمعنى أنه ﷺ، أكمل المخلوقين عقلا وحلما؛ فعقله أكمل العقول، وحلمه أتم الحلوم.

قوله: «أي أتمهم». هذا تفسير باللازم، حسبما تفيده عبارة الشهاب، ونصه: أي أكثرهم وأتمهم من الوفرة وهي الكثرة والسعة.[204] قوله: «وفي نسخة بالعكس رعيا لحلماء». أي مراعاة لقوله حلما، أي لأجل أن يأتي بنوع من البديع، وهو لزوم مالا يلزم؛ وهو في اصطلاحهم أن يلتزم الناثر في نثره والناظم في نظمه، بحرف قبل الروي، أو بأكثر من حرف بالنسبة إلى قدرته، مع عدم التكلف. وقد جاء في الكتاب العزيز في مواضع، كقوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ

(202) [شرح إحياء علوم الدين: 467/1]

(203) [المعجم: 145].

(204) [نسيم الرياض: 22/1].

لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[205]، وقال: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾[206]. ومن الأمثلة الشعرية قول المعري[207]:

يقولون في البستان للعين للـذةٌ | وفي الرّاح والماء الذي غيرُ آسـن
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلّهـا | ففي وجه من تهوى جميع المحَاسن

[مسألة حدّ العلم والفهم والعقل]

قوله: «والفهم» الخ. أما العلم فاختلفوا فيه هل يُحد أو لا يُحد. فمن قال إنه لا يُحد قال: إنه ضروري. واختاره الإمام الرازي[208] لوجهين:

الأول: إن العلم يمتنع اكتسابه بنفسه، وهو ظاهر، وبغيره لأن الغير إنما يعلم بالعلم، فلو علم العلم بغيره لدار، فتعين طريق الضرورة.

الثاني: إن علم كل أحد بوجوده ضروري، وهذا علم خاص أخص من مطلق العلم متركب منه ومن الخصوصية الإضافية، مسبُوق به. وإذا كان هذا ضروريا، فسابقه أولى أن يكون ضروريا، وهو العلم من حيث هو، وهو المطلوب؟ وأجيب: بأنهما مبنيان على عدم ملاحظة الفرق بين الحصول التصوري والاتصافي، وذلك أن حصول الشيء في القلب إما بذاته، وهو الاتصاف، وإما بصورته، وهو التصور، وبينهما عموم وخصوص من وجه. فالكافر، مثلا، يحصل الكفر، أي الجحود، في قلبه وقد لا يتصوره لجهله بالحقائق. والمؤمن قد يتصور الكفر، فتحصل صورته في قلبه علما وهو ليس بكافر؛ والإيمان وغيره كذلك. فنقول في الوجه الأول:

إن تصور العلم على تقدير كونه مكتسبا موقوف على تصور الغير الذي يكتسب به، وتصور ذلك الغير غير موقوف على تصور العلم ليلزم الدّوْر، بل على حصول العلم.

وفي الثاني انه لم يحصل لكل أحد تصور العلم بوجوده ليكون ضروري الحقيقة، بل العلم بوجوده على وجه الاتصاف، وقيل نظري عسير، لعسر الاطلاع على ذاتيات الأشياء من جنس وفصل. وإليه ذهب إمام الحرمين والغزالي قالا: ويعرف بالقسمة والمثال.

---

(205) [سورة القلم: 2 ـ 3]

(206) [سورة الانشقاق: 17 ـ 18]

(207) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري شاعر وفيلسوف عباسي لقب برهين المحبسين توفي عام 449 هـ.

(208) [أي اختاره في كتابه «المحصول».هـ حسب تعليق للمؤلف بهامش كتاب «القانون» لليوسي.]

وقيل غير عسير، وعرف بتعريفات، أقربها بناء على أن المراد به إدراك العقل، أنه حصول صورة الشيء في النفس أو في العقل، والمراد بالشيء اللغوي، لا خصوص الوجود، والمراد بالحصول الانتقاش. قاله في «القانون».[209] ومسألة هل يُحد العلم، لكونه نظري غير عسير، أو لا يُحد لكونه ضروري، أو لكونه نظري عسير؟ تكلم عليها صاحب «جمع الجوامع».

والعلم تارة يطلق على الإدراك، وتارة يطلق على المعلوم الحاصل في الذهن والملكة والتهيؤ. وأما الفهم فهو سرعة انتقال النفس من الأمور الخارجية لغيرها؛ فالفهم أخص من العلم، إذ العلم مطلق الإدراك، والفهم الإدراك المقيد بالسرعة. والمعنى أنهﷺ، أعلم الناس وأحذقهم. قال البوصيري:

وسع العالمين علما وحلمـــــــا فهْو بحرٌ لم تعيه الأعبَــــاءُ

قال ابن حجر الهيتمي[210]: أي وسع علمه ﷺ، علوم العالمين: الإنس والملائكة والجن، لأن الله تعالى أطلعه على العالم، فعلم علم الأولين والآخرين، ما كان وما يكون، كما مر، وحسبك في ذلك القرآن الذي أوتيه ﷺ، ومثله معه كما صح عنه ﷺ، وقد قال تعالى: (مَا فَرّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْء)[211]، ويلزم من إحاطتهﷺ، بالعلوم القرآنية ومثلها الذي أريه ايضا أنه ﷺ، أحاط بعلوم الأولين والآخرين، وأن علومهم مندرجة ومنغمرة في علومه صلى الله عليه وسلم.[212]

[حقيقة الفهم]

قوله: «فالحمل على المعنى الثاني» الخ. يعني أن الفهم له معنيان: العلم وسرعة إدراك الشيء؛ فهو مشترك بين معنيين: المعنى الأول: يكون مرادفا فيها للعلم. والمعنى الثاني: يكون أخص. وحمله على المعنى الثاني أولى، لأنه يكون حينئذ للعطف فائدة، وهو ذكر الخص بعد الأعم.

(209) [القانون، للحسن اليوسي، ص:5، طبعة حجرية].

(210) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي عالم وفقيه ومتكلم ومتصوف مصري من مؤلفاته شرح همزية البوصيري وشرح الأربعين النووية توفي بمكة المكرمة عام 973 هـ

(211) [الأنعام، الآية: 39]

(212) [شرح الهمزية: 149]

[حقيقة العقل]

قوله: «واختلف» الخ. اعلم أن الناس اختلفوا في العقل من جهات:

- هل له حقيقة تدرك أم لا؛ قولان.
- وعلى أن له حقيقة هل هو جوهر أو عرض؛ قولان.
- وهل محله الرأس أو القلب؛ قولان.
- وهل العقول متفاوتة أو متساوية؛ قولان.
- وهل هو اسم جنس، أو جنس، أو نوع؛ ثلاثة أقوال؛ فهو أحد عشر قولا. ثم القائلون بالجوهرية أو العرضية اختلفوا في رسمه على أقوال:

فعلى أنه عرض ملكة في النفس تستعد بها للعلوم والإدراكات. وعلى أنه جوهر، هو جوهر لطيف تدرك به الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدات، خلقه الله تعالى في الدماغ، وجعل نوره في القلب. قاله الشيخ مرتضى عن الابشيطي.

[ترجمة القاضي الباقلاني والمراد بالقاضي عند الإطلاق]

قوله: «والأقرب قول القاضي أبي بكر». المراد بالقاضي أبي بكر: القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني، الملقب شيخ السنة، ولسان الأمة، المتكلم على مذهب أهل السنة والحديث وطريقة أبي الحسن الأشعري. إمام وقته، من أهل البصرة، وسكن بغداد. وإليه انتهت رئاسة المالكيين بوقته؛ إذ هو مالكي المذهب حسبما هو الحق. كان وِرْده في كل ليلة عشرين ترويحة لا يغادرها سفرا وحضرا، وبعد وِرْده يكتب خمسا وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه. توفي يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة، سنة ثلاث وأربعمائة.

(فائدة): قال تاج الدين السبكي[213] في «طبقاته»، في ترجمة القاضي أبي الطيب الطبري: وإذا أطلق الشيخ أبو إسحاق، وشبهه من العراقيين، لفظ القاضي مطلقا في فن الفقه؛ فإياه يعنون، أي يعنون القاضي الطبري. كما أن إمام الحرمين وغيره

(213) هو أبو نصر تاج الدين السبكي فقيه شافعي ومتكلم أشعري من أهم مؤلفاته طبقات الشافعية الكبرى وجمع الجوامع توفي عام 771 هـ

من الخرسانيين، يعنون بالقاضي؛ القاضي الحسين. والأشعرية في الأصول، يعنون القاضي أبا بكر بن الطيب الباقلاني. والمعتزلة يعنون عبد الجبار الاسترابادي.[214]

[أقوال في تعريف العقل]

قوله: «علم ضروري» الخ. قال الحسن اليوسي[215]: والعقل مشترك بين معان، واختلف في معناه؛ فقال الشيخ أبو الحسن الأشعري: هو العلم ببعض الضروريات، أي ببعض القضايا الكلية البديهية، إذ لا يكون هو العلم بجميعها، وإلا لم يسم عاقلا من فاته شيء منها، ولا بالنظريات لتوقفها على النظر المتوقف على العقل. واعتُرض بأن كون العاقل لا ينفك عن هذا القدر، لا يوجب كون العقل هو ذاك لجواز تلازم المتغايرين.

وقال القاضي[216]: هو العلم بوجوب الواجبات، واستحالة المستحيلات ومجاري العادات، وهو كالأول وهو تفسيره.هـ.[217]

وقال المجد، ونقله عنه غير واحد من المحققين: الحق أنه نور روحانيٌّ به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية. وابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ. هـ[218]

وهو مشتق من العقل وهو المنع، لمنع صاحبه مما لا يليق. وقيل من المعقل وهو الملجأ، للالتجاء صاحبه إليه.

قوله: «ولعله أراد تعريف العقل الكامل». وذلك لأن مقتضى هذا التعريف أن لا يسمي عاقلا من فاته شيء من ذلك. وفي «تاج العروس»، عن ابن مرزوق[219]، قال أبو المعالي في «الإرشاد»:

العقل هو علوم ضرورية، بها يتميز العاقل من غيره إذا اتصف، وهي العلم بوجوب الواجبات، واستحالة المستحيلات، وجواز الجائزات، قال: وهو تفسير

---

(214) [طبقات الشافعية: 4 /177]

(215) هو أبو علي الحسن علي بن مسعود اليوسي فقيه ومتكلم وصوفي مغربي من أشهر مؤلفاته المحاضرات والقانون توفي عام 1102 هـ

(216) يقصد أبا بكر الباقلاني

(217) [كتاب القانون لأبي علي اليوسي: ص 4 طبعة حجرية]

(218) [القاموس المحيط: 4/18]

(219) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق التلمساني توفي عام 842 هـ

العقل الذي هو شرط في التكليف؛ ولسنا نذكر تفسيره بغير هذا. وهو عند غيره من الهيئات والكيفيات الراسخة من مقولة الكيف، فهو صفة راسخة توجب لمن قامت به إدراك المدركات على ما هي عليه، ما لم تتصف بضدها.هـ[220]

[أقوال في تعريف الفهم]

قوله: «وقيل الفهم» الخ. أي وفسر الفهم بزوال الشك أو بزوال الغلط. وهذا التعريف يناسب التفعيل أي التفهيم. وحاصل ما عرفوا به الفهم أقوال:

قيل هو مرادف للعلم، وهو ظاهر عبارة الجوهري، لكن في عبارته تسامح، إذ ليسا بمرادفين كما للشهاب. والحق أن العلم مطلق الإدراك، والفهم سرعة انتقال النفس من الأمور الخارجية إلى غيرها.

وقيل الفهم تصور المعنى من اللفظ.

وقيل هيئة للنفس يتحقق بها ما يحسن. وفي «أحكام» الآمدي: الفهم جودة الذهن من جهة تهيئه لاقتناص ما يرد عليه من المطالب. قاله في «تاج العروس».

[مباحث في علمه عليه الصلاة والسلام]

(فائدة): قال الشهاب، أي في قول المصنف: (وأوفرهم علما)؛ إشارة إلى أن علمه ﷺ، كعلم غيره من البشر: ضروري وكسبي.

وقول بعض الصوفية: إن العلوم كلها بالنسبة إليه ضرورية؛ قد رده الشيخ زروق بأنه إن حمل على ظاهره، لزمه أن ينتفي عنه التكليف، لأن العلوم الضرورية لا يكلف بها ولا يؤجر عليها. وإن أريد أنه لشدة ذكاء نفسه القدسية علمه بالكسبيات كغيرها، فهو صحيح.هـ[221]

(فائدة أخرى): اختلف في علمه ﷺ، هل يوصف بالإحاطة أم لا؟ قال العلامة ابن سودة وغيره، عند قول «السلم»:

(220) [تاج العروس: 25/8]

(221) [نسيم الرياض: 22/1]

صلى عليه الله ما دام الحجــا يخوض من بحر المعاني لججـا

أخذ منه أن الإحاطة بالمعاني لا تكون لأحد، حتى للرسل عليهم السلام، وهو الحق، لأنها من خواصه سبحانه.

وقد ألف أبو علي اليوسي، رحمه الله، تأليفا في ذلك، ووافقه أهل العصر من المغاربة والمشارقة، ردّ به على أهل العصر ممن ادعى العموم؛ فألزمه اليوسي الكفر.

إلا أن أهل العصر قالوا: لازم القول لا يعد قولا، إلا إن كان اللزوم بينا، وهو غير بين هنا، فلا كفر.

هذا كله بعد الاتفاق والإجماع على أنه ﷺ، ما خرج من الدنيا حتى علم الخمس، بل بعض الأولياء -الذين هم جدول من بحر معارفه- يعرفها، كما في «الإبريز»[222] وغيره، ونعتقد أنه ﷺ، علم علوما فاقت علوم الأولين والآخرين، من دون إحاطة لأنها من صفة الربوبية. هـ. وسيأتي لهذا المقام مزيد بيان، والله تعالى أعلم.

[معنى اليقين، ومسألة الاختلاف في تفاوت العلم]

قوله: (أقواهم يقينا) الخ. اليقين في اللغة: العلم الذي لا شك فيه، قاله السيد. وقال الشهاب: اليقين والإيقان: إتقان العلم بنفي الشبه عنه، فلا يوصف به الضروري، ويتفاوت قوة وضعفا. ولذا قال المصنف، رحمه الله: (أقواهم)، ويشهد له الوجدان. وقيل: إنه لا يتفاوت وإنما التفاوت في آثاره.[223]

وهذه المسألة وقع الخلاف فيها بين كبار الأئمة. ذكر القرافي أن هذه المسألة وقعت بين أفضل الدين الخونجي[224] والشيخ عز الدين بن عبد السلام، فاختار عز الدين عدم التفاوت، وأفضل الدين التفاوت. والقول بعدم التفاوت اختاره الإمام في»البرهان»، وعزاه في»الشامل» للمحققين، واختاره الأبياري[225]، قال:

(222) [الإبريز. لسيدي عبد العزيز الدباغ: 177/1]

(223) [نسيم الرياض: 22/1]

(224) هو أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن ناماور بن عبد الملك الخونجي فارسي انتقل إلى مصر واستقر بها توفي عام 646 هـ

(225) هو أبو الحسن علي بن اسماعيل بن علي الأبياري فقيه ومتكلم مصري من مؤلفاته شرح تهذيب المدونة وشرح البرهان توفي في مصر عام 616 هـ

وذهب بعض الناس إلى أن العلم يختلف، وزعموا أنه يتصور أن يكون علم أوضح من علم. وهذا غلط! وربما تمسكوا بأن علم النبي بربه لا يساوي علم غيره، وليس الأمر في ذلك يرجع إلى تفاوت العلمين، كما زعموا، وإنما يرجع إلى كثرة معلومات الرسول، وقلة معلومات غيره، أو لدوام علمه وتوالي الغفلات على غيره. وأما تفاوت العلم، خفاء وجلاء، فمحال؛ إذ حقيقته الكشف. ونحوه للفهري.هـ من احلولو على «جمع الجوامع»، حيث قال في المقدمات: ثم قال المحققون لا يتفاوت، وإنما التفاوت بكثرة المتعلقات.[226] ولهذا أشار العلامة الشنكيطي في نظمه العجيب:

والعلم عند الأكثرين يختلف جزما، وبعضهم بنفيه عرفْ

وإنما له لدي المحقق تفاوت بحسب التعلق

قال في شرح الوجه الأول: يعني أن العلم الحادث عند أكثر المتكلمين يتفاوت في جزئياته؛ إذ العلم مثلا أن الواحد نصف الإثنين أقوى في الجزم من العلم بأن العالم حادث. وعلم النبي ﷺ، بربه لا يساوي علم غيره، وكذا غيره من الأنبياء وبعض المؤمنين، في العرفان أقوى من بعض. وقال علي، رضي الله تعالى عنه: «لو كشف الغطاء لما زادني يقينا.» وجه الدليل أن نفي الشيء فرع ثبوته، قال البوصيري:

لم يزده كشفُ الغطاء يقينــًا بل هو الشمس ما عليه غطاءُ

ولا شك أن حق اليقين أقوى من عين اليقين، وعين اليقين أقوى من علم اليقين.[227] فعلى هذا القول، يكون العلم بمعنى اليقين من قبيل المشكك، لتفاوت أفراده في المعنى الكلي.

[تفسير العزم]

قوله : «أي اهتماما»، الخ. ذكر في تفسير العزم ثلاثة معان:

- الاهتمام الذي ليس فيه رخصة.
- الثاني: الجد.
- الثالث: الصبر.

(226) [جمع الجوامع: 1/78]

(227) [جمع الجوامع: 1 /78]

وقال الشهاب: العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر، يقال: عزمت الأمر، وعليه، وبه؛ ومنه: ﴿أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[228]، لقوة بأسهم وإمضاء عزيمتهم في تنفيذ أوامر الله وتبليغ شرائعه.هـ[229] وقال الزمخشري: أولوا الجد والثبات والصبر.هـ.؛ فأتى بالمعاني الثلاث.

وبمثل ما فسر به (أولوا العزم) الزمخشري، يحسن التفسير هنا فيقال: وأقواهم يقينا وعزما، أي صبرا وجدا وثباتا.

فصبره ﷺ، أقوى من صبر كل صابر، وجده أقوى من جد كل جاد، وثباته أقوى من ثبات كل ثابت، حسبما يأتي تفصيله في كلام المصنف، رحمه الله تعالى. وقال البوصيري :

رحمةٌ كلهُ وحزمٌ وعَزمٌ ووقارٌ وعصمةٌ وحياءُ
لا تحلُّ البأساءُ منه عُرَى الصَبْرِ ولا تستخفُّه السرّاءُ

[معنى الرأفة والرحمة]

قوله: «بضم فسكون»الخ. أي فهو منون منصوب بالفتحة على الميم، ويحتمل أن يكون رحمى، كرجعى، فألفه للتأنيث والإعراب مقدر عليه، لأنه يقال: رحمه رحمة ورحماً ورُحْمى، ومعناها العطف والشفقة. والرأفة: شدة الرحمة، فهي أخص من الرحمة. فإن قيل: على هذا كان الأولى تقديم الأعم على الأخص، لأن مقام المدح يقتضي الترقي من الفاضل إلى الأفضل، يقال: إنه قدم فاصلة نظير ما قال القاضي البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الخ الآية[230]، ولفظه: «قدم الأبلغ منهما وهو الرءوف، لأن الرأفة شدة الرحمة، محافظة على الفواصل».[231]

ولم يرتض ذلك الشهاب قائلا: لأن الرأفة حيث قارنت الرحمة قدمت ولو في غير فاصلة، كقوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾[232]. ثم قال:

[228] [سورة الأحقاف: 34]
[229] [نسيم الرياض: 22/1]
[230] [سورة التوبة: 128]
[231] [أنوار التنزيل: 207].
[232] [سورة الحديد: 27]

والحق تغايرهما حيث اجتمعا؛ فإن معنى الرحمة الإنعام أو إرادته. والرأفة التلطف والمعاملة برفق، لأنه يقابله العنف والتجبر، كما يعرفه من يفهم كلام العرب، فلا بد من تقديمها على الرحمة كما قيل في المثل: الإيناس، قبل الإمساس. وكما قال:

*** أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ***

[هـ][233]

وحاصل هذا، أن الرأفة إذا جامعت الرحمة؛ فمعنى الرأفة المعاملة بلطف. وإذا كان هذا معناها فتقديمها على الرحمة أولى، لأن حاصل الرحمة الإنعام، والإنعام قد لا يكون بتلطف، بل قد يكون بعنف، كمن يعطي سائلا -مثلا- شيئا ووجهه كالح مكفهر عابس، ممتن على الآخذ بإظهار أثر الكبرياء. وهذا أمر مشاهد معروف لكل أحد.

فالنبي ﷺ، أكثر الناس تلطفا في إنعامه على أمته بالسعي في مصالحهم الدينية والدنيوية، وليس سعيه في ذلك على وجه التجبر والامتنان؛ كيف وخلقه القرآن، والقرآن يقول: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[234]، فإن أعطى وأنعم تهلل وجهه وابتسم. وفرق بين [من] يعطي وهو جذلان، وبين من يعطي وهو غضبان، قال زهير في هرم[235]، وهو أمدح بيت للعرب، كما قيل:

تراهُ إذا مَا جئته متهلّـلاً كأنك تعطيـه الذي أنت سائلُهْ

زكّاه رُوحاً وجِسماً، وحاشاه عيباً ووصما، وآتاه حكمة ودُكما، وفتح به أعيناً عميا، وقلوبا غلفا، وآذانا صما. (يتبع)

[معنى التزكية]

قوله: (زكاه) الخ. فصل هذه الجملة وأتى بها فعلية، لأنها كالمؤكدة لما قبلها، ولتلوين الخطاب.هـ الشهاب[في نسيم الرياض:1/23].

(233) [نسيم الرياض: 1/22].
(234) [سورة المدثر: 6]
(235) [أي هرم بن سنان بن أبي حارثة المري. كان من أجود العرب في الجاهلية، مات قبل الإسلام]أم

قوله: «أي طهّره». هذا أحد معاني التزكية. ومن معانيها التنمية والزيادة، وكل منهما يناسب هنا.

قوله: «وهو وهْم» الخ: يمكن أن يجاب عن الدُّلجي بأن معنى زكاه: سلب عنه كل نقيصة؛ فآل الأمر إلى السلب في المعنى، فإذن هو في معنى حاشاه، فتأمّله!

ثم إن الصواب في نكتة الفصل هو ما قاله الشهاب، وأن الجملة في قوة المؤكدة لما قبلها. فبينها و بين ما قبلها كمال الاتصال، على حد قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[236]، أي هو هدى للمتقين. والمعنى أن الكتاب بالغ في الهداية درجة لا يدرك كنهها حتى كأنه هداية محضة، وهذا معنى (ذَلِكَ الكِتابُ)؛ لأن معناه: الكتاب الكامل في الهداية. انظر شراح التلخيص.

[الكلام على الجسم والروح وعالم الخلق وعالم الأمر]

قوله: «فإنه عينهما» الخ. أي لأن التحقيق أن المشار إليه بانا، وسائر الضمائر: الهيكل المشتمل على النفس، كما أشار لذلك السبكي.[237]

وقال القشيري: الإنسان هو الروح والجسد، لأن الله تعالى سخر هذه الجملة بعضها لبعض، والحشر يكون للجملة، والمثاب والمعاقب الجملة.[238]

قوله: «ثم المراد بالجسم الجسد»، إلخ. الجسم يطلق بالاشتراك على معنيين: أحدها الجسم التعليمي، وهي الكمية السارية في الجهات الثلاث. وثانيها الجسم الطبيعي، وهو الجوهر الذي يمكن أن يفرض فيه الأبعاد الثلاث.هـ وفي تعاريف السيد: الجسم جوهر قابل للأبعاد الثلاثة.[239]

قوله: «وهو جسم كثيف» الخ. قال الغزالي في كتابه «المظنون به على غير أهله»: إن كل ما يقع عليه مساحة وتقدير، وهي الأجسام وعوارضها، يقال إنه من

(236) [سورة البقرة: الآية 2]
(237) [جمع الجوامع: 321/3]
(238) [رسالة القشيري: 48]
(239) [التعريفات، للسيد الشريف الجرجاني: 52]

عالم الخلق. والخلق بمعنى التقدير لا بمعنى الإيجاد والإحداث؛ يقال خلق الشيء أي قدره. وقال زهير:

*** وبعض القوم يخلق ثم يفْري [240] ***

أي يقدر الأديم ثم يقطعه، وما لا كمية له ولا تقدير يقال إنه أمر رباني. وكل ما هو من هذا الجنس من أرواح البشر وأرواح الملائكة يقال إنه من عالم الأمر؛ فعالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجية عن الحس والخيال والجهة والمكان والحين، وهو ما لا يدخل تحت المساحة والتقدير، لانتفاء الكمية عنه.هـ من حاشية العطار على المحلي.[241]

قوله: «فإنه جسم لطيف» الخ.[أي عند شرحه لقول المصنف:(زكاه روحا وجسما)]. هذا على القول بالخوض في الروح[242]، وعلى أنها جوهر.

وبالجملة؛ فقد اختلف في الروح هل نمسك عن الخوض في حقيقتها أو لا؟ واختار القول الأول جماعة من المحققين:

ومنهم الجنيد، فإنه قال:الروح شيء استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحدا من خلقه، فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود. ومنهم السبكي فإنه قال: وحقيقة الروح لم يتكلم عليها محمد ﷺ، فنمسك عنها.هـ أي لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[243].

قال الشيخ حلولو في شرح «جمع الجوامع»: والذي أراه؛ الوقف، وعدم ذكر الأقوال في ذلك لما تقدم، ولأنا لم نكلف بمعرفة ذلك.[244]

وذهب الأكثر إلى جواز الخوض في ذلك. والخائضون اختلفوا هل هي جسم، أو عرض، أو ليس بجسم ولا عرض، وإنما هي جوهر مجرد. وعلى الأول جمهور المتكلمين، قالوا: إنها جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر. قال السهروردي: ويدل له وصفها في الأخبار بالهبوط والعروج والتردد في البرزخ.[245]

---

(240) هذا عجز بيت شعر لزهير، وهو :

ولأنتَ تفري ما خلقتَ وبعـ ـضُ القوم يخلقُ ثم لا يفري

(241) [حاشية العطار : 436/2]

(242) قد وصلت الأقوال في الروح إلى سبعمائة قول، حسبما نقله شيخ شيوخنا ابن سودة في حاشية بناني عن الشيخ زروق. هـ من خط المؤلف بالهامش. أ م.

(243) [الإسراء، الآية: 85]

(244) [جمع الجوامع: 304/3]

(245) [العوارف. (بهامش الأحياء): الآية: 146/4]

وقال كثير: إنه عرض، وهي الحياة التي صار البدن بوجودها حيا.

والقول الثالث، وهو أنها ليست بجسم ولا عرض، وإنما هي جوهر مجرد غير متحين، متعلق بالبدن للتدبير والتحريك، غير داخل فيه ولا خارج عنه، وقال به الفلاسفة، وكثير من الصوفية؛ ومنهم الإمام الغزالي، حسبما فصل القول على ذلك في كتابه «المضنون به على غير أهله».

قوله: «لا من أشرفها»، أي فإن هذه العبارة تفيد أن هناك من يساوي روحه، عليه السلام، في أشرفيتها، كيف وهو سماء لا تطاولها سماء، قال البوصيري:

كيف ترقى رقيك الأنبيـــــاءُ   يا سماءً ما طاولتْها سمـــــاءُ

قوله: «أول ما خلق الله روحي»الخ[246]. لعله أراد حديث عبد الرزاق، المشهور بحديث النور، عن جابر، رضي الله عنه: أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ قال: «يا جابر؛ إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك»إلخ. ويشير لهذا قول البوصيري:

أنت مصباحُ كل فضل فمــــا   تصدر إلاّ عن ضوئك الأضواءُ

وفي «الفرائد» لابن كمال باشا: إن روح محمد ﷺ، أول باكورة أثمرها الله تعالى بإيجاده من شجرة الوجود، وأول شيء تعلقت به القدرة شرفه بتشريف إضافته إلى نفسه تعالى. ثم حين أراد الله أن يخلق آدم، عليه السلام، سوّاه ونفخ فيه من روحه، وهو روح النبي ﷺ، فهو أبو الأرواح، كما أن آدم، عليه السلام، أبو الأشخاص.

وهذا أحد أسرار قوله، عليه السلام: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة». هـ من حاشية العطار على المحلي.[247] وقوله: «فهو أبو الأرواح» الخ؛ يشير لهذا قول ابن الفارض:

وإني وإن كنت ابن آدم صـــورة   فلي فيه معنـى شاهد بأبوتـي

قوله: «لولاك» إلخ.[هذا] من الحديث الذي صححه الحاكم: «إن الله تعالى قال لآدم: لولا محمد ما خلقتك»، واعترض تصحيح الحاكم، قال ابن حجر الهيثمي: لكن صحّ عن ابن عباس، وله حكم المرفوع: «ولولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار».

---

[246] [لفظ الشارح (ابن سلطان): أما تزكية روحه ﷺ، فلكونه أشرف الأرواح المطهرة. قال: فإنه كما قال ﷺ : «أول ما خلق الله روحي»، كمام رُوي: «لولاك ما خلقت الأفلاك»: فإنه صحيح معنى ولو ضعف مبنى. هـ من شرح الشفاء لابن سلطان: جزء 1، صفحة6] أ/م.

[247] [حاشية العطار : 436/2]

وفي روايات أخر: «لولاه ما خلقت السماء والأرض، ولا الطول ولا العرض، ولا وضع ثواب ولا عقاب، ولا خلقت جنة ولا نار، ولا شمساً ولا قمراً».[248]

وفي «المواهب»: وفي حديث سلمان عن ابن عساكر، قال: هبط جبريل على النبي ﷺ، فقال: «إن ربك يقول إن كنت اتخذت إبراهيم خليلا، فقد اتخذتك حبيبا، وما خلقت خلقاً أكرم علي منك. ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي. ولولاك ما خلقت الدنيا». والله در سيدي علي الوفائي في قصيدته التي أولها:

سكن الفؤاد فعش هنيئاً يا جسدْ ... هذا النّعيم هو المقيم إلى الأبدْ
روح الوجود حياة من هو واجد ... لولاه ما تم الوجود لمن وجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هم أعين هو نورها لما ورد
لو أبصر الشيطان طلعة نوره ... في وجه آدم كان أول من سجد

[هـ][249]

وهذا سيأتي الكلام عليه في موضعه، إن شاء الله.

قوله: «فإنه صحيح معنى» الخ. يعني أن الحديث معناه صحيح، وإن كان لفظه رواية ضعيفا. والحديث قدسي ذكره شراح البردة بهذا اللفظ، وهو «لولاك لما خلقت الأفلاك»[250]، عند قولها:

وكيف تدعُو إلى الدنيا ضرورة مَن ... لولاهُ لم تخرج الدنيا من العدم

[حديث شق صدره عليه الصلاة والسلام]

قوله: «لا بماء الجنة»الخ. بل ورد في بعض الروايات غسله بماء الجنة. نعم؛ رواية البخاري في صحيحه، في أول كتاب الصلاة، أن غسله بماء زمزم، وسيأتي للشراح أن الشق تكرر مرات:

مرة وهو طفل يلعب مع الصبيان، لإزالة حظ الشيطان منه.

(248) [شرح الهمزية: 11]
(249) [المواهب اللدنية: 12/1]
(250) [شرح البردة للخربوتي: 71]

ومرة وهو ابن عشر سنين لإزالة الطفولية عنه.

ومرة عند البعثة لتثبيت قلبه بالوحي.

ومرة عند الإسراء ليقوى عليه.

وزيدت مرة خامسة، ضعفها ابن حجر في»شرح البخاري»، وصحح هو والبرهان الحلبي، الأربعة الأول.

قوله: «ويمكن أن يكون الروح والجسم» الخ. هذا الوجه هو الظاهر، ولهذا -والله أعلم- اقتصر عليه الشهاب فقال بتزكيته ﷺ : كونه في أكمل تقويم وأحسن صورة، مكملا بالقوى الظاهرة والباطنة، مطهراً من حظ الشيطان ودنسه في نفسه وبدنه؛ بشق قلبه وغسله، كما سيأتي.[251] ولهذا المعنى يشير البوصيري بقوله:

فهو الذي تمّ معناه وصورتـــــهُ   ثمّ اصطفاه حبيباً بارئ النَّســم

قال شراحه، كالشيخ زادة[والشيخ الخربوتي]، وغيرهـ[مَا]: والمراد من المعنى والصورة هاهنا؛ كماله الباطني، وكماله الظاهري، أعني حسن خَلقه وأعظم خلقه، أو الوحي الباطني والبعث الظاهري، أو طريقته وشريعته، أو روحانيته وجسمانيته، أو علمه وعمله، أو عبادته للحق ومعاملته للخلق.[252]

[استعمال كلمة «حاشا» ومعانيها]

قوله:(وحاشاه)الخ. حاشا: لها استعمالات ثلاثة:

فتكون فعلا ماضيا منصرفا، تقول: حاشاه يُحاشيه. ومنه:

ولا أحاش من الأقوام من أحد

ومعناه: باعد، ونزه، وجنب. وتكون أداة تنزيه كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾[253]. وتكون للاستثناء. وأحكامها مفصلة في النحو، لأنها كخلا، قال ابن مالك:

وكخَلا حاشَا ولا تصحَبُ مـــــا   وقيل حاشَ وحَشَا فاحْفظهُمـــا

وهي هنا من الاستعمال الأول.

(251) [نسيم الرياض: 1-23]

(252) [عصيدة الشهدة، للخربوتي: 85]

(253) [سورة يوسف: 31]

قوله: «فهو تخصيص»الخ. قال الشهاب: الوصم بفتح الواو وسكون الصاد المهملة؛ إن فسر بالعيب فهو من عطف أحد المترادفين على الآخر، إطنابا في مقام الخطابة تتميما للفاصلة، وإن فسر بالعار، كما في القاموس، فهما متقابلان.[254]

ثم إن الأولى أن يقال إن عطف الوصم على العيب من عطف الأخص على الأعم، لأن الوصم أشد العيب كما أفاده شارح القاموس، والأصل التأسيس لا التأكيد. أو المراد بالعيب العار في الذات، والوصم العار في الحسب، كما في الشرح المذكور أيضا، ولفظه مع المتن: والوصم العار في الحسب، وأنشد الجوهري:

فإن تك جرم ذات وصم فإنما ... دلفنا إلى جرم بالأم من جرم

هـ.[255]

وهناك وجه آخر أن يُفسر بالتواني، لأن التوصيم في الجسد كالتكسر والفترة والكسل. فتحصل أن في هذه العبارة احتمالات:

- الأول: أن يكون من عطف المترادفين على الآخر لقصد الإطناب في مقام الخطابة تتميما للفاصلة. فالعيب والوصم شيء واحد.

- الثاني: أن يكون معنى الوصم أخص من العيب، بمعنى أنه أشد العيب.

الثالث: أن يكون العيب راجعا إلى الذات، والوصم راجعا إلى الحسب، حسبما في كتب اللغة.

- الرابع: أن يحمل الوصم على التواني.

قوله: «ثم نصبهما بنزع» الخ. هذا إن جعلنا حاشا بمعنى نزه ونحوه. وأما إن جعلناه بمعنى جنب فنصبه على أنه مفعول به. قال الشهاب: وهذا أقرب. قوله: «من عيب ووصم». أي من كل عيب ووصم، لأن النكرة في سياق النفي للعموم. والمعنى أنه ﷺ، خلق مبرءا من كل عيب من جهة نفسه الكريمة، كما أنه منزه من النقائص في أحسابه الفخيمة. والله در [القائل]:

وأجمل منك لم تر قطُ عيني ... وأكمل منك لم تلد النساءُ

خلقتَ مبرءاً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاءُ

---

[254] [نسيم الرياض: 23/1]

[255] [تاج العروس: 95/9]

[إطلاقات الحكمة]

قوله: «أي علما بالشرائع» الخ. قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤتِي الحِكْمَةَ﴾[256]: تحقيق العلم وإتقان العمل.[257]

وقال النسفي في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ﴾[258]: الزبور وعلم الشرائع. وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة.[259]

وقال الخازن: يعني النبوة، والإصابة في الأمور.[260]

ومن معاني الحكمة، كما في «القاموس»، العدل، والقرءان. فالحكمة تطلق على تحقيق العلم، وإتقان العمل، وعلى الزبور، وعلى علم الشرائع، وعلى الكلام الحق، وعلى العدل، وعلى القرآن.

وفي «الفتح» عن النووي: في تفسير الحكمة أقوال كثيرة مضطربة صفا لنا منها أن الحكمة: العلم المشتمل على المعرفة بالله، مع نفاذ البصيرة، وتهذيب النفس وتحقيق الحق للعمل به، والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك. هـ ملخصا.[261]

ثم قال ابن حجر: وقد تطلق الحكمة على القرآن، وهو مشتمل على ذلك كله وعلى النبوة كذلك. وقد تطلق على العلم فقط، وعلى المعرفة فقط ونحو ذلك.هـ[262]. ذكر ذلك في حديث شق صدره، عليه السلام: «ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغه في صدري».

[إطلاقات الحكم]

قوله: «أي قضاء» الخ. اعلم أن الحكم يطلق على خطاب الله المتعلق بفعل المكلف، وهذا اصطلاح أصولي، وعلى النسبة التي بين الطرفين إيجابية كانت أن

(256) [البقرة، من الآية: 269]
(257) [أنوار التنزيل: 58]
(258) [ص، من الآية: 20]
(259) [مدارك التنزيل: 33/4]
(260) [لباب التأويل: 33/4]
(261) [فتح الباري: 314/1]
(262) [فتح الباري: 314/1]

سلبية، وعلى إذعان تلك النسبة، الذي هو التصديق. وهذا اصطلاح منطقي، انظر حواشي «جمع الجوامع»، ويطلق على القضاء كما هنا.

والمراد أن الله تعالى أعطى نبيه ﷺ، القرآن المشتمل على علم الشرائع والحق البين. أو أعطاه النبوة والإصابة في الأمور، كما منحه الفصل بين الناس بالحق والعدل.

[الجناس وأنواعه]

قوله: «قال المحشي، وتبعه الدلجي، فيه تجنيس التحريف». هذا صحيح ولا اعتراض عليهما، إذ الجناس المحرف هو ما اتفق ركناه في عدد الحروف وترتيبها، واختلفا في الحركات كقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذِرين، فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين﴾[263]، وقوله عليه السلام: «اللهم كما حسّنت خَلْقي فحسّن خُلُقي». وقول الحلّي:

من لي بكل غرير من ظبائهم … غزير حُسن يداوي الكَلْم بالكَلِم

هذا، مع قطع النظر عن تاء التأنيث لأنها، كما تقرر عند النحاة، في تقدير الانفصال، ويدل له ما أتى به شاهدا لهذا النوع رئيسُ هذا الفن، العلامة ابن حجة في «خزانته»، من قول الصاحب بهاء الدين:

زها وَرْد خديك لا كنه … بغير النواظر لم يقطف

وقد زعموا أنه مُضَعَّفٌ … وما علموا أنه مُضعفي

حيث إن مُضعفي) فيه ياء النفس، ومع هذا عد من جناس التحريف وأوضح منه ما في «المثل السائر»، للعلامة ابن الأثير، حيث تكلم على الأقسام الستة التي تلحق بالجناس، وصدر لهذا القسم فقال: ومن هذا القسم قول بعضهم: لا تنال غُرر المعالي إلا بركوب الغَرر، واهتباك الغرر. وقال البحتري:

وفر الخائن المغرور يرجُو … أمانا أيّ ساعة ما أمان

يهاب الالتفات وقد تهيا … للَحظة طرفه طرف السَنان[264]

---

[263] [الصافات، الآية: 72-73]

[264] [المثل السائر: 100]

وأما قوله: «والصواب التطريف» الخ؛ فإنه غير صحيح على ما عليه محققو هذا الفن؛ أما أولا: فإن الجناس المطرف عندهم، حسبما نص عليه صفي الدين الحلي وابن حجة، أنه ما زاد أحد ركنيه عن الآخر حرفا في طرفه الأول، ويسمى أيضا المرادف والناقص، وفي تسميته اختلاف. وخير الأسماء ما طابق المسمى وهو كقوله تعالى: (وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ)[265]، ومنه قول الصفي الحلي:

من شأنه حمل أعباء الهوى كمداً إذ الهوى شأنه بالدمع لم يلـــم

وأما إذا كانت الزيادة كهذه، فإنه على فرض صحته في هذه العبارة فإنه يسمى مذيلا، لأن المذيل ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفا في آخره، فصار له كالذيل، وهو الفرق بينه وبين المطرف، ومثاله قول الحلي:

أبيت والدمع هام هاملٌ ســـرب والجسم في اضم لحماً على وضم

وأما ثانيا: فإن السعد، الذي يظهر من كلامه، انه يسمي هذا النوع مطرفا مثل بقول أبي تمام الطائي:

يمدون من أيد عواص عواصـــم تصُولُ بأسياف قواض قواضــب

فليس فيه إلا الاختلاف في الزيادة والنقص.

وبالجملة؛ فالذي تقتضيه قواعد هذا الفن وشواهده، أن يسمى هذا النوع جناس التحريف، لا التطريف. والله أعلم.

[قول المصنف: (وفتح به أعينا عميا)]:

قوله: «لكن قد يأتي جمع القلة [بمعنى الكثرة]، كقوله تعالى: «جَنّاتُ عَدْنٍ» الخ: وذلك لأن جمع التصحيح من قبيل جمع القلة، كما نص عليه النحاة، [وقد] أشار للاستعمالين ابن مالك بقوله:

وبعضُ ذي بكثرةٍ وضعًا يَفـــي كأرجُلٍ والعكسُ جاء كالصُفـــي

---

[265] [سورة القيامة: 29-30]

[ترجمة الحافظ ابن حجر، شارح صحيح البخاري]

قوله : «وقال الحافظ العسقلاني»: هو إمام الحفاظ في زمانه، قاضي القضاة، شهاب الدين أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني، العسقلاني ثم المصري، المعروف بابن حجر. قال السيوطي: تخرج بالحافظ أبي الفضل العراقي، وبرع فيه، أي الحديث، وتقدم في جميع فنونه، وانتهت إليه الرحلة والرياسة في الحديث بالدنيا بأسرها، وألف كتبا كثيرة، كـ«شرح البخاري»، و«الإصابة»، وغيرهما. توفي سنة 852، وختم به الفن، وأمطرت السماء يوم جنازته، ولم يكن الإبان وقت مطر، فأنشد الشهاب المنصوري:

قد بكت السحب على قاضي القضاة بالمطرْ
وانهدم الركن الذي كان مشيدا من حجرْ

انظر «حسن المحاضرة».[266]

[القلب ومعانيه]

قوله : «جمع قلب». العضو المعروف، والمراد العقل. قوله: «وسمي به لتقلبه» الخ. قال الراغب: تقليب الشيء تغييره من حال إلى حال. والتقلب التصرف. وتقليب الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي. وقال الكرماني ما معناه: كأن يحتمل أن يكون المعنى بقوله: مقلب، أنه يجعل القلب قلبا، لكن مظان استعماله تنشأ عنه. هـ من «فتح الباري». وكان يقسم،عليه السلام، بقوله: «لا ومقلب القلوب»، كما في البخاري.

وفي «شرح الكعبية» للباجوري: وإنما سمي القلب قلبا لتقلبه في الأمور، ولتقليب الله له، كما في الحديث: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء».[267]

(266) [حسن المحاضرة للسيوطي: 1/170]

(267) [وفي صحيح مسلم: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء»] أ/م.

ثم إن القلب له معان أربع، حسبما ذكرها العلامة ابن هشام في شرح قول كعب:

*** بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ***

أحدها: الفؤاد، ومنه: (وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِه وَقَلْبِه)[268]. وإنما سمي قلبا لتقلبه وقيل القلب أخص من الفؤاد، ومنه الحديث: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوبا وألين أفئدة؛ الإيمان يمان، والحكمة يمانية»؛ فوصف القلوب بالرقة، والأفئدة باللين.

والثاني: العقل، ومنه: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ)[269].

والثالث: خالص كل شيء ومحضه، ومنه الحديث: «لكل شيء قلبٌ وقلب القرآن (يـس)».

والرابع: مصدر قلبه.[270]

قوله: «بضم فسكون» الخ. اعلم أن لفظ غلف يحتمل أن يكون أصلها بضم الغين واللام ثم خففت، وأنه جمع غلاف، أو أنه جمع أغلف بضم فسكون، وقد جوز المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[271]، كونه بضم فسكون. جمع أغلف، والأغلف هو الذي لم يختتن؛ فشبهت القلوب، في عدم نفوذ الحق فيها، بشيء مغلوف بغلاف بحيث يمنع غلافه من أن يصل إلى جوفه شيء من خارج، فاستعير للمشبه ما هو موضوع للمشبه به، وهو لفظ غلب. قاله الشيخ زادة.

أو جمع غلاف؛ فأصله بضمتين ثم خفف بتسكين اللام. وعلى هذا فيحتمل معنيين:

المعنى الأول: إن قلوبهم أوعية العلم، تفهم وتعي ما يقال لها وتخاطب به، لكنها لا تفهم ما يقوله النبي، عليه السلام، ولا تفقه ما يخبرها به ويحدثها، ولو كان ما تقوله حقا وصدقا لفهموه ووقفوا عليه وهم يفهمون ويدعون بهذا بطلان ما يقوله الرسول، عليه الصلاة والسلام، وذلك نحو ما أخبر به تعالى عن الكفار حيث قالوا لشعيب: (مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ).[272]

(268) [الجاثية، الآية: 23]
(269) [سورة ق، الآية: 37]
(270) [شرح قصيدة بانت سعاد، لابن هشام: 10]
(271) [البقرة، الآية: 88]
(272) [هود، الآية: 91]
(273) [البقرة، الآية: 87]

والثاني: إن قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة معها إلى علمك؛ فرد الله عليهم بقوله: (بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)[273]، انظر البيضاوي وحواشيه.

والمعنى في كلام المؤلف أن قلوبهم كانت محجوبة عن الهداية، فأزال النبي ﷺ، حجابها، وكشف غطاءها حتى اهتدت.

قوله: (وآذانا صما) الخ. أي لكونها كانت غير منتفعة بالهداية، فكأنها عادمة لهذه القوة المدركة، لأن الإنسان إذا لم يمتثل لما سمعه ولم ينقد له، فكأنه في صمم عنه. وهذه المعنى متداولة، قال البوصيري:

محضْتني النُصح لكن لست أسمعهُ ... إن المُحبَّ عن العُـذّال في صمَـم

[فآمن به وعزّره ونصره من جعل لله تعالى له في مغنم السعادة قسما. وكذّب به وصدف عن آياته من كتب لله عليه الشقاء حتما، ومن كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى]. (يتبع)

قوله: (وعزّره). التعزير، كما أفاده الشارح وغيره، له إطلاقان مناسبان هنا : الأول: التعظيم. والثاني: الإعانة على العدو، ولكن الأول أولى لما فيه من التأسيس؛ والتأسيس أولى من التأكيد، لأنه إن حمل على المعنى الثاني كان مكرراً مع قوله: ونصره.

قوله: (في مغنم السعادة): مغنم: يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الغنم أو الغنيمة، وهي الفوز بما يطلب من الفيء ونحوه، [أ]و أن يكون بمعنى ما يغتنم من كل شيء. فإن كان بالمعنى الأول، فالإضافة بمعتى اللام، أي في اغتنام للسعادة. وإن كان بالمعنى الثاني، فالإضافة للبيان، أي جعل الله له قسما فيما يغتنم من السعادة. ويجوز، على هذا الثاني، أن يكون من إضافة المشبه للمشبه به على حد [قول الشاعر]:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لجين المـاء

أي جعل الله له قسما في السعادة التي هي كالشيء المغتنم من العدو. والله أعلم.

قوله: «أي أعرض عن معجزاته» الخ. أشار به إلى أن آيات جمع آية، وهي العلامة والأمارة، ثم إنها تطلق على آية القرآن، وهي ألفاظ منه ذات مقطع ومبدأ.

وتطلق على المعجزة، وهو الأمر الخارق للعادة المقارن لدعوى الرسالة المتحدى به قبل وقوعه، حسبما يأتي، لأنها علامة على النبوة، وأن كلا من المعنيين يصح إرادته هنا. واختلف في وزن آية فقيل فعلة ساكنة، وقيل فعلة محركة، وقيل فاعلة وأضيفت إليه ﷺ، هنا لأنه أتى بها.

[البرهان في اصطلاح المناطقة]

قوله: «البرهانية». أي ذات البرهان، أي الحجة. هذا معناه لغة. وأما البرهان في اصطلاح المناطقة فهو القياس المؤلف من اليقينيات سواء كانت ابتداء، وهي الضروريات، أو بواسطة وهي النظريات، والحد الأوسط فيه لا بد أن يكون علة لنسبة الأكبر إلى الأصغر، فإن كان مع ذلك علة لوجود تلك النسبة في الخارج أيضا فهو برهان لمي كقولنا هذا متعفن الأخلاط، وكل متعفن الأخلاط محموم، فهذا محموم بتعفن الأخلاط، كما أنه علة لثبوت الحمى في الذهن، كذلك علة لثبوت الحمى في الخارج، وإن لم يكن كذلك بأن لا يكون علة للنسبة إلا في الذهن فهو برهان آني كقولنا هذا محموم متعفن الأخلاط. فالحمى وإن كانت علة الثبوت تعفن الأخلاط في الذهن، إلا انها ليست علة له في الخارج، بل الأمر بالعكس. ولعبارة البرهان اللمي ما يكون الاستدلال فيه بالعلة على المعلول، كقولنا: هذا محموم لأنه متعفن الأخلاط. والبرهان الأني ما يكون الاستدلال فيه بالمعلول على العلة كقولنا: هذا متعفن الأخلاط لأنه محموم. البرهاني الاني يفيد العلم بتحقيق النسبة في الواقع، لا العلم بتحقيق النسبة فيه. والبرهان اللمي يفيد كليهما. والله أعلم.

قوله: «أي قدر» الخ. يعني إن كتب بمعنى حكم وقدر في الأزل، أو أوجب، أو كتبه في اللوح المحفوظ. وقيل انه يكتب السعادة والشقاوة في بطن أمه على جبينه، أو بين عينيه أو في رق لا يرى في عنقه، كما ورد، وهو إما تمثيل لسبق شقاوته وسعادته، أو هو على حقيقته وظاهره. قاله الشهاب[274].

قوله: «وأوجب (عليه الشقاء)». في «القاموس»: والشقاء الشدة والعسر، ويمد وشقا كرضا شقاوة ويكسر، وشقا وشقاء وشقوة ويكسر[275]. وقال الراغب: الشقاوة خلاف السعادة، والشقوة كالردة، والشقاوة كالسعادة من حيث الإضافة. وكما أن السعادة في الأصل ضربان: سعادة أخروية، وسعادة دنيوية، ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب: سعادة نفسية، وبدنية، وخارجية؛ كذلك الشقاوة على هذه الأضرب

(274) [نسيم الرياض: 1/26]

(275) [القاموس المحيط]

-وهي الشقاوة الأخروية والدنيوية- قال: وقال بعضهم قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت في كذا، وكل شقاوة تعب وليس كل تعب شقاوة، فالتعب أعم من الشقاوة. هـ[276] وبه تعلم ما في الشارح.

[العمى المقصود في الآية القرآنية الكريمة]

قوله: (ومن كان في هذه أعمى) الخ. قال الشهاب: ولما كان الشقي لا يهتدي لعمى بصيرته، نبه على حاله مقتبسا من القرآن فقال: (ومن) الخ.[277]

قوله: «فاعل» الخ. أي فاعل بالجار والمجرور لكونه خبرا، لأن الجار والمجرور يرفع الفاعل بعد النفي والاستفهام، وإذا وقع صفة أو صلة أو خبرا أو حالا، وإليه الإشارة بقول الجمل:

إذا نفى المجـرور يرفع فاعـــــلا كذا مع الاستفهام فاخفظ تكملا

كذا الحكم في هذه المواضع كلهـا والأخفش والكوفي في ذاك أشمـل

واعلم أن المذاهب في هذه المسألة ثلاثة: أحدها أن الأرجح كونه مبتدأ مخبرا عنه بالجار والمجرور، ويجوز كونه فاعلا. والثاني: أن الأرجح كونه فاعلا واختاره ابن مالك، وتوجيهه أن الأصل عدم التقديم والتأخير. والثالث: أنه يجب كونه فاعلا، ونقله بعضهم عن الأكثرين، وحيث أعرب فاعلا فهل عامله الفعل المحذوف أو الجار والمجرور؟ قولان اختار ابن مالك الأول. واختار غيره الثاني، ونحو عبارة المصنف قولك: زيد في الدار أخوه.

قوله: «أي عن الأمور العلمية» الخ؛ أي والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب، وليس المراد بقوله أعمى عمى البصر، لأنه لا يمكن، إذ هم يعرفون الله بالضرورة، وكأن المراد منه العمى عن طريق الجنة والنجاة من النار، لما روي أنه لما نزلت هذه الآية جاء ابن أم مكتوم -وكان ضريرا- إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[278]. وقيل المراد بالعمى الثاني عمى البصر، لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[279].

(276) [معجم مفردات ألفاظ القرآن: 27/1]
(277) [نسيم الرياض: 27/1]
(278) [سورة الحج: 46]
(279) [سورة طه: 124-125]

قوله: «أو أشد عمى»الخ. لأنه وإن كان ضالا في الدنيا عن الصراط المستقيم إلا أن ضلاله في الآخرة أشد وأقوى بالنسبة إلى ضلاله الكائن في الدنيا، لأنه يمكنه الاهتداء في الدنيا بالتوبة عما هو فيه، بخلاف ضلاله في الآخرة؛ فإنه لا يمكن الخروج منه لزوال المهلة والاستعداد، كما أفاده زادة.

قوله: «لأن أفعل التفضيل» الخ. يرد عليه أنهم أمالوا (ولا أدنى من ذلك) مع التصريح عن فلان يميلوا أعمى مقدرا معه من أولى وأخرى.

قوله: «أعمالكم». أي من نحو قوله تعالى: (ولاَ تُبْطِلُوا أعْمالَكُمُ).[280]

قوله: (صلى الله عليه وسلم) الخ. لما ذكره أنه ﷺ، وصل إلى أعلى مراتب الكمال، وأن كمال غيره إنما هو بهدايته، والاقتباس من نور شريعته؛ ناسب أن يعظمه ويدعو لهُ أداءً لبعض حقه، وتوسلا إلى الله في قبول حمده وإتمام قصده، فقال: «صلى الله عليه وسلم»الخ. قاله الشهاب.[281]

قوله: «جملة خبرية مبنى» الخ. لأن الخبر يقع موقع الإنشاء؛ إما للتفاؤل، على أن الأمر المعبر عنه هو من الأمور الحاصلة، التي حقها أن يخبر عنها بأفعال ماضية كقولك: وفقك الله للتقوى.

أو لإظهار الحرص في وقوعه، لأن الطالب إذا عظمت رغبته في شيء، كثر تصوره إياه؛ فربما يخيل إليه حاصلا فيورده بلفظ الماضي، كقولك: رزقني الله لقاءك. قال في «التلخيص»: والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتملهما، أي التفاؤل وإظهار الحرص.[282]

ولما كانت الصلاة على النبي ﷺ، متحققة الوقوع، لكونها مقبولة قطعا ـ كما نص عليه أبو إسحاق الشاطبي، وهو مقتضى قول الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجته فليسألها بين الصلاتين فإن الله يقبلهما، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما ـ ناسب بأن يعبر بالجملة الخبرية، بدلا عن الإنشائية.

(280) [سورة محمد: 33]
(281) [نسيم الرياض: 1 /28]
(282) [التلخيص للقزويني وشرحه للبرقوقي: 158]

[التصلية واستعمالها]

قوله: (صلاة) الخ: اسم مصدر منصوب على المفعولية المطلقة، لإفادة تقوية عامله وتقرير معناه. قال في «القاموس»: اسم يوضع موضع المصدر وصلى صلاة، لا تصلية دعاء.هـ قال شارحه: قال شيخنا: ولهج به السعد في «التلويح» وغيره. وقاله السيد وجماعة تقليدا، وتبعهم أبو عبد الله الحطاب أول شرح «المختصر»، وبالغ عن الكتاني أن استعماله يكون كفرا. وهذا كله باطل يرده القياس والسماع. أما القياس، فقاعدة التفعلة من كل فعل على فعل معتل اللام مضعفا كزكى تزكية، وروى تروية، وما لا يحصر. ونقله الزوزاني في مصادره. وأما السماع، فأنشدوا من الشعر القديم:

تركت المدام وعزف القيـــــان   وأدمنت تصلية وابتهـــــــالا

وقد وسع الكلام في ذلك الشهاب في مواضع من شرح الشفا والعناية، وهذا خلاصة ما هناك.[283]

وممن ذهب إلى الجواز العلامة أبو العباس الهلالي في «نور البصر»، حيث صدر به وقال إنه الأظهر.

[معنى الصلاة]

وأما معنى الصلاة، فقد اختلفت فيها العبارات. وهي في اللغة: الدعاء، قاله الجوهري وغيره. ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[284]، أي دعواتك طمأنينة لهم، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَٰتِ الرَّسُولِ﴾[285]، أي أدعيته.

وقال النووي: قال العلماء والصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدمين تضرع ودعاء. وممن ذكر هذا التقسيم الإمام الأزهري وآخرون.[286] قال الشهاب: وبه تمسك الشافعية في الجمع بين معنيي المشترك.[287]

ورد هذا التقسيم الشيخ الطيب ابن كيران إلى شيئين، وحاصله أن الصلاة من

(283) [تاج العروس: 213/10]
(284) [سورة التوبة: 103]
(285) [سورة التوبة: 99]
(286) [تهذيب الأسماء: 179/1].
(287) [نسيم الرياض: 28/1].

الله تعالى الرحمة، ومن غيره تعالى -من الملائكة والإنس والجن، والجماد والأشجار- الدعاء. وما شاع من أنها من الملائكة الاستغفار؛ فمعناه به، أي الاستغفار بدليل: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[288]، أو بغيره بدليل: «الملائكة تصلي على أحدكم ما لم يحدث؛ تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه». وسيأتي في كلام المؤلف رحمه الله إيضاح هذه المسألة.

[الكلام على نما ينمو وما فيه]

قوله: «والمعنى» الخ. حاصل ما ذكره الشارح في تنمُو وتنمى، أن معناهما واحد وإنما الأول من الثلاثي، والثاني من الرباعي. فالأول قاصر، والثاني متعد، والكل معناه الزيادة. ثم أفاد أنه يقال في مضارع نما ينمى وينمو، ويظهر منه أولا ترجيح ينمى، وثانيا ترجيح ينمو. ثم الحاصل في المسألة أن الكسائي وأبا عبيد، وصاحب «المحكَم» وصاحب «الصحاح»؛ ذهبوا إلى تضعيف ينمو، واقتصر ثعلب في «فصيحه» على ينمى، وأنكر ينمو بعضهم. وأما أبو عبيدة فحكى ينمو وينمى، وسوى بينهما يعقوب. وقال صاحب «القاموس»: ونما ينمو نموا: زاد واستدرك عليه. هذا حاصل ما في «تاج العروس».

وأما معنى كلام المؤلف، فقال الشهاب فيه:

الظاهر أن تنمو الأول بمعنى تزيد، والثاني بمعنى تبلغ وترفع وتبلغه لما سيأتي من أن له ملائكة تبلغه، ﷺ، صلاة من صلى عليه.[289]

[ذكر الآل والصحب في التصلية]

قوله: «وعلى آله». ذكر الشارح، رحمه الله، في تفسير الآل وجهين: الأول أنه بمعنى الأتباع، وهو أصل معناه، قال الشهاب:

---

(288) [سورة غافر: 7]

(289) [نسيم الرياض:1ـ 29]

وأصل معنى الآل: الأتباع، ولذا فسره بهم فيما سيأتي، ولم يضف في الأكثر المطرد إلا إلى العقلاء الأشراف، وزيد قيد الذكور، والكل أغلبي لقولهم: آل الله، وآل البيت. قال:

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

فهو أخص من الأهل، ثم خص في العرف ببني هاشم وبني المطلب. وقيل هم عترته وأهل بيته، وقبل هم جميع أمته، كما سيأتي في كلام المصنف مع الكلام عليه، واختاره الإمام مالك والنووي. والأصح جواز إضافته إلى الضمير، وإن زعم المبرد انه من لحن العامة.[290]

قلت: وشاهد إضافته إلى الضمير البيت السابق.

وقوله: «وفي نسخة» الخ. معنى هذا الكلام أنه يوجد في بعض النسخ: وصحبه، بعد آله. وعليه فذكر الصحب بعد الآل، المفسر بالأتباع، هو من ذكر الخاص الذي هم الصحب، بعد العام الذي هم الأتباع. أو يقال: إن الأول يعبر بالأقارب فيكون حينئذ من ذكر العام بعد الخاص لزيادة التشريف والتعظيم، والله تعالى أعلم.

ولم يعرج الشهاب على هذه النسخة، ولهذا قال:

[قيل] كان ينبغي ذكر الصحب مع الآل، لأن الصلاة عليه تستحب عليهم. وأجيب بأن معناه هنا الأمة والأتقياء منهم، فيشملهم مع الاختصار، وهو مذهب مالك، والمصنف رحمه الله مالكي المذهب.هـ[291]

قوله: «(وسلم) عطف على صلى»الخ. أتى بالسلام بعد الصلاة، لأجل الخروج من الخلاف الواقع في إفراد الصلاة عن السلام، لأنه ذهب كثير من المحدثين إلى كراهة إفراد الصلاة عن السلام، وإن كان الذي انحط عليه كلام المحققين من المتأخرين هو الجواز؛ منهم الزرقاني، شارح «المواهب» وشارح «الإحياء»، والشيخ الطيب ابن كيران.

قوله: «أي [تسليما] عظيما»: أخذ الصفة من التنوين، لأن مما يدل عليه التنوين: التعظيم.

[290] [نسيم الرياض:1ـ 29]
[291] [نسيم الرياض:1ـ 29]

[وجوب احترام النبي ﷺ في جميع حالاته]

قوله: «ثم ظاهر آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾» الخ.

هذه الآية وقعت إثر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيءِ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيءَ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا(53)، إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا(54)، لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا(55)، إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ﴾، الآية.[292]

قال الشيخ زادة: لما أمر الله تعالى المؤمنين بالاستئذان، وعدم النظر إلى نسائه احتراما له؛ كمل بيان حرمته في جميع حالاته، وذلك لأن حالاته منحصرة في اثنتين: حالة كونه في بيته، وحالة كونه في ملإ؛ والملأ إما الملأ الأعلى، وإما الملأ الأدنى؛ فبيّن الله تعالى احترامه وهو في بيته بقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيءِ﴾، وبين احترامه في الملأ الأعلى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ﴾، ثم ذكر كونه واجب الاحترام في الملإ الأسفل بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[293].هـ[294]

إذا علمت هذا، ربما تبين لك ما يتلمح به وجه الأخذ من الآية أن الصلاة واجبة عليه كلما ذكر، عليه السلام، وقيل وجه الأخذ أن الأمر يقتضي التكرار، وإلا فالآية عند العلماء محمولة على الوجوب.

وحكى الحافظ أبو عمر بن عبد البر عليه الإجماع. وشذ ابن جرير الطبري فحمله على الاستحباب، وستأتي هذه المسألة في محلها من كلام المصنف.

---

(292) [سورة الأحزاب: 53/54/55/56]

(293) [سورة الأحزاب: 56]

(294) [حاشية على تفسير البيضاوي: 3/74].

قوله: «وكذا حديث [من ذكرت عنده فلم يصل عليّ]»الخ. وفي لفظ رواه الترمذي وصححه، والبيهقي والنسائي: «البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي». وستأتي هذه الأحاديث، والله در يحيى بن يوسف الصرصري[في قوله]:

من لم يصل عليه إن ذكر اسمه فهو البخيل وزده وصف جبان
وإذا الفتى صلى عليه مرة من سائر الأقطار والبلدان

قوله: «والجمهور الخ: لعله يعني به جمهور العلماء، أو جمهور أهل مذهبه، وهو مذهب جمهور المالكية أيضا.

الأقوال التي تجب مرة في العمر

وكذا السلام، ولا وجه لتوقف بعضهم في وجوبه، وقد نص القاضي ابن بكير على أنه فرض كالصلاة، قاله الحطاب، ونقله الشيخ الطيب ابن كيران في «شرح المرشد»، وقد نظم ابن القاضي ذلك مع باقي الأقوال التي تجب مرة في العمر فقال:

صلاة سلام ثم تسبيح حمدهم شهادة استغفار تكبير مع شكر

وزاد غيره: البسملة، والحسبلة، أي قوله: حسبي الله ونعم الوكيل. والتعوذ، والحوقلة، أي قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. ولهذا ذيلتُ البيت بقولي:

وبَسْمِلْ وحَسبِل مرةً، وتعوذن وحوْقل معْ خَتْمٌ على الناس في العُمر

قوله: «والمحققون[على أنها فرض في كل مجلس]الخ. ومستند هذا القول، ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي، والحاكم وابن حبان في صحيحيهما، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم: «ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي ﷺ، إلاّ كان عليهم تِرة يوم القيامة؛ إن شاء عفا عنهم وإن شاء أخذهم». والترة: النقص.

والحاصل أن الصلاة على النبي ﷺ، فرض على الجملة، وإنما وقع الاختلاف في القدر الواجب على أقوال، حسبما يأتي تفصيله، قال التاج السبكي في منظومته:

اتفق الناس على الفرضية وإنما الخلاف في الكمية

فقال قـوم مرة في العُمــــر وهو ضعيـف عند أهل السيــر
وقال آخـرون كلمـا ذكـــر واعتصموا بما أتـاهم من خبـر
فمن أخلَ بالصلاة إن ذكـــر يرغم أنفه كذا جـاء الخبَـر
وهو مشير للوجوب فامتثـــل ولا تكن ممن عصى أمر الرسُـل
وفي حديث انــه البخيـــل والبخل أدوأ الداء وذا دليـلُ

ثم قال:

والترمـذي وأبـــــو داوودَا والنسائي قـدروا موجــــودة
بل كـل فرقـة تجتمــــعُ ولا تصـل فعليهـا المجمــــعُ
وهو عليهـــا تــرة إن شـــاء تعذيبها الله أو الإغـضـــاء

ثم قال:

والشافعي قـال قـولا ثالثـــا غـدا للمرسليـن وارثـــا
عليه في كل صـــلاة راتبـــة يأتي بها العبد صلاة واجبـــة
بل هي ركن في صـــلاة النـــاس قد قـام بالنص وبالقيـــاس

وهذا القول الذي أشار له، يشير له قول الشافعي فيما ينسب له :

يا أهل بيت رسول الله حبكـــمُ فرض من الله في القرآن أنزلـهُ
يكفيكم من عظيم المجد أنكـم من لم يُصل عليكم لا صلاة لـهُ

[تراجم: الطحاوي ـ الحليمي ـ اللخمي ـ ابن بطة]

قوله: «الطحاوي»: نسبة لطحا، مدينة بمصر يقال لها طحا المدينة، وتعرف أيضا بأم عامودين. وهو الإمام الكبير، أبو جعفر أحمد بن سلامة بن إسماعيل القضاعي الطحاوي الحنفي، ابن أخت الإمام المزني. له مؤلفات جليلة؛ منها شرح معاني الآثار. توفي بمصر سنة 329، وله مقام معروف بالقرافة يُزار ويستجاب عنده الدعاء. قاله في»تاج العروس».

وقوله: «الحليمي»: الحليمي، حسبما وجد بخط الإمام القصار ونقله عنه تلميذه أبو زيد الفاسي، نسبة إلى حليمة السعدية، مرضعته عليه السلام. وقال ابن خلكان: نسبة إلى جده حليم، ولم يتعرض لضبط حليم. وبالضبط الأول جزم الزرقاني في «شرح المواهب».

وفي «طبقات» السبكي: الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، باللام، الشيخ الإمام أبو عبد الله الحليمي، أحد أئمة الدهر، وشيخ الشافعيين بما وراء النهر، وأنظرهم بعد أستاذيه: أبي بكر القفال، وأبي بكر الأودني.هـ. توفي سنة ثلاث وأربعمائة.[295]

وقوله: «واللخمي»الخ: هو الإمام أبو الحسن علي بن محمد الربعي، بفتحتين، نسبة لربيعة، وشهر باللخمي نسبة إلى جده لأمه. وترجمته مشهورة، وهو أحد الأئمة الذين اعتمد عليهم الشيخ خليل وذكرهم في أول مصنفه. توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

وقوله: «وابن بطة»الخ. هو بفتح، وهو أبو عبد الله، عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان بن بطة العكبري الحنبلي، مصنف «الإبانة»، تكلموا فيه، قال الذهبي: عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الفقيه، إمام لكنه ذو أوهام، لحق البغوي وابن صاعد. ثم قال: قلت: ومع قلة إتقان ابن بطة في الرواية، كان إماما في السنة، إماما في الفقه. صاحب أحوال وإجابة دعوة رضي الله عنه .هـ توفي، كما في «تاج العروس»، سنة 387.

[ثم قال المصنف] :

أما بعد. أشرق لله قلبي وقلبك بأنوار اليقين، ولطف لي ولك بما لطف بأوليائه المتقين. (يتبع)

[أحوال كلمة (بعد) في قول المصنف (أما بعد)]

قوله، أي الشارح: «بضم الدال»إلخ. أحوال بعْدُ وأخواتها معروفة، وفي كتب النحو مبسوطة، وذلك لأنها بالنظر إلى الإضافة وعدمها؛ إما أن يذكر المضاف، وإما

[295] [طبقات الشافعية الكبرى: 3 /147]

أن يحذف وينوى معناه دون لفظه، بمعنى ملاحظة معنى المضاف إليه [ومسماها] معبراً عنه بأي عبارة كانت، وأي لفظ كان، فيكون خصوص اللفظ غير ملتفت إليه.

وإما أن يحذف، وينوى ثبوت لفظ المضاف إليه، بمعنى أن يكون ملتفتا إلى لفظ خاص.

وإما أن يحذف المضاف إليه، ولا ينوى لا لفظه ولا معناه.

ففي الوجه الأول معربة ولا إشكال، نحو: دار زيد بعد دار عمرو؛ فالحركة الموجودة على دال(بعْد) حركة إعراب لأنها منصوبة على الظرفية. وفي الثاني مبنية، لشبهها حينئذ بحروف الجر، أي في الإستغناء بها عما بعدها، مع ما فيها من شبه الحرف في الجمود والافتقار، نحو: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[296] في قراءة الجماعة، ومنه ما هنا. وفي الوجه الثالث، معربة بغير تنوين، نحو:

* ومن قبل نادي كل مولى قرابة *

أي ومن قبل ذلك. وقرئ: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبلِ وَمِن بَعدِ﴾ بالجر دون تنوين، أي من قبل الغلب ومن بعده. وفي الوجه الرابع، معربة بالتنوين، ومنه:

فساغ لي الشراب وكنت قبلا أكاد أغصّ بالماء الزلال

وكقراءة بعضهم: (من قبل ومن بعد) بالجر والتنوين. هذا حاصله.

وقوله: «وبفتحها»الخ: هذا الوجه ضعيف. وقوله: «ورفعها ونصبها»الخ. الوجهان مرويان عن سيبويه.

قوله: «فقيل داوُود»،[أي أول من قال: أما بعد]، مع قوله: «وقال بعض المفسرين»الخ.

قال أبو العباس الهلالي: وفي هذا القول نظر. لأنه، أي سيدنا داوود، عجمي وهي عربية، إلا أن يراد أنه أول من نطق بمرادفها. ثم تفسير (فَصْلَ الخِطَابِ)[297] في الآية بها، ضعيف عند المحققين من المفسرين. هـ[298]

---

[296] [سورة الروم: الآية 4]
[297] [سورة ص: الآية 20]
[298] [شرح خطبة خليل: ص135]

[تسمية «أما بعد» فصل الخطاب]

قال البيضاوي: (وفصل الخطاب)، وفصل الخصام: بتمييز الحق عن الباطل، أو الكلام الملخص الذي ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس، يراعي فيه مظان الفصل والوصل، والعطف والاستئناف، والإضمار والإظهار، والحذف والتكرار ونحوها. وإنما سمي به (أمّا بعد) لأنه يفصل المقصود عما سبق مقدمة له، من الحمد والصلاة. وقيل هو الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل، ولا إشباع ممل، كما جاء في وصف كلام الرسول، عليه الصلاة والسلام: فصل لا نذر ولا هذر. هـ[299]، أي لا قليل ولا كثير.

فتلخص: أن (أمّا بعْد) عند البلغاء تسمى فصل الخطاب. ولذلك قال ابن الأثير في «المثل السائر»: (فمن ذلك) ما يقرب من التخلص، وهو فصل الخطاب، والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه أما بعد، لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شأن بذكر الله وتحميده. فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه، فصل بينه وبين ذكر الله تعالى، بقوله: أما بعد.هـ.[300] وأما في الآية، فقد علمتَ أن المحققين من المفسرين على خلافه.

قوله: «وفي غريب مالك»الخ. نقل هذا القول أيضا ابن حجر في «شرح البخاري».

[التخلص والاقتضاب]

قوله: «ونظير فصل الخطاب» الخ.

اعلم أن البلغاء أكدوا على المتكلم أن يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه: في الابتداء؛ فإن أتى بالتأنق المطلوب سموهُ براعة الاستهلال. وفي التخلص، أي الخروج مما افتتح به الكلام، من نسيب أو فخر أو شكاية، إلى المقصود. وهذا الخروج لا بد أن يكون بينه وبين الكلام السابق ملاءمة وتناسب، كقول أبي تمام:

يقول في قومس صحبي وقد أخذت ... منا السُرى وخطا المهرية القُــود

أمطلع الشمس تبغي أن تؤمَّ بنـــا ... فقلت كلا ولكن مطلـع الجـــود

[299] [أنوار التنزيل: ص437]

[300] [المثل السائر: 274].

فإن لم يكن في الخروج مناسبة وعلاقة، سمي اقتضابا؛ بأن يقطع المتكلم كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره، من مديح أو هجاء أو غير ذلك، وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين، وأما المحدثون فقد تصرفوا في التخلص وأحسنوا، وسموه حسن التخلص. ويقرب منه، أي من التخلص، (أمّا بعد)، الواقعة في كلام المؤلفين، لأنه قريب للتخلص، من جهة أنه يشوبه شيء من الملاءمة، لكونه لم يؤت بالكلام الآخر فجأة من غير قصد إلى ارتباط وتعليق بما قبله، بل أتى بلفظ أما بعد. وهو اقتضاب من جهة أنه انتقل من حمد الله والثناء على رسول الله، إلى كلام آخر من غير رعاية ملاءمة بينهما.

والحاصل أن (أما بعد) في كلام المؤلفين، هي اقتضاب يقرب من التخلص، وليس تخلصا محضا.

ومنه ما يكون بلفظ (هذا)، ثم إما مع عدم ذكر شيء معها، أي فتكون خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ والخبر محذوف، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾[301]، أي الأمر هذا، أو هذا كما ذكر.

وإما مع ذكر الخبر، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾[302].

هذا ما أفاده ابن الأثير، وصاحب «المطول»، وبه تعلم ما في كلام الشارح واعتراضه على المحشي.

قوله: «نعم؛ نطيره ما قال الشاعر» الخ. هذا الشاعر هو المعروف بالخباز البلدي من قصيدة أولها:

العيش غضّ والزمان غزيرُ

إلى أن قال:

نادت بي اللذات ويحك فانتهز ... فرص المُنى يـأيها المغـرورُ
مل بي إلى جور السقاة فإنني ... أهوى سقاة الكأس حين تجورُ
هـذا وكم لي بالجنينة سكرة ... أنا من بقايا شربها مخمورُ
بـاكرتها وغصونها مغروزة ... والماء بين مروزها مذعورُ
في ستة: أنا والنديم وقينة ... والكأس والمزمار والطنبورُ

(301) [سورة ص، الآية 54]
(302) [سورة ص، الآية: 49]

[ترجمة قس بن ساعدة الإيادي]

قوله: «ثم اعلم أن قسّ بن ساعدة»[303] الخ. أتى بهذه النبذة للكلام على هذا البليغ.
قوله: «الإيادي» الخ. بكسر الهمزة، نسبة لإياد، قبيلة من اليمن.

قوله: «ومنه الحديث: (يرحم الله قُسّاً إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده)».

أي لكونه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار. ومنه قوله ﷺ، في عمرو بن نفيل: «يبعثه الله أمة وحده»، لأنه كان قد فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الأصنام. وهذا أحد الأوجه التي فسر به قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾[304].

والحديث رواه اليعمري عن ابن عباس مرفوعا بلفظ: «رحم الله قُساً، إني أرجو أن يبعثه الله أمة وحده». وصرح العلماء بأن الرجاء من الله ومن نبيه واقع. وروى الطبراني في «كبيره» و«أوسطه»، بسند رجاله ثقات، عنه ﷺ: «رحم الله قسّا»، قيل: يا رسول الله، تترحم على قسّ!؟ قال: «نعم، إنه كان على دين أبي إسماعيل بن إبراهيم. هـ من «شرح المواهب».

وقوله: «قيل إنه عاش ستمائة سنة»الخ. الذي صدّر به الحافظ ابن حجر، والزرقاني في «شرح المواهب»، أنه عاش ثلاثمائة وثمانين سنة، وقيل عمّر سبعمائة سنة؛ أدرك من الحواريين سمعان. فهو أول من تألّه، أي تعبد من العرب، أي ترك عبادة الأصنام كما في «إنسان العيون».

قوله: «على جَمل أورق» الخ. أفعل من الورقة، لون يضرب إلى السواد، والجمع بينه وبين رواية «أحمر»، أنه كان شديد الحمرة، وشدة الحمرة تميل إلى السواد، كما قاله أهل السِّير.

[خطبة قس في سوق عكاظ]

قوله: «تكلم بكلام له حلاوة، لا أحفظه» الخ. وفي رواية، حسبما في «إنسان العيون»: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فإني أحفظه؛ كنتُ حاضراً ذلك اليوم بسوق عُكاظ، فقال في خطبته:

---

[303] قس: ترجم له ابن حجر في «الإصابة» فانظره في الجزء الثالث ورقة278 . هـ من خط المؤلف بالهامش.
[304] [سورة النحل، الآية: 120]

«يا أيها الناس اسمعوا وعُوا، وإذا وعيتم فانتفعوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت؛ مطرٌ ونبات، وأرزاقٌ وأقوات، وآباءٌ وأمّهات، وأحياءٌ وأموات، جمعٌ وأشتات، وآياتٌ بعد آيات. إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا؛ ليل داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج. مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فقامُوا؟ أم تركوا هناك فنامُوا؟. أقسم قسٌّ قسما حاتما، لا حنثا فيه ولا آثما ان الله دينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبياً قد حان حينه، وأطل زمانه». إلخ كلامه.[305] وفي طريق أخرى ما يفيد أن النبي ﷺ، كان يحفظ كلامه.

وقصة قُسّ، رُويت من طرق متعددة، قال الحافظ ابن كثير: هذه الطرق، على ضعفها، كالمتَعاضدة على أصل القصة.

وقال الحافظ ابن حجر: طرق هذا الحديث كلها ضعيفة. وبه يُرد قول ابن الجوزي، في «موضوعاته»: حديث قسٍّ بن ساعدة من جميع جهاته باطل. هـ بنقل «إنسان العيون». [1/212].

[من هم أهل الفترة، وهل يعذبون؟]

قوله: «ثم هو من أهل الفترة» الخ.

قال الشيخ الأكبر في «فتوحاته»، في مرتبة العالم الذي بين عيسى، عليه السلام، ومحمد ﷺ، وهم أهل الفترة؛ فمنهم من وحد الله لما تجلى لقلبه عند فكره، وهو صاحب الدليل، فهو نور من ربه ممتزج يكون من أجل فكره؛ فهذا يبعث أمة وحده، كقُس بن ساعدة وأمثاله، فإنه ذكر في خطبته ما يدل على ذلك؛ فإنه ذكر المخلوقات واعتباره فيها، وهذا هو الفكر. هـ.[306]

وأهل الفترة هم من كان بين رسولين، لم يرسل الأول لهم ولا أدركوا الثاني، كما في الآيات البينات.

والذي عليه الأشاعرة من أهل الأصول والكلام، أن أهل الفترة لا يعذبون، وأجابوا

[305] [إنسان العيون: 1/211]
[306] [الفتوحات المكية]

عن جماعة صحّ تعذيبهم، بأن أحاديثهم آحاد لا تعارض القاطع الذي هو: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)[307]، وبأنه يحتمل أن يكون لأمر مختص به يقتضي ذلك، علمَه الله ورسوله، نظير ما قيل في الحكم بكفر الغلام الذي قتله الخضر، عليه السلام، مع صباه، وبأن ذلك خاص بمن بدل وغير بما لا يعذر به، كعبادة الأوثان. ولناظم «جمع الجوامع»:

ذو فترة بالفرع لا يـــراعُ ... وفي الأصول بينهم نـــزاعُ

وانظر الزرقاني على»المواهب»، في الجزء الأول، في باب وفاة أمه، عليه السلام، وما يتعلق بأبويه.

[مواصلة الكلام على أول من قال: (أما بعد)]

قوله: «وهاهنا قولان»الخ. فتحصل أن مجموع ما ذكره الشارح في أول من قال (أما بعد) ستة أقوال. وبقي عليه سابع، وهو أيوب، ونظمها أحمد القرافي فقال:

جرى الخلق (أما بعد) من كان بادئا ... بها سبع أقوال وداوُد أقـــرب

لفصل الخطاب ثم يعقوب منهم ... فسحبان أيوب فكعب فيعـــرب

قوله: «فقيل كعب بن لؤي»الخ. المراد بكعب هذا، أحد أجداد النبي، عليه السلام، فكان يقول:

«أما بعد. فاسمعوا وافهموا، وتعلموا واعلموا. ليل داج، ونهار صاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين. فصلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وتمرُوا أموالكم. الدار أمامكم، والظن غيرَ ما تقولون».

وقيل له كعب لعلوه وارتفاعه، لأن كل شيء علا وارتفع فهو كعب. انظر «السيرة»[إنسان العيون: 17/1].

قوله: «وقيل سحبان»، إلى قوله: «هذا القول غير صحيح» الخ. قال بعضهم:

(307) [سورة الإسراء، الآية: 15]

المراد: سحبان وائل -بالإضافة- الذي كانٍ في الجاهلية، لا سحبان بن وائل الذي كان في زمن معاوية، خلاف ما وقع في (الحطاب) وغيره من شروح «المختصر». قاله التلمساني في «حاشية الشفاء». هـ بنقل بعض حواشي «الجمل»، والله أعلم.

وفي «مجمع الأمثال» للميداني: أخطب من سحبان وائل. و هو رجل من باهلة، وكان من خطبائها وشعرائها، وهو الذي يقول:

لقد علم الحي اليمانون أنني إذا قلت (أما بعد) انّي خطيبها

وهو الذي قال لطلحة الطلحات الخزاعي:

يا طلح أكرم من بها حسبا وأعطاهم لتالد

منك العطاء فاعطني وعلى مدحك في المشاهد

فقال له طلحة: احْتكم! فقال: برذُونك الأشهب الورد، وغلامك الخباز، وقصرك بزَرنْج، (كسَمند: قصبةَ بسجستان)، وعشرة آلاف. فقال له طلحة: أفّ! لم تسألني على قدري، وإنما سألتني على قدرك وقدر باهلة! ولو سألتني كل قَصري، وعبد ودابة، لأعطيتك. ثم أمر له بما سأل ولم يزده عليه شيئا، وقال: تالله ما رأيت مسألةً محكم ألْأم من هذا!.[308]

[(أما بعد) في كلام الصحابة]

قوله: «لأني ما أظن أن الصحابة، رضي الله عنهم، كانوا يتركونها» الخ. لم يقف الشارح على كلام صحابي فيه (أما بعد)، فلهذا أتى بصيغة لا تفيد الجزم.

ولا معنى لعدم الجزم، لوجود ذلك في كلام الصحابة، رضي الله عنهم، وفي خطبهم كثيراً، ومنه ما في خبر السقيفة عن ابن عباس، في كلام طويل، قال:

«فأتينا الأنصار، وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة، وبين أظهرهم رجل مزمل؛ فقلت: من هذا؟ قال: سعد بن عبادة وجعٌ. فقام رجل منهم بحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد؛ فنحن الأنصار»، الخ.

[308] [مجمع الأمثال، لأحمد النيسابوري الميداني: 1/167]

وفي قضية استخلاف سيدنا أبي بكر لسيدنا عمر، لما حضرته الوفاة، وذلك أن طلحة بن عبيد الله دخل عليه فقال: استخلفت على الناس عمر! وقد رأيتَ ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف إذا خلا بهم، وأنت لاق ربك فيسألك عن رعيتك؟!

فقال أبو بكر: أجلسوني. فأجلسوه، فقال: أبالله تخوفُوني!؟ إذا لقيتُ ربي فسألني قلتُ: استخلفتُ على أهلك خير أهلك.

ثم إن أبا بكر أحضر عثمان ابن عفان حاليا ليكتب عهد عمر، فقال له اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين؛ أما بعد.»

ثم أغمي عليه. فكتب عثمان: «أما بعد. فإني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيراً» الخ.

وفي صحيح مسلم، في كتاب اللباس، عن قتادة قال: سمعت أبا عثمان النهدي، قال: جاءنا كتاب عمر، ونحن بأذربيجان مع عتبة بن فرقد، أو بالشام:

«أما بعد. فإن رسول الله ﷺ، نهى عن الحرير، إلا هكذا أصبعين. قال أبو عثمان: فما عتمنا أنه يعني الأعلام.»[309]

وفي صحيح مسلم أيضا، في كتاب الزهد، عن خالد بن عمير العدوي، قال: خطبنا عتبة بن غزوان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد. فإن الدنيا قد آذنت بصرم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء»، الحديث. إلى غير هذا.

قوله: (أشرق الله) الخ. شرقت الشمس إشراقا: أضاءت وانبسطت على الأرض. وقيل: شرقت وأشرقت كلاهما طلعت، وكلاهما صحيح. وفي حديث ابن عباس: «نهى عن الصلاة بعد الصبح حين تشرق الشمس»؛ فإن أراد الطلوع، فقد جاء في الحديث الآخر: «حين تطلع الشمس»، وإن أراد الإضاءة، فقد ورد في حديث آخر: «حتى ترتفع الشمس». والإضاءة مع الارتفاع. هـ. شارح القاموس.[6/ 393].

وقد استعمل أشرق هنا القاضي متعدية، وهو من كلام المولدين، قال شارح «القاموس» عن شيخه: وجوز بعضهم تعدي أشرق كقوله:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهـــا   شمس الضُحى وأبو إسحاق والقمرُ

[309] [صحيح مسلم: 2/208]

ولا حجة فيه؛ لاحتمال فاعلية الدنيا، ولذا قيل إن تعديته من كلام المولدين، وإن حكاه صاحب «الكشاف»، فإن الشائع المعروف استعماله لازما، كما حققته في «تخليص التلخيص لشواهد التلخيص». وأشار إلى بعضه أرباب الحواشي السعدية.هـ[310]

وفي «نسيم الرياض» هنا: وقد استعمل، أي أشرق، متعديا في كلام المولدين، كما هنا، فيكون إما حملا له على أضاء، لأنه بمعناه، والشيء يحمل على نظيره وضده، وأضاء جاء متعديا ولازما، كما صرحوا به، أو هو متضمن معناه أو معنى التصيير، أي صير الله قلوبنا مشرقة، كما قيل به في قوله: ثلاثة تشرق الخ.هـ[311].

قوله: (قلبي وقلبك) الخ. بدأ في الدعاء بنفسه، كما في القرآن: (رَبِّ اغْفِرْ لي وَلِوَالِدَيّ)[312]. وفي حديث رواه الترمذي: كان رسول الله ﷺ، إذا ذكر أحداً ودعا له؛ بدأ بنفسه.

قوله: (بأنوار) الخ. جمع نور، وهو كالضياء، إلا أن بينهما فرقا، ولذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾[313]. وقال الزمخشري: الضياء أشد من النور، وشاهده الآية.

وقيل: الضياء: ذاتي، والنور عرضيّ، كما حققه الفناري في «حواشي التلويح».[314]

وفي «البصائر» لصاحب «القاموس»: النور: الضياء والسناء الذي يُعين على الإبصار؛ وذلك ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي ضربان:

معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأنوار الإلهية، كنور العقل، ونور القرآن.

ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين والنجوم النيرات؛ فمن النور الإلهي قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾[315]، وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[316]. ومن النور المحسوس نحو

---

(310) [تاج العروس: 6 /393]

(311) [نسيم الرياض: 1 /30]

(312) [نوح: الآية 30]

(313) [يونس: الآية 5]

(314) - وفي كلام محيي الدين ابن عربي: والنور حجاب. قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في حق الحق تعالى: «حجابك النور». وقال:» نور إني أراه». والضياء ليس بحجاب: فالضياء أثر النور وهو الظل. ثم قال بعد هذا: فالضياء روح النور، والضياء للنور ذاتي.هـ من خط المؤلف بالهامش.

(315) [المائدة: الآية 17]

(316) [النور: الآية 35]

قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً)[317]، وتخصيص الشمس بالضوء والقمر بالنور من حيث إن الضوء أخص من النور. ومما هو عام فيهما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[318]، ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.[319]

ومن النور الأخروي، قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[320]. قاله شارح «القاموس».

وقال الشهاب: ثم إن النور لما كان ظاهراً بنفسه، مظهراً لغيره؛ شاع إطلاقه على ما ضاهاه؛ كالرسل والعلم والعقل، فنور اليقين إما من قبيل لجين الماء، أي اليقين الذي هو كالنور في قوة الظهور. وقيل المراد الأدلة المبينة له استعارة، أو العقل، أي ورزقنا الله عقلا سليما نهتدي به إلى سبيل الرشاد، وشرح مشكاة صدورنا لتعلم علوما نافعة ساطعة البرهان. ودعا بذلك لأن ما سأله يتوقف عليه.

وقيل المراد بنور اليقين: العلم اللدني، وهو معرفة الذات والصفات بمشاهدة كشفية، لا بمجرد أدلة عقلية ونقلية، ومنه علم الخضر، عليه الصلاة والسلام، وهذه مرتبة فوق مرتبة الإيمان بالغيب، ولا يخفى بُعده.هـ[321]

[معنى اليقين
ومراتبه في اصطلاح الصوفية]

قوله: (بأنوار اليقين) الخ. كأنه يشير إلى أن إضافة أنوار إلى اليقين بيانية، أي الأنوار التي هي اليقين، وجمعت باعتبار أنواعها من علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

وهذه الثلاثة عبارة عن علوم جلية، كما في «الرسالة»؛ فاليقين هو العلم الذي لا يتداخل صاحبه ريب على مطلق العُرف، ولا يطلق في وصف الحق سبحانه لعدم التوقيف. فعلم اليقين هو اليقين، وكذلك عين اليقين نفس اليقين، وحق اليقين نفس اليقين. فعلم اليقين، على موجب اصطلاحهم، ما كان بشرط البرهان. وعين اليقين ما

---

(317) [يونس: الآيــة 5]
(318) [الأنعام: الآية 1]
(319) [الزمر: الآية 66] (320) [الحديد: الآية 12]
(321) [نسيم الرياض: 1 /31]

كان بحكم البيان.[322] وحق اليقين ما كان بنعت العيان. فعلم اليقين لأرباب العقول، وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف.[323]

ثم إن هذه المراتب تتفاوت بناء على أن اليقين مقول على أفراده بالتشكيك. والثلاثة مذكورة في القرآن، قال تعالى: (لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)[324]، وقال: (لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)[325]، وقال: (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)[326]. قاله زكريا.

وفي «الفتوحات» للشيخ الأكبر: «اعلم، أيدنا الله وإياك بروح منه، انا قد علمنا علما يقينا لا تدخله شبهة، أن في العالم بيتا يسمى الكعبة، ببلدة تسمى مكة، لا يتمكن لأحد الجهل بهذا، ولا أن يدخله شبهة، ولا يقدح في دليله دخل. فاستقر العلم بذلك، فأضيف إلى اليقين، الذي هو الاستقرار، أن الله بيتا يسمى الكعبة، بقرية تسمى مكة، تحج الناس إليه في كل سنة، ويطوفون به. ثم شوهد هذا البيت عند الوصول إليه بالعين المحسوسة؛ فاستقر عند النفس بطريق العين كيفيته وهيئته وحاله، فكان ذلك عين اليقين الذي كان قبل شهود علم اليقين، وحصل في النفس برؤيته ما لم يكن عندها قبل رؤيته ذوقا. ثم فتح الله عين بصيرته في كون ذلك البيت مضافا إلى الله، مضافا به، مقصودا دون غيره من البيوت المضافة إلى الله؛ فعلم علة ذلك وسببه بإعلام الله، لا بنظره واجتهاده؛ فكان علمه بذلك حقا يقيناً مقرراً عنده لا يتزلزل»[327]. وانظر تمامه.

قوله: «واعلم»، إلى قوله: «إيراد الفاء.الخ. هذا معلوم من قول ابن مالك:

أمّا كمَهْما يك من شيء وفـــا   لِتلْو تلْوها وُجوبـًا أُلفـــا

قوله: «بل بعد» الخ. يعني أنهم يأتون بالفاء بعد «أما بعد» الخ. وهذا ظاهر، بل يأتون بها بعد؛ «بعد»، مجردة عن أما، وهذا الإتيان: إما لتقدير أما في نظم الكلام، والواو عوض عنها، أو دون تعويض، وإما على توهم الناظر في الكلام البليغ وجودا، إما لأن الشيء إذا كثر الإتيان به وترك توهم وجوده؛ وقد كثر في أما مصاحبتها بعد، فإذا تركت توهم وجُودها، وهذا الكلام واقع في جواب. واعترض الرضى ذلك بأن حذف «أما» في مثل هذا غير مطرد، وإنما يطرد حذفها مع تقديرها،

[322] ـ قوله: بحكم البيان: أي بطريق الكشف والنوال.هـ زكريا. من خط المؤلف بالهامش.
[323] [رسالة القشيري: 47]
[324] [التكاثر: الآية 5]
[325] [التكاثر: الآية 7]
[326] [الواقعة:الآية 98]
[327] [الفتوحات المكية لابن عربي الحاتمي: 2/ 570].

إذا كان ما بعد الفاء أمراً، نحو: (وربّكَ فكبّرْ، وثيابكَ فطَهّرْ، وَالرّجْزَ فَاهْجُرْ)[328]. أو نهياً نحو: (فَأمّا الْيَتيمَ فَلاَ تَقْهَرْ)[329]. قال العصام: فالوجه الوجيه هنا للفاء أنها لإجراء الظرف مجرى الشرط. هـ. من شرح خطبة اللقاني ملخصا.

قوله: «وقد قال سيبويه: إن معنى» الخ. تقدم كلام ابن مالك في هذا المعنى. وقال السعد: أصل (أما بعد): مهما يكن من شيء بعد الحمد والصلاة، فوقعت أما موقع اسم المبتدا لأن مهما مبتدا، والإسمية لازمة للمبتدا، ويكن شرط، والفاء لازمة له غالبا، فحين تضمنت أما معنى الابتداء والشرط [لزمتها] الفاء ولصوق الإسم إقامة للازم مقام الملزوم، وإبقاء لأثره في الجملة.هـ[330]

قوله: (ولطف لي) الخ. لطف، كقعد، من اللطف وهو الرفق والرأفة، وهو من صفات الله. قال الغزالي في «المقصد الأسنى»:

اللطيف هو من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وبأدق منها وبألطف، فيسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل، واللطف في العلم؛ تمّ معنى اللطف. ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا الله تعالى.[331]

قوله: «جمعا بين اللغتين»الخ. اعلم أن المشهور في لطف تعديته بالباء كقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[332]، وجاء باللام في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾[333]، لما فيه من معنى الترفيق والتيسير، أو تضمين لهذا، أو لمعنى الإيصال كما ذهب إليه صاحب «العمدة» والراغب.

وذهب صاحب «المجمل» إلى أنه حقيقة. وفي «النهاية»: يقال لطف به وله إذا رفق، وإليه أشار من قال: هو اجتماع الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح، وإيصالها لمن قدرت له. قاله الشهاب[في نسيم الرياض:1/32].

والمصنف جمع بين حرفي التعدية في نسخة: بما لطف به لأوليائه المتقين، وهو إنما يتعدى بأحدهما؛ إما بتقدير متعلق لأحدهما، أو بجعل الباء سببية لا معدية. وفي نسخة: بما لطف به بعباده، بالباء فيهما وهو مما مرّ.

(328) [المدثر: الآيات: 3-4 -5]
(329) [الضحى: الآية 9]
(330) [مختصر السعد: 48/1]
(331) [المقصد الأسنى:ص 53]
(332) [الشورى: الآية 17]
(333) [سورة يوسف: الآية 100]

[تعريف الولي وتحديد صفاته وشروطه]

قوله: (لأوليائه) الخ. هو جمع ولي، فعيل بمعنى فاعل، لأنه موال الله. أو بمعنى مفعول، لأنه تعالى تولى أمره.

وله معنى عام؛ وهو كل مسلم منقاد الله. وخاص؛ وهو العارف بالله وصفاته، المواظب على طاعته، المجتنب للمعاصي المعرض عن اللذات والشهوات، المستغرق في شهود الذات، المتحلي بكل خلق محمود، وله مراتب، إلا انه لا يشترط أن يكون له كرامة. نعم؛ اشترطوا فيه شروطا، منها:

○ معرفته أصول الدين، بحيث يفرق بين الخالق والمخلوق، وبين النبي والمتنبي.

○ ثانيها: علمه أحكام الشريعة، نقلاً وفهما، بحيث يكتفي بنظره عن التقليد فيها، كما اكتفى به في أصول التوحيد، فلو أفنى الله، سبحانه وتعالى، علماء أهل الأرض لوجد عنده ما كان عندهم، ولأقام قواعد الإسلام جميعا. إذ لا يفهم من تولى الله سبحانه وتعالى إلا الناصر لدينه، سبحانه وتعالى، وهذا ممتنع ممن لم يحط علما بقواعد الدين وأصوله وفروعه.

○ وثالثها» تخلقه بالخلق المحمود شرعا وعقلا؛ فالأول: بالورع عن المحرمات، وامتثال جميع المأمورات. والثاني: ما يثمره العلم بأصول الدين؛ فإذا علم حدوث العالم بأسره، فلا يعلق قلبه بشيء منه، لعلمه أنه في قبضة الله سبحانه وتعالى.

وإذا علم وحدانية الله، سبحانه وتعالى، أخلص عمله كله الله، سبحانه وتعالى، إذ الربوبية لا تحتمل الشركة في شيء.

وإذا علم سبق القدر بكل كائن، فلا يخاف فوت شيء مما قدر، ولا يرجو نيل شيء لم يقدر.

وهذا هو الرضى، ويثمر: الرفق بالخلق، والصفح عنهم في إذايته، لعلمه أنهم لا يستطيعون لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، جلب نفع، ولا دفع ضر.

- ورابعها: ملازمة الخوف، وعدم طمأنينته طرفة عين، إذ لم يدر هل سبقت سعادته أو ضدها. قاله عليش في «حاشيته الكبرى»، عن اليوسي. وهناك أبحاث تتعلق بالولي، فلينظرها من أرادها.

قوله: «وهو على ما في المجمل» الخ. حاصل ما نقله في معنى اللطف ثلاثة معان،

المعنى الأول: مركب من الرفق والرأفة. والثاني: من التوفيق والعصمة. والثالث: الهداية.

وهذه الجملة كالتي قبلها خبرية لفظا، إنشائية معنى، والمقصود الدعاء بأن يوفقه الله، كما وفق أولياءه المتقين، الذين وصفهم بما يأتي.

واعلم أن التوفيق عند أهل السنة: توجه الإعانة من الله لعبده بهدايته، أي إرشاده لما يوافق أمره التكليفي، بخلق القدرة على ما يريده منه، مع ما يريد منه في محل العبد؛ والهداية نتيجة التوفيق. قاله الشيخ زروق.

[التقوى ومراتبها]

قوله: «ثم التقوى» الخ. التقوى: التحرز بطاعة الله عن عقوبته، يقال: اتقى فلان بترسه. وأصل التقوى اتقاء الشرك، ثم بعده اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعده اتقاء الشبهات، ثم تدع بعده الفضلات. قاله القشيري[في الرسالة: ص56].

وفي «تفسير» البيضاوي، عند قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[334]. المتقي اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى. والوقاية فرط الصيانة، وهو في عرف الشرع اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة. وله ثلاثة مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد، بالتبري من الشرك، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[335].

والثانية: التجنب من كل ما يؤثم من فعل أو ترك، حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف عليه باسم التقوى في الشرع، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾[336].

والثالثة: أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق، ويتبتل إليه بشراشره[337]، وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[338].هـ[339]

(334) [البقرة: الآية 1]
(335) [الفتح: الآية 26]
(336) [الأعراف: الآية 95]
(337) قوله: بشراشره، أي نفسه وجسمه، الواحدة: شرشرة. هـ من طرة للمؤلف بالهامش.
(338) [آل عمران، الآية: 102]
(339) [أنوار التنزيل: ص 6]

والمرتبة الأولى تقْوى العوام. والثانية تقوى الخواص. والثالثة تقوى أخص الخواص. قاله زادة.[340]

وقال ابن جزي: ودرجاتها - أي التقوى - خمس:

- أن يتقي العبد الكفر، وذلك مقام الإسلام.
- وأن يتقي المعاصي، وذلك مقام التوبة.
- وأن يتقي الشبهات، وذلك مقام الورع.
- وأن يتقي المباح، وذلك مقام الزهد.
- وأن يتقي خطور غير الله في قلبه، وهو مقام المراقبة.هـ.

ولعل المراد بخطور غير الله؛ اشتغال قلبه بغير الله، لا مجرد الخطور بلا اشتغال به. قاله الهلالي.

الذين شرفهم بنزل قدسه، وأوحشهم من الخليقة بأنسه، وخصّهم من معرفته ومشاهدة عجائب ملكوته وآثار قدرته.. (يتبع)

قوله: (بنزل قدسه) الخ. النزل في الأصل: الفضل والريع في الطعام، يقال: طعام كثير النزل، فاستعير للحاصل من الشيء. وهو أيضا ما يهيأ للضيف إذا نزل، ثم قيل لمطلق الزاد والكرامة، وهذا هو المراد هنا. ويكون بمعنى المنزل والمسكن، كما أفاده الشهاب.[341]

ثم قال: كالنزل. أي بضم فسكون. قوله: «إلا أن السكون في الثاني أقل، وفي الأول أكثر» الخ. انظر هذه العبارة لعلها معكوسة؛ فإن في «القاموس»: (والنزل بضمتين المنزل). ثم ساق له معاني أخر. ثم قال في الثاني: القدس، بالضم وبضمتين: الطهر، إسم مصدر الخ.

نعم؛ في كلام ابن الأثير، حسبما نقله عنه شارح «القاموس» في شرح حديث: «اللهم إني أسألك نزل الشهداء»: النزل في الأصل قرى الضيف ويضم زايه.هـ[342] ففيه إشعار بأن الأصل هو الضم والسكون.

وعلى كل حال فكلام المصنف لا يساعد ما في «القاموس»، ولا ما في الشهاب، لأنه سوى بينهما، وجعل الأصل فيهما الضم والسكون للتخفيف.

---

[340] [حاشية الشيخ زاده: 1/ 77].
[341] [نسيم الرياض: 1/ 32]
[342] [تاج العروس: 8/ 133]

قوله: «وقيل النزل: المنزل، وبه فسر». الخ. أي وبمعنى المنزل فسر النزل في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً)[343]. ثم الأكثر هو تفسير النزل في الآية بمعنى ما يهيّأ للنازل، على معنى كانت لهم في علم الله ثمار جنّات الفردوس ونعيمها نزل.

والفردوس قيل أوسط الجنة، وقيل أعلاها؛ ففي «تفسير» الخازن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة». قال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس؛ فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. هـ[344]

قوله: «وقد جزم المحشي بأنه مراد» الخ. أي جزم بأن النزل بمعنى المنزل هو مراد المصنف، وما للمحشي جوزه الشهاب في كلام المصنف، وجزم أولا بأنه بمعنى الزاد والكرامة، كما تقدم.

قوله: «والظاهر لا مانع من الجمع» الخ. لعله أراد أن يكون معنى النزل هو المنزل المقيد بوجود القرى فيه، وهذا لا يساعد عليه كلام «القاموس»، لأن صاحب «القاموس» ذكر للنزل معاني من جملتها ما يقدم للضيف، والمنزل حسبما يعلم ذلك من كلامه، والذي يظهر من كلامه أنه أراد أن يجعل من قبيل حمل المشترك على معنييه.

والمسألة وقع فيها خلاف بين أهل الأصول على ثلاثة أقوال: الأول: وجوب حمله على معنييه أو معانيه، وأنه من باب العموم، وهي المحكي عن الشافعي. الثاني: للقاضي، حمله على ذلك من باب الاحتياط، لاحتوائه على مراد المتكلم. الثالث: منع الحمل. أنظر «شراح جمع الجوامع».

[معنى المقام والمعرفة عند الصوفية]

قوله: «مقامات العارفين» الخ. المقام عند الصوفية ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب، مما يتوصل إليه بنوع تصرف وبتحقق به بضرب تطلب، ومقاسات تكلف. فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له، وشرطه

[343] [سورة الكهف: الآية 102]

[344] [لباب التأويل في معاني التنزيل: 3 /213]

أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر، ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد. قاله القشيري[في الرسالة: ص34].

وقوله: «العارفين» الخ. قال الأستاذ: المعرفة على لسان العلماء، هو العلم. فكل علم معرفة، وكل معرفة علم، وكل عالم بالله تعالى عارف، وكل عارف عالم. وعند هؤلاء القوم: المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله تعالى في معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه، فحظي من الله تعالى بجميل إقباله، وصدق الله تعالى في جميع أحواله، وانقطع عنه هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره. فإذا صار من الخلق أجنبيا، ومن آفات نفسه بريا، ومن المساكنات والملاحظات نقيا، ودام في السر مع الله تعالى مناجاته، وحن في كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره، فيما يجريه من تصاريف أقداره؛ يسمى عند ذلك عارفا، وتسمى حالته معرفة. وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه.[345]

قوله: «الكَدُورَات»الخ: جمعُ كدورة، مصدر كدر الماء إذا كان متغيرا. ومن المجاز: كدر عيشه وتكدر. والمراد بالكادورات الدنيوية: الأغيار التي تعتري الإنسان فيها، إذ هي دار تعب ونصب؛ فمن رام الراحة فيها رام المحال، ولهذا قال القائل:

تطلب الراحة في دار الفنا خاب من يطلب شيئا لا يكون

والله در العارف بالله، سيدي ابن عطاء الله، إذ يقول: لا تستغرب وقوع الأكدار، ما دُمت في هذه الدار؛ فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها، وواجب نعتها. هـ. وقال الحريري:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدا، بعدا لها من دار

[345] [الرسالة القشيرية: 153]

[حاصل ما ذكره الشارح في قول المصنف: (بنزل قدسه)]

قوله: «ثم قال: ويجوز»الخ. حاصل ما ذكره الشارح في قوله: (بنزل قدسه) أن النزل ما يهيأ للضيف من الكرامة أو المنزل، وبه جزم المحشي في المصنف. وقد استظهر الشارح أنه لا مانع من إرادتهما معا، فيكون من باب حمل المشترك على معنييه كما سلف.

ثم قال: إن المعني بالنزل الحال المقدس عن الدّنس. والحال عند القوم معنى يَرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن، أو بسط أو قبض، أو شوق أو انزعاج، أو هيبة أو احتياج. فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب. ثم أيده، [بما] بنسخة: بنور قدسه. ثم ذكر عن الدلجي تجويز إرادة ما يهيأ لهم من الطعام إذا دخلوها، الخ.[346] ومع هذا كله لم يفسر لفظ قدس.

وفي «شرح» الشهاب: والقدس: بضمتين ويخفف ثانيه؛ مصدر بمعنى الطهر. واسم جبل القدْس لطهارته بالعبادة فيه. والقدُّوس من أسماء الله تعالى، بمعنى المنزّه عما لا يليق به. والمبارك. وقدس أالله، وحظيرة قدسه الجنة. وهو المراد، أي شرفهم بإكرامه لهم في جنته، أو بإسكانه إياهم فيها، أو بكرامة تطهيره إياهم، أو بجعل الطهارة نزلا على الإضافة البيانية. والحاصل انه خصهم بتشريفه وعلو منازلهم، وتطهيره لهم عن النقائص.[347]

قوله: «الوارد فيه: نزل أهل الجنة زيادة كبد الخ». أخرج مسلم عن ثوبان، أن حبراً من اليهود سأل رسول الله ﷺ، أين يكون الناس (يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيْرَ الأرْض)[348]، فقال رسول الله ﷺ : «هم في الظلمة دون الجسْر». قال: فمن أول الناس إجازَةَ على الصراط؟ قال: «فقراء المهاجرين». قال: فما تحفتهم حين يدْخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد الحوت». قال: فما غذاؤهم على اثر ذلك؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليهم؟ قال: «من عين تسمى سلسبيلا». قال: صدقت.هـ. وقوله زيادة كبد الحوت، هي قطعة معلقة بها، وجمعها زيايد. ومن سجعات «الأساس»: الولد كبد ذي الولد، وولد الولد زيادة الكبد.هـ.

(346) [انظر الشرح: 1 /10]
(347) [نسيم الرياض للخفاجي: 1 /33]
(348) [إبراهيم، الآية: 50]

قوله: «وأما ما هو» الخ. أي النزل في قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً)[349]. وقوله: فحال من ضمير تدعون، أي الضمير المحذوف الرابط بين الصلة والموصول لأن العائد متصل وناصبه فعل، أي ما تدعونه، أو حال من الموصول الذي هو ما، ومعنى تدعون، أي تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب. قاله البيضاوي.[350]

وقوله: «تلويحا» أي إشارة وإشعارا». والحاصل أن المراد بالنزل: الرزق المعد النازل، وهو الضيف، كأنه قيل: ولكم فيها الذي تدعونه حال كونه كالنزل للضيف، وإكرامهم فيها بما لا يخطر ببالهم، فضلا عن أن يشتهوه أو يتمنوه، وكأن العبارة مأخوذة من قول القاضي البيضاوي:

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[351]، حال من (ما تدّعُونَ)، للإشعار بأن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطوَن، بما لا يخطر ببالهم كالنزل للضيف.[352]

قوله: «من الوحشة»: يعني أن أوحش ماض مأخوذ من الوحشة، أي صيرهم في وحشة ونفرة عما لا يلائم، ومنه الوحش، والأنس ضده، وهو التقرب مع الانبساط لما يهوى هـ.

وقوله: «الخليقة»: أي الخلق والناس، ويكون بمعنى آخر، والمراد هنا ما تقدم.

قوله: «لأن الإنسان تأنس بالناس» الخ. هذا من كلام الشبلي. وروى القشيري عن شيخه الدقاق أنه سمع الشبلي يقول: الإفلاس الإفلاس يا ناس! فقيل له: يا أبا بكر ما علامة الإفلاس؟ قال: من علامة الإفلاس الاستئناس بالناس.[353]

[معنى الأنس من كلام الغزالي]

وقد تكلم الناس في معنى الأنس وعلامته، واختلفت فيه عباراتهم، قال الشيخ [illegible] استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال، حتى إنه إذا غلب وتجرد [illegible] وما يتطرق إليه من خطر الزوال، عظم نعيمه ولذته. ومن [illegible] قيل له: أنت مشتاق؟ فقال: لا. إنما الشوق إلى غائب، فإذا

كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق؟! وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف. ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، كما حكي أن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل، فقيل له: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله. وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب، كما روي أن موسى، عليه السلام، لما كلمه ربه، مكث دهراً لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان.هـ[354]

وعبارة المصنف، رحمه الله، نظير قول بعض الحكماء في مناجاته: يا من آنسني بذكره، وأوحشني من خلقه. وقال الله عز وجل لداود، عليه السلام: كن لي مشتاقا وبي مستأنسا، ومن سواي مستوحشا.

وقيل لرابعة: بم نلت هذه المنزلة؟ قالت: بتركي مالا يعنيني، وأنسي بمن لم يزل.

وأما علامة الأنس بالله، فعلامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الناس والتبرم بهم، واستهتاره بعذوبة الذكر. فإن خالط، فهو كمنفرد في جماعة، ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر، وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، مخالط بالبدن، منفرد بالقلب، مستغرق بعذوبة الذكر، كما قال علي، كرم الله وجهه، في وصفهم:

«هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى؛ أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه»هـ وهذه الجملة؛ هي بيان قول الشارح: «فيكونون كائنين بائنين»الخ

وذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب [illegible] التشبيه، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من [illegible] معرفتها أغلب على ذوي القلوب؛ ومنهم أحمد بن غالب [illegible] على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة، حديث الحب والشوق والعشق، حتى أنكر بعضهم مقام الرضى وقال: ليس إلا الصبر. فأما الرضى [illegible]

(354) [إحياء علوم الدين: 4/ 243]
(355) [إحياء علوم الدين: 4/ 244]

وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور؛ فظن أنه لا وجود إلا للقشر، فإن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب، فمن لم يصل من الجوز إلى قشرة يظن أن الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة، وهو معذور، ولكن عذره غير مقبول، وقد قيل:

الأنس بالله لا يحويه بطّـــالُ ... وليس يدركه بالحول محتـــالُ
والآنسون رجال كلهم نجـــب ... وكلهم صفوةٌ لله عُمّـــالُ

[هـ].[356]

[شرط الوصول إلى معرفة الله]

قوله: «ولا يمكن دفع العوائق»: أي ما يعوق إلى الوصول إلى معرفة الله، إلا بقطع العوائق مع الخلائق.

قوله: «على مراعاة الشريعة»الخ؛ أي معرفة السلوك إلى الله تعالى. وقوله: «والطريقة»، أي العمل بمقتضاها. وقوله: «والحقيقة»، أي دوام النظر إليه سبحانه.

فهذه ثلاثة ألفاظ، ولكل واحدة منها معنى، كما قاله أهل هذا الفن. وبعضهم لم يفرق بين الشريعة والطريقة.

واعلم أن الشريعة ظاهر الحقيقة، والحقيقة باطن الشريعة، وهما متلازمان.

قوله: «فيكونون كائنين»، أي موجودين بين الناس بأبدانهم «بائنين»، أي مفصولين وبعيدين عنهم بأرواحهم. سئل يحيى بن معاذ الرازي عن العارف فقال: رجل كائن بائن. ومرة قال: كان فبان.هـ. وهذا معنى ما بعده.

قوله: «من أجل معرفته» الخ. أشار به إلى حمل (منْ) على التعليل، وأيد هذا الحمل بنسخة الباء[357]. وجوز الشهاب فيها وجهين:

---

(356) [إحياء علوم الدين: 4 /244]

(357) [أي وفي نسخة: (بمعرفته)، انظر الشرح: 1 /10]أ م

الأول: كونها بيانية، مبينة لما الآتية، إن قلنا بجواز تقديم البيان على المبين، كما ذهب إليه بعض النحاة. أو بيان لأمر مقدر على مذهب المانع، والآتي تفصيل لما أبهم وأجمل في ذلك المقدر.

الثاني: أنها ابتدائية، أي أن الله خصّ أولياءه بما سرهم وولههم، لأنهم لما عرفوه نظروا في عجائب مصنوعاته، فنشأ لهم ما يملأهم نضرة وسروراً[358]. وقد تقدم الكلام على تفسير المعرفة عند الصوفية.

والمعرفة عند المتكلمين؛ أن تعرف الله تعالى بصفاته التي نصب عليها الأدلة والآيات.

وأما معرفة الكنه؛ فقال السبكي: حقيقته مخالفة لسائر الحقائق ليست معلومة الآن، واختلف هل يمكن علمها في الآخرة.هـ

وقال في «المباحث»: حقيقة واجب الوجود وما يجب من صفات الكمال، ونعوت الجلال، غير ممكنة الحصول لنفوسنا. زاد الآمدي: ولقوله تعالى: (وَلاَ يُحيطونَ بِهِ علْماً)[359]، وعزى الآمدي استحالة ذلك لإمام الحرمين والغزالي والحكماءَ.هـ. قلتُ: وبه أدين الله تعالى وألقاه، وهو الذي لا أفهم غيره.

وفي «شرح المقاصد»: قال الشيخ أبو منصور: إن سألنا سائل عن الله ما هو؟ قلنا: إن أراد ما اسمه؟ فالله الرحمن الرحيم. وإن أراد ما صفته؟ فسميع بصير. وإن أراد ما فعله؟ فخلق المخلوقات، ووضع كل شيء موضعه. وإن أراد كنهه؟ فهو متعال عن المثال والجنس.هـ. وأنشد العطار:

الله أعظم قدراً أن يحيط بـــه علم وعقل ورأي، جلَ سلطانـــا[360]

وفي «الرسالة القشيرية»: قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[361]، جاء في «التفسير»: وما عرفوه حق معرفته. هـ ذكره في باب المعرفة.[362]

وقال الدواني في «شرح العقائد»: وأما معرفة الله بالكنه فغير واقعة عند المحققين. ومنهم من قال بامتناعها كحجة الإسلام، وإمام الحرمين، والصوفية والفلاسفة، ولم أطلع على دليل منهم على ذلك سوى ما قال أرسطو في «عيون

(358) [نسيم الرياض: 1 /33]

(359) [طه، الآية: 107]

(360) [هـ من حاشية الشيخ حسن العطار: 2 /410]

(361) [الزمر، الآية: 64]

(362) [الرسالة: ص 153]

المسائل»؛ انه كما تعتري العين، عند التحدق في جرم الشمس، ظلمة وكدورة تمنعها عن تمام الإبصار؛ كذلك تعتري العقل، عند إرادة اكتناه ذاته، حيرة ودهشة تمنعه عن اكتناهه. وهو كما ترى كلام خطابي، بل شعري. وقد يستدل على امتناعها بأن حقيقته تعالى ليست بديهية، والرسم لا يفيد الكنه، والحد ممتنع لأنه بسيط، ووجه ضعفه ظاهر، لأن البساطة العقلية محتاجة إلى البرهان، وعدم إفادة الرسم الكنه، ليس كليا؛ إذ لا دليل على امتناع إفادته الكنه في شيء من المواد، وعدم البداهة بالنسبة إلى جميع الأشخاص محتاج إلى دليل، فربما يحصل بالبديهة بعد تهذيب النفس بالشرائع الحقة، وتجريدها من الكدورات البشرية، والعلائق الجسمانية. والأحاديث الدالة على عدم حصولها كثيرة، مثل قوله ﷺ: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك»، وقوله: «تفكروا في آلائه تعالى، ولا تفكروا في ذاته؛ فإنكم لم تقدروا قدره». هـ بنقل العطار[363].

[الملكُوت في لغة العرب]

قوله: «فعلوت من الملك» الخ. نظيره: رهبوت من الرهبة، ورحموت من الرحمة، ورغبوت من الرغبة. وفي «تاج العروس»، مع ألفاظ من «القاموس»:

(والملكوت) محركة من الملك (كرهبوت) من الرهبة؛ مختص بملك الله، عز وجل، قال الله تعالى: (وَكَذَالكَ نُري إبْرَاهيمَ مَلَكُوتَ السّمَاوَات وَالأَرْض)[364]. (و) يقال للملكوت: مَلْكوة مثل (ترقوة)؛ بمعنى (العز والسلطان)؛ يقال له ملكوت العراق وملكوته، أي عزه وملكه عن اللحياني. وقوله تعالى: (بيَده مَلَكُوتُ كُل شَيْء)[365]؛ أي سلطانه وعظمته. وقال الزجاج: أي تنزيه الله عن أنَ يوَصف بغير القَدرة، قال: وملكوت كل شيء، أي القدرة على كل شيء.هـ[366]

[الملكوت عند الصوفية]

قوله: «والثاني بباطنه» الخ. قال بعض شراح «الصلاة المشيشية»: والملكوت

(363) [حاشية العطار على شرح المحلي: 2/ 410]
(364) [الأنعام، الآية: 76]
(365) [يـس، الآية: 82]
(366) [تاج العروس: 7/ 181]

عند القوم، عبارة عن عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس ويقال له: عالم الأنوار القدسية، وعالم الأرواح العلوية، وعالم الأمر الإلهي، وحضرة القدس.

وفي «الإحياء»: اعلم ان الدنيا من عالم الملك والشهادة، والآخرة من عالم الغيب والملكوت.

قوله: «أو الأول»الخ. المراد بالعالم السفلي: الأرضي، أي كالجبال والشجر والبحار. والمراد بالعلوي: السمائي، كالشمس والقمر والنجوم. وقد روي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ملكوت السماوات والارض﴾[367] أن ملكوت السماوات: الشمس والقمر والنجوم. وملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار.

قوله: قال الله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والارض﴾[368]، قال النسفي: أي نري بصيرته لطائف خلق السماوات والارض، ونري حكاية حال ماضية. والملكوت أبلغ من الملك، لأن الواو والتاء تزادان للمبالغة. قال مجاهد: فرجت له السماوات السبع، فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى نظره إلى العرش. وفرجت له الأرضون السبع، حتى نظر إلى ما فيهن.هـ[369]

وقال الخازن إثر الآية: معناه: وكما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الأصنام؛ نريه ملكوت السماوات والأرض؛ فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل في قوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾[370]، لأنه تعالى كان أراه بعين البصيرة أن أباه وقومه على غير الحق فخالفهم، فجزاه الله بأن أراه بعد ذلك ملكوت السماوات والأرض، فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى.[371]

ثم نقل عن ابن عباس أنه قال: يعني خلق السماوات والأرض. وقال مجاهد[372] وسعيد بن جبير[373] : يعني آيات السماوات والأرض، وذلك أنه أقيم على صخرة

(367) [الأنعام، الآية: 76]

(368) [الأنعام، الآية: 76]

(369) [مدارك التنزيل، للنسفي: 2 /27]

(370) [الأنعام، الآية: 76]

(371) [لباب التأويل، للخازن: 2 /27]

(372) هو مجاهد بن جبر كان مولى السائب بن أبي السائب المخزومي القرشي يعرف في كتب التراث بمجاهد كان من المفسرين الأوائل توفي عام 104 هـ

(373) هو أبو محمد سعيد بن جبير الأسدي المفسر والمقرئ من علماء التابعين أخذ عن عبد الله بن عباس و عبد الله بن عمر وعن أم المؤمنين عائشة الصديقة توفي عام 95 هـ

وكشف له عن السماوات حتى رأى العرش والكرسي وما في السماوات من العجائب، وحتى رأي مكانه في الجنة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾[374]، يعني أريناه مكانه في الجنة. وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين، ورأى ما فيهن من العجائب. قال البغوي: وروي عن سلمان، ورفعه بعضهم، عن علي قال: لما رأي إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، أبصر رجلا على فاحشة، فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه؛ فقال له تبارك وتعالى: «يا إبراهيم، أنت رجل مجاب الدعوة، فلا تدعو على عبادي؛ فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال: إما أن يتوب إلي فأتوب عليه. وإما أن أخرج منه نسمة تعبدني. وإما أن يبعث إلي؛ فإن شئت عفوت، وإن شئت عاقبت». وفي رواية: «وإن تولى فإن جهنم من ورائه».[375]

قوله: (فسُبحانَ الذي بيَده ملَكُوتُ كُلّ شَيء)[376]. قال النسفي: أي ملك كل شيء، وزيادة الواو والتاء للمبالغة، يعني هو مالك كل شيء. زاد الخازن: والمتصرف فيه.[378]

قوله: «ومعني المشاهدة»الخ. عبارة الشهاب: المشاهد المعاينة من الشهود، وهو الحضور.[379] قوله: «من مطالعة مصنوعاته». هذا تفسير لآثار القدرة. والآثار[بالمد]: جمع أثر. وآثار القدرة: المقدورات البارزة في الوجود بعد تعلق القدرة بها من بين الممكنات. قال الشهاب: وقد حمل هذا على عالم المشاهدة المحسوس، وما قبله على عالم الغيب.هـ[380]

.. بما ملأ قلوبهم حبرة، ووله عقولهم في عظمته حيرة. (يتبع)

قوله: «من الحبور، وهو السرور» الخ. في «القاموس» وشرحه:

الحبر بالفتح: السرُور كالحبور، وزناً ومعنى، والحبرة بفتح فسكون، والحبرة محركة، والحبر أيضا. وقد جاء في قول العجاج: «الحمد لله الذي أعطى الحبَرْ»، وهكذا ضبطوه بالتحريك، وفسروه بالسرور. وأحبره الأمر وحبّره: سره. والحبر: النعمة كالحبرة، وفي الكتاب العزيز: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾[381]، أي يُسرون.

(374) [العنكبوت، الآية: 26]

(375) [لباب التأويل، للخازن: 2 /27]

(376) [يس، الآية: 82]

(377) [مدارك التنزيل، للنسفي: 3/ 14]

(378) [لباب التأول، للخازن: 3/ 14]

(379) [نسيم الرياض: 1 /33]

(380) [نسيم الرياض: 1 /33]

(381) [الروم، الآية: 14]

وكشف له عن السماوات حتى رأى العرش والكرسي وما في السماوات من العجائب، وحتى رأي مكانه في الجنة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾[374]، يعني أريناه مكانه في الجنة. وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين، ورأى ما فيهن من العجائب. قال البغوي: وروي عن سلمان، ورفعه بعضهم، عن علي قال: لما رأي إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، أبصر رجلا على فاحشة، فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه؛ فقال له تبارك وتعالى: «يا إبراهيم، أنت رجل مجابِ الدعوة، فلا تدعو على عبادي؛ فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال: إما أن يتوب إلي فأتوب عليه. وإما أن أخرج منه نسمة تعبدني. وإما أن يبعث إلي؛ فإن شئت عفوت، وإن شئت عاقبت». وفي رواية: «وإن تولى فإن جهنم من ورائه».[375]

قوله: (فسُبحانَ الّذي بيَده ملَكُوتُ كُلّ شَيء)[376]. قال النسفي: أي ملك كل شيء، وزيادة الواو والتاء لَلمبَالغَة، يعني هو مالك كل شيء. زاد الخازن: والمتصرف فيه.[378]

قوله: «ومعني المشاهدة» الخ. عبارة الشهاب: المشاهد المعاينة من الشهود، وهو الحضور.[379] قوله: «من مطالعة مصنوعاته». هذا تفسير لآثار القدرة. والآثار[بالمد]: جمع أثر. وآثار القدرة: المقدورات البارزة في الوجود بعد تعلق القدرة بها من بين الممكنات. قال الشهاب: وقد حمل هذا على عالم المشاهدة المحسوس، وما قبله على عالم الغيب.هـ[380]

.. بما ملأ قلوبهم حبرة، ووله عقولهم في عظمته حيرة. (يتبع)

قوله: «من الحبور، وهو السرور» الخ. في «القاموس» وشرحه:

الحبر بالفتح: السرُور كالحبور، وزناً ومعنى، والحبرة بفتح فسكون، والحبرة محركة، والحبر أيضا. وقد جاء في قول العجاج: «الحمد الله الذي أعطى الحَبَرْ»، وهكذا ضبطوه بالتحريك، وفسروه بالسرور. وأحبره الأمر وحبّره: سره. والحبر: النعمة كالحبرة، وفي الكتاب العزيز: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾[381]، أي يُسرون.

---

(374) [العنكبوت، الآية: 26]
(375) [لباب التأويل، للخازن: 2 /27]
(376) [يس، الآية: 82]
(377) [مدارك التنزيل، للنسفي: 3/ 14]
(378) [لباب التأول، للخازن: 3/14]
(379) [نسيم الرياض: 1 /33]
(380) [نسيم الرياض: 1 /33]
(381) [الروم، الآية: 14]

وقال الليث: أي ينعمون ويكرمون. وقال الأزهري: الحبرة في اللغة النعمة التامة. وفي الحديث في ذكر أهل الجنة: «فرأى ما فيها من الحبرة والسرور». قال ابن الأثير: الحبرة بالفتح: النعمة وسعة العيش، وكذلك الحبور. ومن سجعات «الأساس»: وكل حبرة بعدها عبرة.[382]

فتحصل من هذا الكلام، أن الحبر بفتح فسكون، والحبور كالسرور، والحبرة بفتح فسكون أيضا بزيادة التاء، والحبرة بفتح الحاء والباء وزيادة التاء، والحبَر أيضا؛ هذه الخمسة كلها بمعنى السرور. والحبْر والحبْرة، بفتح فسكون فيهما، بمعنى النعمة، وزاد ابن الأثير الحبور. ثم منهم من أطلق النعمة، ومنهم من قيدها بالتامة، ومنهم من فسرها بالنعمة وسعة العيش، والكل متقارب. قوله: «أي ينعمُون»؛ قال ابن عباس: يكرمون. وقيلَ يتنعمون ويسرُّون. قاله الخازن. ثم قال: وقيل في معنى يحبرون هو السماع في الجنة.[383] وفي النسفي: (يُحْبَرُون) يسرون، يقال: حبره إذا سره سروراً تهلل لبه وجهه، وظهر فيه أثره. ثم اختلف فيه لاحتمال وجوه المسار، فقيل يكرمون، وقيل يحلون، وقيل هو السماع في الجنة.[384] قال الخازن: قال الأوزاعي[385] : ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع، قطع أهل سبع سماوات صلاتهم وتسبيحهم. وقال: إذا أخذ في السماع؛ فلا يبقى في الجنة شجرة إلا وردته.[386]

قوله: «ثم الجار»الخ. هذا التقرير هو الظاهر، وهو الذي أشرنا له سابقا، وهو الذي اقتصر عليه الشهاب، أي خصهم بما ملأ الخ، من معرفته الخ.

قوله: «وحبرة مفعول كان»،الخ. الموجود في اللغة أن ملأ من باب نفع، ولا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، ولعله أراد أن ملأ ضمن معنى فعل يتعدى لاثنين كحشى، وقد وقع في «مسلم»، من حديث ابن مسعود: «ملأ الله أجوافهم، أو قبورهم، نارا، أو حشى أجوافهم وقبورهم نارا.» قوله: «كقوله تعالى: (لَأَمْلَأَنّ). التنظير المراد به أن هذه العبارة كان أصلها ملأ قلوبهم من حبرة، ثم حذف الجار، فهي في الأصل نظير الآية، لكن الآن ليست هي كالآية، لأن الآية ليس فيها حذف الجار. قوله: «وقيل منصوب على التمييز»الخ. هذا الوجه هو الظاهر، ولهذا اقتصر عليه الشهاب ولم يعرج على غيره، مع اطلاعه، رحمه الله، على لغة العرب، إذ هو أحد الرجال المرجوع إليهم في هذا الشأن.

---

(382) [تاج العروس: 3 /118]

(383) [لباب التأويل، للخازن: 3 /431]

(384) [مدارك التنزيل، للنسفي: 3 /431]

(385) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي فقيه مجتهد صاحب مذهب توفي عام 157 هـ

(386) [لباب التأويل، للخازن: 3 /431]

[غزوة الأحزاب أو الخندق ومعنى هذه التسمية]

قوله: «كقوله ﷺ، في حق الكفار يوم الأحزاب: «ملأ الله قبورهم نارا».

الأحزاب: هو الخندق؛ فهذه الغزوة لها اسمان. أما تسميتها الأحزاب، فلأن الأحزاب جمع حزب، أي طائفة، وقد اجتمعت في هذه الغزوة طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وغطفان واليهود ومن تبعهم. وأما تسميتها الخندق، فللخندق الذي حفر حول المدينة بأمر النبي ﷺ، وكان الذي أشار بذلك سلمان، فيما ذكره أصحاب المغازي. وقد أنزل الله تعالى في هذه؛ القصة صدر سورة الأحزاب. ولفظ الحديث في البخاري عن علي، رضي الله تعالى عنه، أن النبي ﷺ، قال يوم الخندق: «حبسونا عن صلاة الوسطى حين غابت الشمس، ملا الله قلوبهم وبيوتهم، أو أجوافهم، نارا»، ثِك يحيى.هـ ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾[387]. والحديث ورد بألفاظ؛ انظرها في «الفتح». قوله: «وأما ما ذكره التلمساني من أنه يقال»الخ؛ لا وهم في كلام التلمساني، كما يعلم مما قدمناه من كلام القاموس وشرحه. قوله: «ظهر حبره». هو بكسر الحاء وسكون الباء. قوله: «بكسرهما». أي بكسر أولهما. وقوله: «وقد يفتحان»، أي يفتح أولهما.

قوله: (وولّه). من التولية، وهو تفعيل من الوله وهو الحزن، أو ذهاب العقل الناشئ منه. وقيل الوله نفس الحيرة، كما نقله الشهاب

[أصل العظمة وصفة الله بها]

وقوله: (في عظمته). العظمة: جلال الله وكبرياؤه، التي تقف العقول دونها. وفي «المقصد الأسنى»: اعلم أن اسم العظيم في أول الوضع إنما أطلق على الأجسام، يقال: هذا الجسم عظيم، وهذا الجسم أعظم من ذلك الجسم، إذا امتداد مساحته في الطول والعرض والعمق أكثر منه. ثم إنه ينقسم إلى عظيم يملأ العين وتأخذ منه مأخذا، وإلى ما لا يتصور أن يحيط البصر بجميع أطرافه كالأرض والسماء؛ فإن الفيل عظيم، والجبل عظيم، ولكن البصر قد يحيط بأطرافه، فهو عظيم بالإضافة إلى ما دونه. وأما الأرض فلا يتصور أن يحيط البصر بأطرافها، وكذا السماء؛ فذلك

[387] [البقرة، الآية: 236]

هو العظيم المطلق في مدركات البصر. فافهم أن في مدركات البصائر أيضا تفاوتا: فمنها ما يحيط العقول بكنهه حقيقة. ومنها ما يقصر عنه العقل. وما تقصر العقول عنه ينقسم إلى ما لا يتصور أن يحيط به بعض العقول، وإن قصر عنه أكثرها. وإلى ما لا يتصور أن يحيط العقل بكنهه حقيقة، وذلك هو العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقول حتى لم يتصور الإحاطة بكنهه؛ وذلك هو الله تعالى.[388] وقوله: «إلى ما لا يتصور». كذا في نسخة من «المقصد»، ولعل الصواب: إلى ما يتصور أن يحيط به بعض العقول وإن قصر، الخ.

[معنى الحيرة]

قوله: (حيْرة) الخ. حار فلان في الطريق فهو يحار فيه حيرة، وحيرانا، وحيرورة، وذلك إذا ضلّ فلم يهتد للمحجة. قاله الطبري.[389] وفي «تفسير» النيسابوري[390] : ومعنى الحيرة: التردد في الأمر، بحيث لا يهتدي إلى مخرجه منه. ومنه: تحيرت الروضة بالماء إذا امتلأت فتردد فيها الماء. هـ[391]. وقال الأزهري: أصله أن ينظر الإنسان إلى شيء فيغشاه ضوءه فيصرف بصره عنه.هـ. وهو بالنصب مفعول مطلق لوله، على أن الحيرة بمعنى الوله، أو تمييز. والمعنى، والله أعلم، أن أولياءه تعالى المتقين الذين سأل المصنف من الباري جل شأنه أن يعامله كما عاملهم؛ خصّهم الجليل بحالتين:

- بحالة يفتح لهم فيها باب مشاهدة أسمائه الجليلة، وصفاته الجميلة، فيشاهدون عجائب آياته في ملكوت السماوات والأرض، وخلق الأرواح والأجساد، وإمعان النظر في بدائع المملكة، وغرائب الصنعة، واستقصاء حقائق الحكمة ولطائف التدبير.

- وحالة يهتزون لإدراك الحقيقة، فتردهم سبحات الجلال إلى الحيرة، وتضطرهم للسكون إلى العجز والحيرة والدهشة؛ وذلك غاية المعرفة. ففي»حل الرموز» للمقدسي: وسئل علي رضي الله عنه، [فقال] مخبراً عن حقيقة التوحيد: «ركضت الأرواح

[388] [المقصد الأسنى: 55]

[389] هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير المعروف بالطبري مؤرخ ومفسر من أهم مؤلفاته تفسيره المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن توفي عام 310 هـ

[390] هو نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري مفسر وعالم فلك ورياضيات فارسي من أشهر مؤلفاته غرائب القرآن ورغائب الفرقان المعروف بتفسير النيسابوري توفي حوالي 850 هـ

[391] [تفسير غرائب القرآن - بهامش جامع البيان: 7 /167]

في ميدان المعرفة، فسبقت روح نبينا ﷺ، أرواح الأنبياء؛ فخلع عليه المعراج، فقيل له: وما غايتها، أي المعرفة؟ فقال: الدّهش في كبرياء الله.»[392] قال الغزالي: فإن قلت فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى؟ فنقول: نهاية معرفة العارفين، عجزهم عن المعرفة. ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه، وأنهم لا يمكنهم البتة معرفته، فإنه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالى، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا، كما ذكرناه، فقد عرفوه إلى بلوغ المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته، وهو الذي أشار إليه الصديق الأكبر، حيث قال: «العجز عن درك الإدراك إدراك»، بل هو الذي عناه سيد البشر، صلوات الله عليه وسلامه، حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». ولم يرد أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة عنه، بل معناه: إني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك. فإذا لا يخطئ مخلوق عن ملاحظة حقيقة ذاته بالحيرة والدهشة. وأما اتساع المعرفة فإنها تكون في معرفة أسمائه وصفاته.هـ.[393] قوله: «ولا يخفى صنعة التجنيس». أي تجنيس التصحيف.

فجعلوا همَّهم به واحدا، ولم يروا في الدارين غيره مشاهدا؛ فهُم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون، وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يترددون، وبالانقطاع إليه والتوكل عليه يتعززُون. لهجينَ بصادق قوله: (قُل اللّه. ثم ذرْهُمْ في خَوْضِهم يَلْعَبُون.) (يتبع)

قوله: (فجعلوا همّهم) الخ. الهمّ لغة: مصدر بمعنى الحزن، والعزيمة، والإرادة، وكل مطلوب يهمك ويعنيك. وكل المعاني غير الأول جائز هنا، أي لما شاهدوا باهر قدرته تحيرت عقولهم في كبرياء عظمته؛ علموا أن ما سواه كلاشيء، فوجهوا جميع وجوه الإرادة والعزيمة إليه، وجعلوا قبلتهم واحدة، فلا مراد لهم سواه، لاشتغالهم به عما عداه.هـ..

قوله: «فالضمير له سبحانه» الخ. أي الضمير المجرور بالباء في قول المصنف: (فجعلوا همّهم به). قوله: «جعل الضمير للوله» المفهوم من وله، الأولى التولية المفهوم من وله، وهذا من قبيل تقدم المصدر معنى، لكون الكلام تضمنه، على حد قوله تعالى: (اعْدلوا هُو أقربُ)[394]، أي هو أي العدل المفهوم من(اعْدلوا). قوله:

[392] [«حل الرموز»، محطوطة بخزانة المؤلف]

[393] [المقصد الأسنى: 24]

[394] [المائدة، من الآية 9]

«غيره ديّار». أي أحد، قال تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[395] قال الشاعر:

وما نبالي إذا ما كنتِ جارتنـــا أن لا يجاورنا إلاّكِ دَيّــــارُ

[أبو يزيد البسطامي وما قيل في فضله]

قوله: «وزاد أبو يزيد» الخ: وهو طيفور بن عيسى البسطامي، وله أخوان آدم وعلي، وكلهم كانوا زهّاداً عبّاداً، وأبو يزيد كان أجلهم حالا. قيل: مات سنة إحدى وستين ومائتين، وقيل: أربع وثلاثين ومائتين. وهو من رجال «الرسالة»، وشهرته تغني عن الإطالة، وقد ورد أن من عرف اسمه دخل الجنة، ونظم ذلك الشيخ علي الأجهوري فقال:

أبو يزيد واسمــــه طيفــــور هو ابن عيسى فضله مشهــــور
وقد روينـــا في المذكـــــرات حافظــه يكـرم بالجنّـــــات

وسئل عن هذا الإمام العارف، سيدي محمد بن ناصر الدرعي[396]، فأجاب: نعم، قد قيل ذلك، ولا يستنكر مثل هذا في حق من ثبتت ولايته، وذلك قليل في جنب ما منح الله من فضله لأوليائه، نفعنا الله بهم. هـ من «أجوبته».

[الحلاّج ومقالته، وعبارة الشطحات عند الصوفية]

قوله: «ومن هذا المقام المحقق الحسين بن منصور الحلاج»، الخ. الحلاج صحب الجنيد والنوري وغيرهما، ولقب بالحلاج، لأنه سأل قطانا حاجته فاعتذر بشغله، فقال: أنا أحلج عنك، فلما عاد وجد قطنه كله محلوجاً. يقال: حلج القطن ندبه، فهو حلاج، والقطن حليج ومحلوج، كما في كتب اللغة. واختلف الناس في

(395) [نوح، الآية: 28]

(396) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسين بن ناصر الدرعي من أكثر علماء المغرب شهرة في التصوف والتفنن في علوم أخرى توفي عام 1085 هـ.

شأنه؛ فأفتى كثير من العلماء بإباحة دمه، وتوقف آخرون. ولما استُفتي أبو العباس ابن سُريج عنه - وكان من أقرانه - قال: هذا رجل خفى علي حاله، فلا أقول فيه شيئا. هـ كأنه لم يثبت عنده أنه ما قال تلك المقالة في صحو. قتل يوم الثلاثاء، لسبع بقين من ذي القعدة، سنة 309. وكان آخر قوله: حب الواحد إفراد الواحد له. قاله شارح «الإحياء»[397]. قوله: «نطق وقال أنا الحق» الخ. اعلم أن هذه المقالة وأشباهها هي سبب إثارة الحلاج للناس عليه، حتى آل الأمر إلى صلبه وقتله، وسيأتي للمصنف الإشارة لهذه المقالة آخر هذا الكتاب. واختلف الناس في هذه العبارة، فمنهم من مؤول، لأنها لا تصح أن تبقى على ظاهرها لما تفيده من الحلول، إذ «الحق» من أسمائه تعالى. وعليه فإما أن يعني أنه بالحق، وهذا التأويل بعيد، لأن اللفظ لا ينبئ عنه، ولأن ذلك لا يخصه، بل كل شيء هو الحق فهو بالحق. الثاني: أن يكون مستغرقا بالحق حتى لا يكون فيه متسع لغيره. وما أخذ كلية الشيء واستغرقه فقد يقال إنه هو هو، كما يقول الشاعر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

ويعني به الاستغراق. قاله في «المقصد الأسنى».

وهذه الألفاظ وأشباهها، يُعبر عنها عند القوم بالشطحات، وهي لفظة عامية، حسبما قاله الحسن اليوسي، إذ لم يذكرها أحد من أهل اللغة، وهي، كما قال شيخ الشيخ مرتضى، في اصطلاحهم عبارة عن كلمات تصدر منهم في حال الغيبوبة وغلبة شهود الحق تعالى عليهم، بحيث لا يشعرون بغير الحق، كقول بعضهم: أنا الحق، وليس في الجبة إلا الله، ونحو ذلك.

[كلام حُجة الإسلام الغزالي في الموضوع]

وقد تكلم على هذا حجة الإسلام، فقال: وأما الشطح، فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية، أحدهما الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب؛ فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا،

[397] [إتحاف السادة المتقين، للشيخ مرتضى: 1 /250]

ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق، وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: سبحاني سبحاني.

وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوي؛ فإن هذا الكلام يستلذه الطبع، إذ فيه البطالة من الأعمال، مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة! ومهما أنكر عليهم ذلك، لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكارٌ مصدره العلم والجدل، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق.! فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشيء منه؛ فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة.[قال]:

وأما أبو يزيد البسطامي، رحمه الله، فلا يصح عنه ما يحكى. وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل، في كلام يردده في نفسه، كما لو سمع وهو يقول: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾[398]؛ فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية. [قال]:

الصنف الثاني من الشطح، كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها من طائل، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها، بل يصدرها عن خبط[399] في غفلة وتشويش في خياله، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه؛ وهذا هو الأكثر. وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة. ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام، إلا أنه يشوش القلوب، ويدهش العقول، ويحير الأذهان. أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه، وقد قال ﷺ: «ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفهمونه، إلا كان فتنة عليهم». وقال ﷺ: «كلموا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟!». وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع، فكيف فيما لا يفهمه قائله؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره. وقال عيسى، عليه السلام: «لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا

(398) [سورة طه، الآية: 31]

(399) قوله: خبط: أي مس في عقله. المؤلف.

تمنعوها أهلها فتظلموهم؛ كونوا كالطبيب الرفيق، يضع الدواء في موضع الداء». وفي لفظ آخر: «من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل، ومن منعها أهلها فقد ظلم. إن للحكمة حقا، وإن لها أهلا؛ فاعط كل ذي حق حقه».هـ[400]

[الإنصاف في شأن القوم فيما يصدر عنهم أنهم أهل غفلة حسب قول ابن خلدون]

وقال ابن خلدون[401]: وأما الألفاظ الموهمة، التي يعبرون عنها بالشطحات، التي يؤاخذهم بها أهل الشرع؛ فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه. وصاحب الغيبة غير مخاطب، والمجبور معذور. فمن علم منهم فضله واقتداؤه؛ حمل على القصد الجميل من هذا، وإن العبارة من المواجد صعبة، لفقدان الوضع لها، كما وقع لأبي يزيد وأمثاله. ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر؛ فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك، إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه. وأما من تكلم بمثلها، وهو حاضر في حسه، ولم يملكه الحال، فمؤاخذ أيضا، ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج، لأنه تكلم في حضور، وهو مالك لحاله. والله أعلم.[402]

[كلام السهروردي فيمن يقول بالحلول وانتسب إلى الصوفية وليس منهم]

وقال الإمام السهرَوَرْدي في»عوارفه»، في الباب التاسع، فيمن انتسب للصوفية وليس منهم:

ومن جملة أولئك قوم يقولون بالحلول، ويزعمون أن الله تعالى يحل فيهم، ويحل في أجسام يصطفيها، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصارى في اللاهوت والناسوت. ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحسنات إشارة إلى هذا الوهم،

(400) [إحياء علوم الدين: 32/1]

(401) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي مؤرخ تنقل بين تونس والأندلس والمغرب ومصر من أشهر مؤلفاته كتاب العبر ومقدمته توفي في مصر عام 808 هـ.

(402) [المقدمة: 416]

ويتخيل له أن من قال كلمات في بعض غلباته كان مضمرا لشيء مما زعموه، مثل قول الحلاج: أنا الحق. وما يحكى عن أبي يزيد من قوله: سبحاني. حاشا أن نعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى. وهكذا ينبغي أن يعتقد في قول الحلاج ذلك. ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضمرًا لشيء من الحلول؛ رددناه كما نردهم. وقد أتانا رسول اللهﷺ، بشريعة بيضاء نقية يستقيم بها كل معوج. وقد دلتنا عقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز، والله تعالى منزه أن يحل به شيء أو يحل بشيء، حتى لعل بعض المفتونين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية، ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه، فيتألف له في فكره كلمات ينسبها إلى الله تعالى وأنها مكالمة الله تعالى إياه، مثل أن يقول: قال لي وقلتُ له. وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثها، جاهل بربه، وبكيفية المكالمة والمحادثة. وإما عالم ببطلان ما يقول، يحمله هواه على الدعوى بذلك ليوهم أنه ظفر بشيء. [قال]:

وكل هذا ضلال. ويكون سبب تجرئه على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم، بعد طول معاملات لهم، ظاهرة وباطنة، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكمال الزهد في الدنيا. فلما صفت أسرارهم تشكلت في سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة، فنزلت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرائر، و لا يكون ذلك كلاما يسمعونه، بل كحديث في النفس يحدونه برؤية موافقا للكتاب والسنة، مفهوما عند أهله، موافقا للعلم، ويكون ذلك مناجاة لسرائرهم، ومناجاة سرائرهم إياهم[فيثبتون]لنفوسهم مقام العبودية ولمولاهم الربوبية، فيضيفون ما يجدونه إلى نفوسهم وإلى مولاهم، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله، وإنما هو علم حادث أحدثه الله في بواطنهم. فطريق الأصحاء في ذلك الفرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم به، حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى، وألهموا في بواطنهم شيئا ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى المحدث، لا نسبة الكلام إلى المتكلم، لينصانوا عن الزيغ والتحريف.هـ من «العوارف».[بهامش الإحياء: 1/177].

[اعتذار السيوطي عما وقع في كلام الصوفية]

وقال السيوطي في»تأييد الحقيقة العلية»: وأما التأويل فبأمُور. ثم قال: الثالث: أن يكون ما وقع في ألفاظهم مضافا إلى أنفسهم، وهو مما يضاف إلى الله تعالى؛

لم يقصدوا به حكاية عن أنفسهم، وإنما أوردوه مورد الحكاية عن الله. فإن الكلام ينقسم إلى ما يحكيه المتكلم عن نفسه، وإلى ما يحكيه عن غيره وإن لم يصرح بالإضافة إليه، كحديث البخاري عن أبي هريرة، أن النبيﷺ، قال: «ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم أحتسَبَه إلا الجنّة». فهذا إنما قالهﷺ، حكاية عن ربه، وإن لم يصرح به. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[403]؛ فهذا على لسان الملائكة، وقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[404]؛ فهذا على لسان جبريل. وهذا نوع لطيف حررت الكلام فيه في «الإتقان». [ثم قال]:

وأما حسن الظن وعدم الوقيعة؛ فذاك هو الذي دلت عليه الآيات والأحاديث والآثار ونصوص العلماء. ولأنْ يخطئ الإنسان في عدم السب، خير من أن يخطئ في السب. وفي الحديث: «لأن يخطئ الإنسان في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة». والمقصد الشرعي من التحذير حاصل، بالتنفير من ذلك الكلام من غير وقيعة فيمن نسب إليه، وقد قال بعض الأئمة: لو عاش الإنسان عمره كله لم يلعن إبليس؛ فلا يسأله الله عن ذلك. وقال السبكي في «فتاويه»: اعلم أنا نستصعب القول بالتكفير، لأنه يحتاج إلى تحرير المعتقد، وهو صعب من جهة الاطلاع على ما في القلب وتخليصه عما يشبهه وتحريره، ويكاد الشخص يصعب عليه تحرير اعتقاد نفسه، فضلا عن غيره، واعتراف الشخص به هيهات أن يحصل. وأما البينة في ذلك فصعب قبولها، لأنها تحتاج إلى ما قدمناه.هـ بنقل شارح «الإحياء».[405]

ثم إن المشايخ -كما علمت- اعتذروا عمّن وقع منه نحو هذا المقال، وأنه كلام صدر في حال سكر وغيبة، وأن الله رفع التكليف عمّن غاب عقله فلا يؤاخذ بذلك، ولا يحل الوقيعة فيه بسبب ذلك، وقال القطب أبو مدين الغوث:

فإنا إذا طبنا وطابت عقولنا   وخامرنا خمر الغرام تهتّكنا
فلا تلم السكران في حال سكره   فقد رفع التكليف في سكرنا عنّا

وإنما الإنكار -كما قال شارح «الإحياء»- على من يلقي ذلك الكلام على ظاهره، ويعتقده ويعتمده، فهذا ينكر عليه أشد النكير.[406]

وقد أطلنا في المسألة، لأهميتها، وكثرة اللهج من العوام بهذا النوع الذي يُضل

[403] [الصافات، الآية: 164]
[404] [سورة مريم، الآية: 64]
[405] [إتحاف السادة المتقين للشيخ مرتضى: 1 /252]
[406] [إتحاف السادة المتقين للشيخ مرتضى: 1 /250]

ولا يهدي، ويزيح عن مهيع الرشاد ويُردي. وفقنا الله لما فيه الرشد والسداد، وأخذ بيدنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتاه بقلب سالم من الفساد.

قوله: «كقول مجنون بني عامر». هو قيس بن معاذ، ويقال قيس بن الملوح. أحد بني حفدة ابن كعب بن سعد بن عامر، وهو من أشعر الناس، وعشقه لليلى مشهور، علقها علاقة الصبي، لأنهما كانا يرعيان البهم وهما صغيران، ولهذا قال:

تعلقتُ ليلى وهي غر صغيـــرة ولم يبد للأتراب من ثَدْيها حَجْمُ
صغيرَين نرْعى البهم يا ليتَ أننا صغيرَان لم نكبر ولم تكبر البهمُ

وقوله: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا» الخ. هذا البيت مطروق عند الصوفية متداول بينهم، حتى يُظن أنه من إنشائهم، وبعده كما في «العوارف»:

فــإذا أبصَرتـــه أبصرتـــــه وإذا أبصرتـــه أبصرتنـــــــــا

وأشار بالبيت إلى أن المراد بقوله: أنا الحق، أي أنا مستغرق بالحق ليس في قلبي متسع لغيره، وما أخذ كلية الشيء واستغرقه؛ فقد يقال: هو هو، كما تقدم من كلام «المقصد».

وفي «الرسالة»: وسمعته، أي الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي[407]، سمعت أحمد بن علي يقول: سمعت عباس بن عصام يقول: سمعت الجنيد يقول: سمعت السري يقول: لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا.[408]

[إشارات الشيوخ في الاستغراق والفناء عائدة إلى تحقيق مقام المحبة]

قوله: «فهذا مقام وحال» الخ. اعلم أن إشارات الشيوخ في الاستغراق والفناء - كما في «العوارف» - كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين، وخلاصة الذكر على القلب وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا وأمنت اللوث الوجودي من بقاء صفات النفس؛ وإذا صحت المحبة ترتب عليها الأحوال وتبعتها.[409]

(407) هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى من أشهر صوفية القرن الرابع الهجري توفي عام 412 هـ

(408) [الرسالة القشيرية: 158]

(409) [العوارف(بهامش الإحياء): 4/ 273]

قوله: «بلا حلول»الخ، أي لأن القول بالحلول كفر، وسيأتي ذلك للمصنف، رحمه الله، مفصلاً. قوله: ويؤيد هذا المقال، أي سوى الله ما في الوجود، فيكون بمعنى الآية: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ)[410]، أي هالك هلاكا مستمراً في جميع الأزمنة حقيقة، قبل وجوده وبعد فنائه. وحكماً حال وجوده؛ وشيء على هذا عام لكل مخلوق. قال الشيخ الطيب ابن كيران:

وعلى هذا الوجه ينبغي أن تحمل هذه الآية. وأما لو حمل (هالكٌ) على الفناء بعد الوجود؛ فيحتاج إلى استثناء الأمور السبعة التي لا تفنى، المجموعة في قول القائل:

سبعٌ من المخلوق غير فانيــــهْ العرشُ والكُرسي ثم الهاويَــــهْ
وقلمٌ واللـــــــوحُ والأرْوَاحُ وجنــة في ظلهــا نَـرْتــــــاحُ

هـ.[411]

قال الشيخ ابن عباد[412] في شرح «الحكَم»: اتفقت مقالات العارفين والمحققين، وإشاراتهم ومواجيدهم، على ما ذكرناه قبيل هذا من أن ما سوي الله تعالى عدمٌ محضٌ من حيث ذاته، لا يوصف بوجود مع الله سبحانه وتعالى، إذ لو وصِف به لكان ذلك شركة واثنينية، وهو مناقض لإخلاص التوحيد، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وقال رسول الله ﷺ : أصدق كلمة قالها الشاعر:

ألا كل شيء ما خلا الله باطــلُ وكل نعيم لا محــالة زائـــــــلُ

قال بعض العارفين: أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومة. وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي، رضي الله عنه: إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان، ونستدل به على الخلق، هل في الوجود شيء سوى الواحد الحق، فلا نراهم، وإن كان ولابد فنراهم كالهباء في الهواء، إنْ فتشتهم لم تجدهم شيئا. [قال]:

وقال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده معه. هـ وقال الشاعر:

---

[410] [القصص، الآية: 88]

[411] [شرح توحيد المرشد المعين: 76]

[412] هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الشهير بابن عباد الرندي النفزي الحميري كان خطيبا بالقرويين بفاس من أشهر مؤلفاته شرحه للحكم العطائيةتوفي عام 792 هـ

مُذ عرفت الإله لم أرَ غيــــرا وكذا الغير عندنـا ممنــــوعُ

وقال آخر:

الله قل وذر الوجـود وما حــوى إن كنت مرتـاداً بلـوغ كمـــال
فالكل دُون اللـه إن حقّقتــــهُ عدمٌ على التفصيل والإجمـال
واعلم بأنـك والعــوالم كلهـــا لولاهُ في محو وفي اضمحــلال
من لا وجــود لذاته من ذاتـــه فوجــوده لولاه عين محَــال
فالعارفون فنوا بأن لم يشهـدوا شيـئا سـوى المتكبر المتعـالــي
ورأوْ سواه على الحقيقة هالكا في الحال والماضي والاستقبـــال

اهـ.[413]

قوله: «أصدق كلمة قالها لبيد»الخ. لفظ البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: *ألا كل شيء ما خلا الله باطل*»[414].

قال في «الفتح»: يحتمل أن يريد بالكلمة البيت الذي ذكر شطره، ويحتمل أن يريد القصيدة كلها. ويؤيد الأول، رواية مسلم من طريق شعبة وزائدة خرجهما عن عبد الملك بلفظ: «إن أصدق بيت قاله الشاعر»، وليس في رواية شعبة[415]«إن». ووقع عنده في رواية شريك عن عبد الملك بلفظ: «أشعر كلمة تكلمت بها العرب»؛ فلولا أن في حفظ شريك مقالا، لرفع هذا اللفظ الإشكال الذي أبداه السهيلي على لفظ رواية الصحيح بلفظ: «أصدق»، إذ لا يلزم من لفظ أشعر أن يكون أصدق. نعم؛ السؤال باق، في التعبير بوصف كل شيء بالبطلان، مع اندراج الطاعات والعبادات في ذلك، وهو حق لا محالة.

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم، في دعائه بالليل: «أنت الحق، وقولك الحق، والجنة حق، والنار حق،» الخ. وأجيب عن ذلك، بأن المراد بقول الشاعر: ما عدا الله، أي ما عداه وعدا صفاته الذاتية والفعلية، من رحمته وعذابه وغير ذلك، فلذلك ذكر الجنة والنار.

---

(413) [شرح الحِكم لابن عباد: ص 15 - 16]

(414) [صحيح البخاري: 2 /258]

(415) [لعله يقصد: «وليس في رواية زائدة إن»، حسب نسخة مسلم: 2/ 271، والله أعلم]أم

أو المراد في البيت بالبطلان: الفناء لا الفساد، فكل شيء سوى الله، جائز عليه الفناء لذاته، حتى الجنة والنار، وإنما يبقيان بإبقاء الله لهما، وخلق الدوام لأهلهما. والحقّ على الحقيقة من لا يجوز عليه الزوال. ولعل هذا هو السر في إثبات الألف واللام في قوله: «أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق»، وحذفهما عند ذكر غيرهما .والله أعلم.هـ[416]

قوله: «فلا حلول ولا اتحاد[417]، ولا اتصال ولا انفصال» الخ. قوله: أنا الحق: انه رأى نفسه باطلا، ولم ير غير الله حقا. لأن العبد وإن كان حقا فليس حقا بنفسه، بل هو حق بالله، لأنه موجود به لا بذاته، إذ هو بذاته باطل لولا إيجاد الحق له.

قوله: «ومن الناس» الخ. قال أبو جعفر الطبري: يعني، جل ذكره، بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾[418]؛ أعراباً كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ، مهاجَرين من باديتهم، فإن نالوا رخاء من عيش، بعد الهجرة والدخول في الإسلام، أقاموا على الإسلام، وإلا ارتدّوا على أعقابهم. فقال الله: ومن الناس على شك، فإن أصابه خير اطمأن به، وهو السعة من العيش وما يشبهه من أسباب الدنيا، اطمأن به؛ يقول: استقر بالإسلام وثبت عليه. وإن أصابته فتنة -وهو الضيق بالعيش وما يشبهه من أسباب الدنيا- انقلب على وجهه، يقول: ارتد، فانقلب على وجهه الذي كان عليه من الكفر بالله. هـ[419]

قوله: «وفي هذا الحال قال بعض» الخ. البيت[420]، أنشده سمنون[421]، وهو أبو الحسن، أو أبو القاسم سمنون، صحب السري وأبا أحمد القلانسي[422] ومحمد بن علي القصاب[423]، وكان كبير الشأن. توفي قبل الجنيد. قيل لما أنشد البيت أصابه

---

(416) [فتح الباري: 7 /104]

(417) الحلول: قال به بعض النصارى، حيث قالوا: حل الله في المسيح، تعالى الله عن قولهم. والاتحـاد: قال به من القدماء (مرقورنس)، وقالت به النصارى حين قالوا: اتحدت الأقانيم الثلاثة: الأب والابن وروح القدس، واتّحد ناسوت المسيح باللاهوت. والإتحاد يطلق بايجاز على صيرورة شيء ما شيئا آخر بطريق الاستحالة، كما يقال: صار الماء هواء، أو الأبيض أسود. وعلى صيْرُورة شيء شيئا آخر بطريق التركيب، كما يقال: صار التراب طينا، والخشب سريرا. والاتحاد بهذين المعنيين لا شك في وقوعة. وأما المفهوم الحقيقي للاتحاد فهو أن يصير شيء بعينه شيئا آخر: كزيد وعمرو يتّحدان بأن يصير زيد عمرًا، أو بالعكس: وهو باطل بالضرورة. هـ[من تعليق للمؤلف بالهامش].

(418) [الحج، الآية: 11]

(419) [جامع البيان: 17/ 93]

(420) [وهو قوله، حسبما في الرسالة القشيرية:
وليس لي في سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرني]

(421) هو أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص من علماء التصوف السني في القرن الثالث الهجري صحب السؤي اليقطي في العراق وتوفي في بغداد عام 298 هـ

(422) هو أبو أحمد مصعب بن أحمد البغدادي القلانسي من رموز التصوف السني في القرن الثالث الهجري توفي حوالي 270 هـ

(423) هو أبو جعفر محمد بن علي القصاب البغدادي من أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري يعد من أساتذة الإمام الجنيد توفي عام 275هـ

الأسر من ساعته[424]، فكان يدور على المكاتب ويقول: أدعو لعمكم الكذاب. انظر «الرسالة»[425]. قوله: «وفي القضية» الخ، أي وفي هذه الجملة من كلام المصنف.

قوله: إلى قوله ﷺ: إن قلوب بني آدم، الخ. الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم، ولفظ الحديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبوعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء». والحديث من أحاديث الصفات. فيصرف الكلام عن ظاهره المحال، التي هي الجارحة، ويكون فيه المذهبان:

إما الإمساك عن التأويل، والإيمان به على ما يليق، ويصرف علمه إلى الله تعالى.

أو يتأول؛ بأن الأصبع كناية عن كمال الاقتدار في خلقها على عظمها بلا تعب، والناس يذكرون الأصابع في مثل هذا المبالغة والاحتقار، فيقول أحدهم: بأصبعي أقتل فلانا، أي لا كلفة علي في قتله.

وقيل يحتمل أن يكون الأصبع اسما لبعض مخلوقاته، وأخبر بخلق هذه الأشياء عليه. وقيل يحتمل أن يريد أصبعا لبعض مخلوقاته، والقدرة صالحة للجميع.هـ قاله الأبي[426]. وقال غيره على التأويل أن يكون من باب التمثيل المذكور في علم البيان، على حد قولهم: أراك تقدم رجْلا وتؤخر أخرى. يقال للمتردد في أمر، تشبيها له بمن يفعل ذلك، لإقدامه وإحجامه.

فالمرد من الحديث أن قلوب بني آدم كلها بالنسبة إلى قدرته تعالى شيء يسير، يصرفه كيف يشاء، كما يقلب الواحد من عباده اليسير بين أصبعيه.

[القبض والبسط في اصطلاح الصوفية]

قوله: «ونعني البسط والقبض»: القبض والبسط عند الصوفية، حالتان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء. فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف.

---

(424) [الأسر: احتباس البول.]

(425) [الرسالة القشيرية: ص23]

(426) [إكمال اكمال المعلم، للإمام الأبي المالكي: 7 /190. طبعة أولى بمصر1328 هـ]

وحاصله ان العبد قد يتقدم له الخوف من ضرر يخشاه في المستقبل، فإذا حل به انقبض، والرجاء تأميل حصول محبوب في المستقبل، فإذا حصل انبسط. فمتعلق الخوف والرجاء أمر يحصل في الآجل، وتعلق القبض والبسط أمر يحصل في الوقت العاجل. ومراده هنا خلاف هذا، بل مراده القبض والبسط اللذان هما من صفات الباري، جل جلاله، لأن من أسمائه الحسنى: القابض، الباسط.

قال في «المقصد الأسنى»: القابض هو الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، ويقبض الصدقات من الأغنياء، ويبسط الأرزاق للضعفاء، ويبسط الرزق على الأغنياء، حتى لا يبقى فاقة، ويقبضه عن الفقراء حتى لا يبقى طاقة، ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلة مبالاته وتعاليه وجلاله، ويبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله.هـ[427]

ولهذين الوصفين تعلق آخر بالعباد، قال في»المقصد»:

القابض والباسط من العباد من ألهم بدائع الحكم، وأوتي جوامع الكلم؛ فتارة يبسط قلوب العباد بما يذكرهم من آلاء الله ونعمائه، وتارة يقبضها بما ينذرهم به من جلال الله وكبريائه، وفنون عذابه وبلائه، وانتقامه من أعدائه، كما فعل رسول الله ﷺ، حيث قبض قلوب الصحابة عن الحرص على العبادة حيث ذكر لهم أن الله تعالى يقول لآدم يوم القيامة: «ابعث بعث النار»، فيقول: كم؟ فيقول: «من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». فانكسرت قلوبهم حتى فتروا عن العبادة؛ فلما أصبح ورآهم على ما هم عليه من القبض والفتور؛ روح قلوبهم وبسطهم، فذكر أنهم في سائر الأمم قبلهم كشامة سوداء في ثور أبيض.هـ[428]

قوله: «وفيه إشارة لطيفة»، الخ: أخذ الإشارة من تقديم المعمول المفيد الحصر. قوله: «مولعين»الخ: في «المصباح»: لهج بالشيء من باب تعب؛ أولع به ولزمه. قوله: «بصادق قوله»؛ أي بثابت قوله، أو بخالص قوله، أو لهجين بمضمون قوله الصادق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾[429]؛ أي ربي الله، لا رب غيره، فهو مالك العبد ومدبر أمره ومربيه، والعبد مربوبَ بين يدي مولاه. فهو على هذا مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر محذوف المبتدا.

---

[427] [المقصد الأسنى، للغزالي: 44]

[428] [نفس المرجع]

[429] [الأنعام، الآية: 92]

والمعنى في هذا التمثيل أنهم عاملون بما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾، أي هم يرجعون إلى الله في كل أمورهم، معرضون عما سواه. أو قل يا ألله، مناديا له وداعيا وملتجئا إليه، ومعرضا عما سواه بمعنى أنهم لا يسألون إلا الله، ولا ينادون غيره، «أي موجودا»؛ أي واجب الوجود، وما سواه جائز الوجود. «أو معبودا»؛ أي معبودا بحق، وكل معبود سواه باطل. «أو مشهودا»؛ أي معلوما بالأدلة القاطعة، «وقل الله، وليس في الكون سواه، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾»[430]؛ أي اترك أهل الغفلة واللعب والاشتغال بما لا يعنيهم في دينهم، وما لا يحملهم على الحضور مع ربهم، حال كونهم في شروعهم في الباطل، وهو ما سوى الحق، يضيعون أعمارهم، ويخربون آثارهم عبثا بلا فائدة عائدة في أمر أوليهم وفي حال أخراهم».

وفسر الشهاب هذه الجملة بقوله: يعني أن هؤلاء المخلصين الله، المختصين به، الذين شغلوا ظاهرهم وباطنهم بمحبته، وردُهم دائما ذكر الله، والإعراض عما سواه، متمثلين بهذه الآية، يعنون أنهم مراقبون الله معرضون عن غيره؛ فلذا يأمرون أنفسهم، أو يأمر بعضهم بعضا بما ذكر.[431]

[قوله]: «وهذا المعنى الذي أومأ»، أشار «إليه الشيخ»: يعني المؤلف. والشيخ: من كان أستاذاً كاملاً في فن، يصح أن يُقتدى به، ولو كان شابا. وأصله من طعن في السن، ثم عبرُوا به عمّن يكثر علمه لما كان شأن الشيخ أن تكثر تجاربه ومعارفه.

[الصوفية وأصل تسميتهم وطريقتهم]

[قوله]: «من الإشارات الصوفية»؛ واحده: صوفي. غلبت هذه التسمية على هذه الطائفة، كما قاله أبو القاسم القشيري[432]. وليس يشهد لهذا الإسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب.

وأسند ابن الجوزي[433] إلى الحافظ عبد الغني بن سعيد، قال: سألت وليد بن

(430) [الأنعام، الآية: 92]
(431) [نسيم الرياض: 36/1]
(432) [الرسالة: ص137]
(433) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي فقيه حنبلي من أشهر مؤلفاته تلبيس ابليس و أخبار الحمقى توفي في بغداد عام 597 هـ.

القاسم، إلى أي شيء ينسب الصُوفي؟ فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة، انقطعوا إلى الله عز وجل، وقطنوا الكعبة؛ فمن تشبه بهم فهم الصوفية.هـ[334]

وقيل نسبتهم للصُفّة، وهي المحلة التي كانت في مسجد رسول الله ﷺ، يأوي إليها الفقراء. فعن أبي ذر قال: كنت من أهل الصّفة، وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل، فيبقى من بقي من أهل الصفة عشرة أو أقل؛ فيوثرنا النبي ﷺ، بعشائه فنتعشى، فإذا فرغنا قال لنا رسول الله ﷺ : «ناموا في المسجد».هـ. ويقدح في هذا الوجه، أن النسبة للصُفّة صُفي.

وقيل: نسبتهم للصُوف، قال القشيري: وله وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف![435] وقد يقال هم في الغالب مختصون بلبسه لطرحهم فاخر الثياب.

وقيل اشتقاق الصوفي من الصفاء، أو الصفو، قال الشيخ زكريا: لأن الحق صافاهم وأخلص لهم النعم بما أطلعهم عليه.هـ[من شرحه على الرسالة]. والله در أبي الفتح البستي[436] إذ قال:

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا   جهلا؛ فظنوه مشتقا من الصوف

ولست أمنح هذا الإسم غير فتى   صفا فصُوفي حتى سمي الصوفي

وهذا الإسم، كما قال أبو الفرج ابن الجوزي، ظهر للقوم قبل سنة مائتين.[437]

أما أصل طريقة هؤلاء القوم، كما لابن خلدون وغيره، أنها لم تزل عند سلف الأمة وكبارها، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية.

وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة.

وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا؛ اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية، والمتصوفة.[438]

---

(434) [تلبيس إبليس: 161]

(435) [الرسالة: ص137].

(436) هو أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي من أهل سجستان شاعر أخذ عن أبي حاتم محمد بن حبان توفي ببخارى عام 400 هـ

(437) [تلبيس إبليس: 162]

(438) [مقدمة ابن خلدون: 410]

ثم إن معنى التصوف، على ما فسره به الجريري، وكذا الجُنيد، هو التخلق بكل خلق سني، والتجرد عن كل خلق دني.

وهو بهذا المعنى لا بدعة في الكلام فيه، كما قاله الشاطبي، لأنه إنما يرجع إلى تفقه ينبني عليه العمل، وتفصيل آفاته وعوارضه، وأوجه تلافي الفساد الواقع فيه بالإصلاح. وهو فقه صحيح، وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة، فلا يقال في مثله بدعة، إلا إذا أطلق على فروع الفقه التي لم يُلف مثلها في السلف الصالح أنها بدعة.[439]

وبه تعلم ما تحامل به أبو الفرج ابن الجوزي على كتب القوم المعتبرة، كـ»القوت» و»الإحياء» و»الرسالة».

فإذا قيل: إذا تقرر أن أصل الطريق هو اتباع السنة، والاقتداء بالسلف، والمثابرة على الطاعة؛ فما بالهم في كثير من الأمور استحسنوا أشياء لم تأت في كتاب ولا سنة، كاعتمادهم في كثير من الأحكام على الكشف والمعاينة، وخرق العادة، وكقولهم إنه لا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين، وكأخذهم على المريد أن يقلل من غذائه، إلى غير ذلك؟!

يقال: إن كل ما عمل به الصوفية المعتبرون في هذا الشأن، إن كان له أصل في الشريعة فواضح. وإن لم يكن له أصل فلا عمل عليه.

قال في»الاعتصام»: لأن السنة حجة على جميع الأمة، وليس عمل أحد من الأمة حجة على السنة. ثم قال:

فالصوفية كغيرهم، ممن لم تثبت لهم العصمة، فيجوز عليهم الخطأ والنسيان والمعصية.[قال]: وقد قرر القشيري أن الولي لا يكون معصوما، وإنما يكون محفوظا حتى لا يصر على الذنوب. وقيل للجنيد: أيزني العارف؟ فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[440].[441]

قلت: وبعد أن نقل نحو هذه الجملة أبو عبد الله المسناوي قال: وقد قرر العلامة النظار، أبو إسحاق الشاطبي، قدس الله روحه، هذا المعنى أتم تقرير، وحرر ما

(439) [الاعتصام: 1 /275]
(440) [الأحزاب، الآية: 38]
(441) [الاعتصام: 1 /288 باختصار]

ينبغي في ذلك غاية التحرير. ثم ساق جملة من كلامه، تقرب مما سقناه. ثم قال:

«وقد ارتضى غزالي المتأخرين الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هذا الكلام، وقال: إنه من مكنون العلم.»

[قول الشارح]: «لا ينافي ما ذكره المفسرون وأرباب العربية من أن لفظ الجلالة فاعل لفعل مقدر، أو مبتدأ خبره محذوف، لما يدل عليه السياق والسياق بالاتفاق، لأنه جواب عن سؤال تقدم في قوله تعالى، في حق اليهود: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[442]؛ أي ما عظموه حق عظمته»، أو تعظيمه. قاله ابن عباس. أو ما عرفوه حقَّ معرفته. قاله الأخفش. وقال أبو العالية: ما وصفوه حق صفته. والكل محتمل.

واختير ما للأخفش؛ لأنه الأوفق بالمقام، أي ما عرفوه سبحانه معرفته الحق، في اللطف بعباده، والرحمة عليهم، ولم يراعُوا حقوقه تعالى؛ «إذ قالوا»، منكرين لبعثه الرسل: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[443]، أي شيئاً من الأشياء، فـ «منْ» للتأكيد. واختلف في قائلي هذا القوّل الشنيع، فعن مجاهد أنهم مشركو قريش، والجمهور على أنهم اليهود؛ ومرادهم الطعن في رسالته، عليه السلام، فقيل على سبيل الإلزام: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾[444]؛ فإن المراد انه تعالى قد أنزل التوراة على موسى، عليه السلام، ولا سبيل لكم إلى إنكار ذلك، فلمَ لا تجوّزون إنزال القرآن على محمد ﷺ؟!. «(نُوراً)»، أي بينا بنفسه «(وَهُدىً)»، أي مبينًا لغيره، وهما حالان من الكتاب، «(لِلنّاس)». أخرج ابن جرير عن ابن عباس، قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتابا؟ قال: نعم. قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابا. قال: فأنزل الله: قُلْ يَا مُحمد: (مَن أنْزَلَ الكتَابَ الذي جَاءَ به مُوسَى) إلى قوله: ﴿وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾ أنزله.[445] هـ[446] وحاصل ذلك؛ أنهم أبرزُوا إنزال القرآن في صورة الممتنعات، حتى بالغوا في إنكاره؛ فأُلْزِمُوا بتجويزه.

«إلى أن قال: (قُلِ اللَّهُ)، أي امتنعوا عن الجواب، وعجزوا عن الكلام الصواب بقُل الله، أي أنزل الكتاب، وفي هذا كفاية لأولي الألباب».

---

(442) [الأنعام، الآية: 91]
(443) [الأنعام، الآية: 91]
(444) [الأنعام، الآية: 91]
(445) [الأنعام، الآية: 91]
(446) [جامع البيان: 7/ 177]

وبالجملة؛ فإن سياق الآية في التلاوة لمعنى غير ما أومأ له المصنف، ولكنه تمثل بها للإقبال على الله وترك ما سواه، كما تمثل بها الشبلي لمن قال[له]: أوصني، فقال: «عليك بالله، ودع ما سواه، وكن معه، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[447]».

[التفسير بالإشارة وتباين الآراء فيه]

وكثيراً ما يقع هذا الأخذ لأهل هذه الطريقة، ويسمى هذا عندهم التفسير بالإشارة، وقد تباينت فيه الآراء.

فمن مُعرض عنه طاعن، يَعده من إحالة النصوص عن ظواهرها، وذلك إلحاد.

ففي «العقائد النسفية»: والنصُوص على ظواهرها؛ فالعدول عنها إلى معان يدّعيها أهل الباطن إلحاد. أي ميل وعدول عن الإسلام.[448]

وقال الواحدي (المفسر): صنف أبو عبد الرحمن السلمي «حقائق التفسير»، إن كان قد اعتقد أن ذلك تفسيراً فقد كفر.[449]

وقال حجة الإسلام: وأما صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة، لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة؛ كدأب الباطنية في التأويلات، فهذا أيضا حرام، وضرره عظيم. إلى أن قال:

فإن ما سبق منه إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتى، وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له. وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة، بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم. هـ[450]

ومن مغرم به، لا يرى غيره تفسيراً، وهذا جهل أو غلط. والحقِ، كما قال ابن الصلاح: إن الظن بمن يوثق به من أهل هذه الطريق، إذا قال شيئا من ذلك، انه

[447] [الأنعام، الآية: 91]
[448] [شرح العقائد النسفية: 148]
[449] [بنقل شارح الاحياء في إتحافه عن ابن الصلاح: 4/ 255]
[450] [إحياء علوم الدين: 1/ 27]

لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة؛ فإنه لو كان كذلك، كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، ومع ذلك، فيا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك، لما فيه من الإيهام والإلباس. هـ.

وقال سعد الدين في شرح «العقائد»:

وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة؛ فهو من كمال الإيمان، ومحض العرفان.[451]

والحاصل أن ما جعل من باب الاعتبار والقياس، لا من باب دلالة اللفظ، فلا بأس به، ولكن فيه أيضا الصحيح والباطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الذي تسميه الفقهاء قياسا تسميه الصوفية إشارة. وهذا ينقسم إلى صحيح وباطل.هـ.

وفصّل الإمام أبو إسحاق الشاطبي تفصيلا حسنا في المسألة، فقال:

الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب، إذا صحّت على كمال شروطها، فهي على ضربين:أحدهما ما يكون أصل انفجاره من القرآن، ويتبعه سائر الموجودات. والثاني: ما يكون أصل انفجاره من الموجودات، ويتبعه الاعتبار في القرآن.

فإن كان الأول؛ فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال، لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين، وبحسب التكاليف وأحوالها، لا بإطلاق. وإذا كانت كذلك؛ فالمشي على طريقها مشي على الصراط المستقيم. ولأن الاعتبار القرآني قلما يجده إلا من كان من أهله، عملا به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده، كما لم يخرجوا، في العمل به والتخلق بأخلاقه، عن حدوده. إلى أن قال:

والشاهد على ذلك ما نقل من فهم كلام السلف الصالح فيه، فإنه كله جار على ما تقضي به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية. ثم قال:

(451) [شرح العقائد: 148]

وإن كان الثاني؛ فالتوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازم، وأخذه على الإطلاق فيه ممتنع، لأنه بخلاف الأول، فلا يصح إطلاق القول باعتباره في فهم القرآن.[452]

[الذكر بالإسم المفرد]

ثم اعلم أن هذه الإشارة تُفهم جواز الذكر بالإسم المفرد، وهو الله، لأن ظاهر العبارة: قل هذا الإسم. وهو عند أهل الطريق من أشهر الأذكار المستعملة في أورادهم.

وقد سئل عز الدين بن عبد السلام، عن رجل يذكر فيقول: الله الله، ويقتصر على ذلك، [هل هو مثل قوله: سبحان الله، والحمد الله، والله أكبر، وما أشبه ذلك أم لا؟ وإذا لم يكن بمثابته فهل هو بدعة لم تنقل عن السلف أم لا؟ فأجاب: هذه بدعة لم تنقل عن الرسول، ولا عن أحد من السلف، وإنما يفعله الجهلة. والذكر المشروع كله لا بدّ أن يكون جملة فعلية أو إسمية، وهو مأخوذ من الكتاب والسنة وأذكار الأنبياء. والخير كله في اتباع الرسول واتباع السلف الصالحين، دون الأغبياء من الجاهلين. هـ][453]

[....][454] لا يقتضي منعه ولا كراهته. وكم من أشياء لم تكن في عهد السلف، مع أنها جائزة أو مستحيلة أو واجبة. إلى أن قال: فلا ينبغي التوقف في ذلك، ولا التشغيب في إنكاره والطعن على من فعله من الأئمة؛ كيف وأصول الشريعة لا تأباه، ولا تدل على خروجه عن ذكر الله لفظا ولا معنى؛ فلفاعل ذلك ما للذاكرين الله، وانظر «نوازل» أبي محمد سيدي عبد القادر الفاسي[455].هـ.

ويدل لمطلق التكرار ما رواه أبو داود، وورد عن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب، أو في الكرب: الله، الله ربي لا أشرك به شيئا». هـ من باب الاستغفار، آخر كتاب الصلاة.

(452) [الموافقات: 3/ 243]

(453) [مواهب الجليل - آخر باب الردة - للحطاب: 6/ 290]

(454) [هنا سقطت جملة أو أكثر من المخطوطة].

(455) هو أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي الفهري من أشهر كتبه الفتاوي والأجوبة الكبرى أو النوازل الكبرى توفي بفاس عام 1091 هـ.

(تنبيه): وأما قولهم: «يا هو»، فقد تعقبه عليهم النحاة، لأن نداء ضمير المتكلم والغائب ممنوع حتى قال أبو حيان: فكلام جهلة الصوفية في قولهم: «يا هو»، و«يا ذا»، ليس جاريا على كلام العرب. وردّ بأنه صار اسما للذات العلية ولم يبق ضمير.

قال العلامة الصبان: ولا يرد انه سمع: يا هو، يا من لا هو إلا هو. لأن هو في مثله اسم للذات العلية لا ضمير.هـ.

بل النداء بهذا الإسم عندهم من أرفع الأذكار، لما انطوى عليه من عجيب الأسرار؛ ففي «تفسير» الإمام الرازي:

«واعلم أن لفظ «هو»؛ فيه أسرار عجيبة، وأحوال عالية، فبعضها يمكن شرحه وتقريره وبيانه، وبعضها لا يمكن». قال:

«وأنا، بتوفيق الله، كتبت فيه أسراراً لطيفة؛ إلا أني كلما أقابل تلك الكلمات المكتوبة، بما أجده في القلب من البهجة والسعادة عند ذكر كلمة «هُو»، أجد المكتوب بالنسبة إلى تلك الأحوال المشاهدة حقيراً. فعند هذا عرفت أن لهذه الكلمة تأثيراً عجيبا في القلب لا يصل البيان إليه، ولا ينتهي الشرح إليه. فلنكتب ما يمكن الوصول إليه فنقول: فيه أسرار، الأول أن الرجل إذا قال: يَا هُو، فكأنه يقول: من أنا حتى أعرفك، ومن أنا حتى أكون مخاطبا لك، وما للتراب ورب الأرباب، وأي مناسبة بين المتولد عن النطفة والدم، وبين الموصوف بالأزلية والقدم! فأنت أعلى من جميع المناسبات، وأنت مقدس عن علائق العقول والخيالات. فلهذا السبب خاطبه العبد بخطاب الغائبين، فقال: يا هو».هـ. انظر تمام الأسرار في التفسير المذكور.[456]

---

(456) [هنا فراغ نحو نصف صفحة، وربما سقطت بعدها صفحات، وهو ما يتعلق بشرح قول المصنف:(فإنك كررت على السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى، عليه الصلاة والسلام) إلى قوله: (وخصائص هذه الدرجة العلية)]. وتتميما للفائدة أنقل هنا ما كان كتبه المؤلف قبل هذه الدروس، في مخطوط آخر له، حول شرح هذه الفقرات التي سقطت، قال: (فإنك): جواب (أما)، والجملة ادعائية اعتراضية. (كررت): التكرار إعادة ذكر الشيء مرة فصاعدا، ويطلق على الذكر الثاني والأول ومجموعهما. (عليَّ السؤال)، وتعلق (عليَّ) بـ (كررت) لما فيه من معنى الإلحاح. و(السؤال): الطلب. (في مجموع): من الجمع: ضد التفريق. وفي العرف: كتاب يجمع من كلام الغير، كما قال:

لله مجموع له رونق * كرونق الحبات في عقدها
كادت مجامع الورق عنده * تموت للخجلة في جلدها

وفي كلامه، رحمه الله، هضم لنفسه بأنه ليس له فيه إلا الجمع. (بتضمين): التضمين جعل الشيء في ضمن شيء. (التعريف). الإعلام (بقدر)، رتبته، شرفه، (المصطفى): المختار المنتخب، صفة غلبت عليه ولم تبلغ حدّ العلمية كالرحمان، ولو كان علما بالغلبة لزم تعريفه باللام أو الإضافة، وليس كذلك، وانما ذكر في الأسماء لأنهم لم يخصوها باللام كما يأتي. وأسماؤه، عليه السلام، توقيفية على المشهور. (عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توقير)، أي تعظيم (وإكرام)، أفعال من كرم بمعنى نفس، (وما حكم من لم يعرف)، يؤدي، (واجب عظيم)، أي واجبا لعظيم (ذلك القدر)، أي ذلك القدر العظيم، (أو) ما حكم من (قصر)، أي أجحف وفرط (في حق منصبه)، أي حسبه ونسبه، أو مقامه أومقداره (الجليل) الشريف (قلامة) فعالة من القلم: ما يلقى من الشيء، وله نظائر كما ذكرها الثعالبي وابن قتيبة. (ظفر): الظفر

وهاهنا مهامِه فيحٌ تحار فيها القَطَا، وتقصر بها الخُطَا، ومجاهل تضل فيها الأحلام، إن لم تهتد بعلم علم ونظر سديد، ومداحض تزلّ بها الأقدام، إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأييد. لكني؛ لِمَا رجوته لي ولك في هذا السؤال والجواب؛

من نوال وثواب، بتعريف قدره الجسيم، وخلقه العظيم، وبيان خصائصه، التي لم تجتمع قبلُ في مخلوق، وما يُدانُ الله تعالى به من حقه الذي هو من أرفع الحقوق؛

(يتبع)

[تهيب المصنف من صعوبة هذا الموضوع لما يتطلبه من سعة الاطلاع]

قوله: (مهَامِهَ فيح تحار فيها القطَا) الخ. سُميت المفازة البعيدة مهمها، لأنها لكونها مخوفة، تخفض فيها الأصوات، فيقول كلُّ لرفيقه: مَهْ مَهْ. كما سميت المفازة اصمت. قوله: «(والفيح)، بكسر الفاء جمع فيحاء» الخ.

اعلم ان المهمه؛ يذكر ويؤنث، كما قاله الشهاب. وعليه فيجوز وصفه بالصفة المذكرة والمؤنثة، فما قاله التلمساني صحيح أيضا. وكلام المصنف على وجه الاستعارة التمثيلية؛ شبّه بيان ما ذكر لصعوبته بفلاة، لاحتياجه لسعة الاطلاع،

معلوم، وفيه لغات أفصحها: ظفر بضمتين، وتسكن للتخفيف. وقلامة ظفر كناية عن القلة والحقارة. (وأن أجمع لك ما لأسلافنا): جمع سلف، وهو ما مضى من أصولك وأقربائك، ثم عم لكل متقدم: والمراد من تقدم من العلماء، وهو المتبادر عند الإطلاق، (وأئمتنا في ذلك)، أي أئمة الدين المقتدى بهم: (من مقال)، بيان لما. (وأبينه)، بالنصب عطف على (أجمع). (بتنزيل)، هو في الأصل الإهباط من علو إلى سفل. (صوره): جمع صورة، وهي النوع، أو الصفة أو الفرد، ومنه قول الفقهاء: صورة المسألة، أو نوعها، أو صفتها. أو مرادها. (وأمثال): جمع مثل أو مثال، والمعنى: وأوضح ما أنقله عن المتقدمين بذكر أفراده أو صفاته وأمثلته بالتنزيل مستعار لذكر الأفراد الخارجية، فان الكلي لعدم تحققه في الخارج، بعيد عن الأفهام كالعالي والجزئي محسوس، فهو كالسافل. قلت: الا ترى لو كان إنسان لا يعرف الأسد فقلنا له: الأسد هو الحيوان المفترس. فهذا التعريف كلي إذا حصل في ذهن هذا الانسان المعنى. فإذا جئنا له بفرد من أفراد الأسد وشاهده حصل له العلم الجزئي وخرج من الذهن إلى العيان. (فاعلم)، أمره بالعلم لصفوبة المطلب. (أكرمك الله)، جملة اعتراضية دعائية، (انك حملتني)، بالحاء المهمة: كلفتني ما يشق، كحمل الأثقال: فهو استعارة تمثيلية، وهي في هذا اللفظ كثيرة، ففي القرآن: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها) الخ. وقال الشاعر: * حملت أمرا عظيما فاصطبرت له / وقمت فيه بأمر الله يا عمرا * (من ذلك) الإشارة للمسؤول عنه، وفيه تقدم البيان على المبين. (أمرا)، بفتح الهمزة: واحد الأمور، (إمرا)، بكسر الهمزة معناه عظيم. أي كلفتني أمرا عظيما لا أصفه، وبين أمر وإمرا جناس التحريف. (وأرهقتني): الارهاق تكليف ما لا يطاق، (فيما ندبتني إليه)، أي طلبته مني (عسرا)، بضم العين وسكون السين وبضمه كما قرئ به، أي عسيرا. قلت: إن جملنا الإرهاق على ما تقدم، لا بد من تجريد معناه، فيكون المراد منه مطلق التكليف، بدليل (عسرا): لكن اللائق حمله على مطلق التكليف، وفي اللغة ما يدل على أنه يستعمل بمعنى الأول والثاني. وفي البيضاوي ما يظهر منه الحمل على المعنى الثاني: فإنه قال في قوله تعالى: (ولا ترهقني من أمري عسرا): أي لا تغشني عسرا من أمري. (وأرقيتني)، أصعدتني (بما كلفتني مرتقى)، إما

وتوقفه على أنظار دقيقة في معرفته مقام النبوة، فإنه قد يقع فيها ما لا يليق به ﷺ، أو يصفه بما ليس فيه، فيدخل في زمرة من كذب عليه ﷺ . قاله الشهاب.[457]

[القطا وما توصف به من الهداية]

قوله: «طيرٌ يضرب» الخ. قال الدميري: القطا: طائر معروف، واحده: قطاة، والجمع قطوات، وقطيات. وممن ذكر أن القطا من الحمام: الرافعي في كتاب الحج والأطعمة. ومن أهل اللغة: ابن قتيبة. وأنشد قول النابغة الذبياني:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت   إلى حمام شراع وارد الثمـــــد

[هـ].[458]

قوله: «فيقال هو أهدى من القطا» الخ. قال الدميري[459]: وتوصف القطا بالهداية، والعرب تضرب بها المثل في ذلك، لأنها تبيض في القفر، وتسقي أولادها من البعد في الليل والنهار، فتجيء في الليلة المظلمة وفي حواصلها الماء، فإذا صارت حيال أولادها صاحت: قطا قطا، فلم تخطئ، بلا علم ولا إشارة ولا شجرة! فسبحان من هداها لذلك. قال الشاعر:

مصدر أو اسم المحل، (صعبا)، شاقا، (ملأ قلبي رعباً)، أي فزعا، (فإن الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول)، أي يقتضي تحقيق قواعد (وتحرير)، أي تلخيص وتهذيب (فصول): جمع فصل، بمعنى فاصل أو مفصول، والتقرير ترديد الكلام على المخاطب حتى يفهمه، ومنه تقرير الدرس للطلبة، والأصل فيه جعل الشيء قارا في مكانه. وأما التحرير فأصله جعل الشيء حرا، أي خالصا، ومنه حر الوجه لأكرم موضع منه. وأما التحرير بمعنى الكتاب فخاص أريد به عام، وأصله الكتابة الملخصة. (والكشف) بالنصب عطف على مفعول يستدعي، أي ويستدعي الكشف، أي التبيين. قلت: المناسب، أي إزالة الغطاء لكن يلزم منه التبين، (عن غوامض): جمع غامضة، أي مسائل غوامض، أي غير واضحة، (ودقائق)، مجرور بالفتحة عطف على غوامض، وجمع دقيقة من الدقة، أي صغر الجرم استعير للصعب الإدراك، (من علم الحقائق): جمع حقيقة، وهي في كلام العرب الأمور التي يحق حمايتها. قال الخليل: الحقيقة ما يصير إليه حق الشيء ووجوبه. والحقائق عند أهل السلوك: الأمور المدركة بتصفية الباطن. وقال الشيخ علي، وهي، أي الحقائق، الأمور الثابتة من الأدلة النقلية والعقلية. هـ ولا يخفى مناسبة المعنى إذا لـلغة، وهو واضح. (مما يجب)، بيان لما قبله، (للنبي ويضاف إليه)، أي ينيب، (أو يمتنع عليه)، أي مما لا يليق بمقامه، (أو يجوز عليه) من أمور البشر، وإن كان عليه السلام هو بشر لا كالبشر، فهذه أقسام ثلاثة أشار ابن عاشر للقسم الأول:

(يجب للرسل الكرام الصدق * أمانة تبليغهم يحق). والثاني: (محال الكذب و*وعدم التبليغ). والثالث: (يجوز في حقهم كل عرض* ليس مؤد بالبعض كالمرض). وسيأتي ذلك للمؤلف مفصلا. (ومعرفة)، بالنصب للعطف على مفعول (بستدعي)، أو بالجر على ما يجب المجرور بمن(معنى النبوة والرسول والرسالة والنبوة وخصائص هذه الدرجة العلية)، بالجر عطفا على النبي، أي ومعرفة خصائص، والدرجة: المرقاة، والمراد هنا رتبة النبوة والرسالة.].انتهى من خط المؤلف.

(457) [نسيم الريــاض: 1 /43]

(458) [كتاب الحيوان: 2 /276]

(459) هو أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى الدميري عالم مصري وفقيه ومدقق من أشهر مؤلفاته حياة الحيوان الكبرى توفي بمصر عام 808 هـ

والناس أهدى في القبيح من القطا   وأضلّ في الحُسنى من الغربـــــان

وقال أبو زياد الكلابي: إن القطا تطلب الماء من مسيرة عشرين ليلة، وفوقها هـ.[460]

قلت: والمؤلف لما شبّه المشاكل الكثيرة بالمفازات الواسعة، على طريق الاستعارة التصريحية، أتى بهذه الجملة ترشيحاً لتلك الاستعارة لملاءمتها للمشبه به، وهو المهامه، مشتملة على استعارة أخرى تصريحية، حيث شبّه أهل العقول والنباهة بالقطا، بجامع الهداية؛ فأهل النباهة يهتدون في ظلمات المشاكل، كما تهتدي القطا في ظلمات المجاهل. واقتصر على المشبّه به، على قاعدة [الاستعارة] التصريحية.

والمعنى: وهاهنا مشاكل كثيرة تتحيّر فيها أهل العقول والنباهة، فضلا عن القاصرين أولي المهامه.

قوله: «ولهذا يقال فلان أصدق»الخ. أي وذلك لأنها إذا صوتت تصوت باسم نفسها، فتقول: قطا. ولذا يقال أيضا: أنسب من قطاة. قال في «مجمع الأمثال»: أصدق من قطاة، لأن لها صوتا واحدا لا تغيره، وصوتها حكاية لاسمها، تقول: قطا قطا. ولذلك تسميها العرب الصدوق، وكذلك قولهم: أنسب من قطاة، لأنها إذا صوتت عُرفت.هـ.[461]

قوله: (بعَلَم علم)إلخ. علم الأول بفتحتين: العلامة المنصوبة في الطريق، وتسمى نصبا، والجبل، قال الشاعر:

إذَا قَطعْنَا عَلمًا بدَا عَلــمٌ   [ألخ]

وقالت الخنساء:

وإن صَخْراً لتأتمُ الهداةُ بـــــه   كأنّـــه عَلمٌ في رأســه نـــارُ

وعلم الثاني بكسر: ضد الجهل، وهو إضافة المشبه به للمشبه، أي لم تهتد بعلم عظيم كجبل، بدليل التنكير لأن التنكير من نكته التعظيم، كقوله: *له حاجب عن كل شيء يشينه*، أي حاجب عظيم. ويحتمل أن يكون المعنى إن لم تهتد بدليل علم أو بمرشد علم، فيكون من إضافة الصفة للموصوف، أي بعلم مرشد. ويجوز أن يكون علم استعارة تصريحية، أي بعالم كالعلم، لأنهم يقولون: فلان جبل في العلم.

---

[460] [كتاب الحيوان: 2 /278]

[461] [مجمع الأمثال، للميداني: 1 /278]

(تنبيه): كما يضاف المشبه به للمشبه، كما في لجين الماء، يضاف المشبه للمشبه به كقولك: نهر شربت ماء الدر المذاب. وبين علَم وعلم جناس التحريف.

قوله: «وأغرب الحلبي» الخ. لا إغراب، كما علمتَه. قوله: «وأبعد»الخ. لا مانع من هذا الحمل أيضا.

وحاصل ما أشار إليه الشارح في هذه العبارة؛ أربعة أوجه: ما قرر به أولا من أنه العلامة، أي الدليل والمرشد. ثانيها: ما ذهب إليه الحلبي من أن العلم الجبل. ثالثها: من حمله على الراية. رابعها: ما ذهب إليه الدلجي من أنه من إضافة المشبه به إلى المشبه، وكأن هذا الوجه هو الذي للحلبي، كما هو ظاهر، وسبق بيان هذا في التقرير.

ولكن الشارح أشار إلى الجواب بأن القائل بأن العلم الجبل، وكذلك القائل بأنه الراية؛ يصح على وجه الاستعارة، فمعنى الأول: إن لم تهتد بعالم كالجبل في العلم، والثاني: إن لم تهتد بعالم كالراية في العلم، لشهرته وكون من عداه تحته. والله أعلم.

قوله: (ونظرٌ سديد) الخ؛ أي تأمل. وعرّف أهل العقول النظر بأنه الفِكر، وهو ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول، وقيل ملاحظة المعقول لتحصيل المجهول.

قوله: «أي مزالق» الخ. حاصله؛ أي مداحض، جمع مدحض: محل الدحض أي الزلق، أي وهنا مزالق الخ. شبّه المباحث العويصة بموضع فيه طين أو نحوه، أو بمحل منحدر تزلق فيه الأقدام، بجامع صعوبة المنال، فالمشبه هو المباحث، والمشبه به هو المداحض؛ ففي الكلام استعارة تصريحية. والمعنى: وههنا مباحث عويصة.

قوله: (تزل بها الأقدام) الخ. قال الشهاب»: وهو استعارة تمثيلية لكثرة الخطإ[462]. والجملة ترشيح للاستعارة في مداحض.

قوله: (لَما رجوته)الخ. الجار والمجرور يتعلق بمقدر مقدم أو مؤخر، أي أجبتك لما الخ. وهذا معنى قوله: «والحاصل»الخ. قوله: «ولا يبعد»الخ. بل هو بعيد. أو غير صحيح كما صرح به هو نفسه في قوله: إلا انه يمنع. ولهذا قال الشهاب: وليس (لما)، بفتح اللام وتشديد الميم، ولا ما المصدرية، لاحتياجه للتكلف.[463]

---

(462) [نسيم الرياض: 1 /45]

(463) [نسيم الرياض: 1 /46]

قوله: (لي ولك) الخ. هذه نحو عبارة الشيخ ابن أبي زيد القيرواني، في أول «الرسالة»، حيث قال: لما رجوته لنفسي ولك من ثواب مَن علم دين الله، أو دعا إليه. هـ قال ابن ناجي[464]: ولَم يقطع بحصول الثواب، لأن القبول مغيب، وهو متوقف على العاقبة. هـ[465]

قوله: «ونشرع» الخ. أي فالجواب ناظر لقوله: (لي)، والنوال ناظر لقوله: (لك).

قوله: (من نوال وثواب) الخ. النوال في اللغة: العطاء، كالنائل والمنال والتناول، تفاعل منه. والثواب: من ثاب إذا رجع، وأصله الجزاء بخير أو شر، لكن خصصه العرف والشرع بالخير، كما في «النهاية».

قلت: والظاهر أن قوله:(وثواب)؛ عطف تفسير على قوله: (نوال)؛ فكأنه قال: من نوال هو الثواب، ولم يقل في هذا السؤال والجواب من ثواب، لأجل تحسين السجع.

وكون السؤال، وهو العطاء الدنيوي، راجع لسائل، والثواب راجع للمصنف، في غاية البعد. لأن القصد الصحيح بالتعلم والتعليم هو ثواب الآخرة لا عطاء الدنيا؛ كيف ورسول الله ﷺ، يقول، فيما رواه أبو داود وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال على شرط البخاري ومسلم، عن أبي هريرة: «من تعلم علما مما يُبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا؛ لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة»، يعني ريح الجنة.

[خصائصه، عليه السلام خمسة أنواع]

قوله: (وخصائصه) الخ. الخصائص جمع خصيصة، وهو ما خصه الله تعالى به عن كل ما سواه، أو انفرد به عن غيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أو عن أمته. والأولى خصائص مطلقة حقيقية، وما عداها إضافية. وليس جمع خاصة لأنها كالخاص خلاف العامة، لا بمعنى ما انفرد به، ولا الخاصة بمعنى الأثر الذي لا يظهر سببه، كجذب المغناطيس الحديد، في مصطلح الأطباء، وكخواص التراكيب عند أهل المعاني، على ما فصل في شرح المفتاح. قاله الشهاب[466].

[464] هو قاسم بن عيسى بن ناجي القيرواني فقيه مالكي تونسي من أشهر مؤلفاته شرحه على رسالة ابن أبي زيد القرواني توفي 837 هـ

[465] [شرح الرسالة لابن ناجي: 1 /15]

[466] [نسيم الرياض: 1 /47]

وقد ألف أناس في الخصائص كتبا متعددة، والذي خص به، عليه السلام، دون أمته، خمسة أنواع.

الأول: ما وجب عليه ﷺ، دون غيره تشريفا له وتكثيرا لثوابه. قال إمام الحرمين: قال بعض العلماء: ثواب الواجب يزيد على ثواب النافلة بسبعين درجة.

الثاني: ما وجب له ﷺ، على غيره، كإجابة المصلي إذا دعاه تشريفا له.

الثالث: ما حرم عليه دون غيره، تشريفا له أيضا، كأكله الثوم.

الرابع: ما حرم على غيره لأجله، كندائه باسمه.

الخامس: ما أبيح له دون غيره، كتزوجه ﷺ، زيادة على أربع. انظر ذلك مفصلا في شراح «المختصر».

[مسألة هل يمكن بحسب القدرة خلق أفضل من نبينا ﷺ]

قوله: «ومن المعلوم استحالة وجود مثله بعده»الخ. في «المعيار» للإمام الونشريسي[467]: سئل ابن عبد السلام، هل يمكن، بحسب القدرة، أن يخلق الله أفضل من نبينا ﷺ، أم لا؟ فأجاب بأنه ممكن، لكنه لم يقع.

فبلغ ذلك بعض معاصريه من علماء تونس، وهو الشيخ الفقيه أبو الحسن بن منتصر، فكتب إلى ابن عبد السلام: «يا محمد. ليت أمّك لم تلدك، وليتها إذ ولدتك لم تتعلم، وليتك إذ تعلمت لم تتكلم.» فقال ابن عبد السلام: ما للمرابطين والدخول في الفضول!؟

وقال أبو سعيد السلوي: القدرة لا تتعلق إلا بالممكنات، وأما المستحيل فليس بمقدور عليه، ولا بمعجوز عنه، والنبي ﷺ، خلقه الله تعالى أفضل البشر، استحال أن يكون غيره أفضل.هـ. قال الونشريسي:

واعتراض المعترض على ابن عبد السلام؛ قصورٌ و تحامل عليه، وانتقادُ لجوابه من غير تدبر! لأن المسألة خلافية. قال الشيخ العلامة سعيد العقباني، في شرحه للعقائد البرهانية:

[467] هو أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي ولد بتلمسان واستقر في فاس من أشهر كتبه كتاب المعيار المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والمغرب توفي عام 914 هـ

اعلم أن الشيء قد يكون ممكنا في نفسه، ويعرض له أمر فيصير محالا، كإيمان أبي جهل مُمكن في نفسه، لكنه لما تعلق علم الله بعدم وقوعه، صار من هذا الوجه محالا. فما يكون مثل هذا، هل تتعلق به القدرة نظراً إلى إمكان ذاته، أو لا تتعلق به - لأن العلم القديم يؤذن بأنه محال - اختلف فيه.هـ. فيظهر لك من هذا الكلام؛ النزاع والخلاف في هذه المسألة بين المتكلمين، والأرجح عندهم تعلق القدرة به، وهو جواب ابن عبد السلام. هـ كلام الونشريسي.[468]

قال العارف سيدي عبد الرحمن الفاسي إثره: وأقول إن هذه المسألة تنظر لقول حجة الإسلام: ليس في الإمكان أبدع مما كان. وقد تكلم على هذه المسألة في كتاب «الانتصار» له، بما يطول جلبه. وكذا قررها ابن أبي شريف في جواب له طويل، إلى أن قال فيه: وليس في قول حجة الإسلام هذا إيجاب شيء عليه تعالى، ولا تحجير على القدرة، ولا فيه نفي أنه لا يقدر على غير هذا العالم، بل هو قادر على إبراز عوالم لا نهاية لها، ولكنه تعلق علمه القديم ووقع اختياره وإرادته بإيجاد ما اتصف بالإبداع، لكونه أدل على ما اقتضته صفاته. فقوله ليس في الإمكان أبدع مما كان؛ أي ليس فيما تعلقت القدرة وسبق به العلم والإرادة من الممكنات، أبدع مما وجد لما قلناه، يعني من الدلالة بذلك على كماله، ولا يدل إلا من حيث كونه أبدع. قال: وأيضا فكلام حجة الإسلام لا ينافي إيجاد مساو في الإبدعية، وأنه تعالى يقدر على ما لا يتناهى مما هو مساو في الإبدعية الدالة على مقتضيات أسمائه بالدليل الأتم، والله تعالى أعلم.هـ.

قلت: والمسألة تعرض لها الإمام، حجة الإسلام، في بيان حقيقة التوحيد، وأطال شارحه العلامة مرتضى في المسألة، وأتى بمقال المنتصر والمعترض، فانظر ذلك في الجزء التاسع، ورقة434.

قوله: «بعد حق الحق»الخ. أي بعد حق الله تعالى.

[ثم قال المصنف]:

(ليَستيقنَ الذِين أوتوا الكتابَ ويزْدادَ الذينَ آمنوا إيمانا). ولما (لتبيّننه للناس ولا تكتمونه). ولما حدثنا به أبو الوليد، هشام بن أحمد الفقيه، رحمه الله تعالى، بقراءتي عليه، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا أبو عمر النمري، حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر محمد بن بكر، حدثنا سليمان بن الأشعث، حدثنا موسى بن إسماعيل،

[468] [المعيار: 2/ 309 باختصار]

حدثنا حماد، أخبرنا علي بن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من سُئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة».

[معنى الآية الكريمة وسياقها]

قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ الآية [469]. قد علمت أن الشارح حمل قوله: (أوتُوا الكتَابَ) على العلماء، أي ليستيقن العلماء نبوة محمد ﷺ. وحمل قوله: (ويَزْدَادَ الذِينَ آمَنُوا إيمَاناً)؛ على أن المراد به العوام، أي ليزيد به عوام المؤمنين إيمانا. أو المراد به الأعم.

وفي «نسيم الرياض»، للشهاب: واقتبس المصنف، رحمه الله، الآية هنا، تعليلا لتعريف قدره وخلقه، فكأنه قال بتعريف فضائله وخصائصه بتحقق تيقن أهل الكتاب حقية رسالته، لموافقته لنعته المذكور في كتبهم، ويزداد إيمان المؤمنين من أمته بتحقق ما له ﷺ، من المحامد. فالمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى. والكتاب التورية والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية. وتخصيص هؤلاء بالذكر ليس للحصر، لأن المراد تعميمه وشموله لجميع أهل العلم بأحوال الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا بمجرد اتباع معنى النظم القرآني وإن لم يطابق السياق كما قيل.[470]

ثم أتى بما قرر به الشارح، فقال: وقد يقال المراد بالذين أوتوا الكتاب؛ أهل العلم بالتفسير والحديث، وبمن بعدهم من عداهم. هـ[471]

ثم إن سياق الآية في غير هذا المعنى التي أتى بها المصنف، وإنما الآية وردت في عدد خزنة جهنم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[472]. أخرج ابن جرير عن ابن عباس؛

(469) [ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا): المدثر من الآية: 31]

(470) [نسيم الرياض:1/ 47]

(471) [نسيم الرياض: 1 /48]

(472) [المدثر. من الآية: 31]

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾: فلما سمع أبو جهل بذلك قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم ألدهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم!؟. فأوحي إلى رسول الله ﷺ، أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[473]. فلما فعل ذلك رسول الله ﷺ، قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئا. فأخزاه الله يوم بدر.[474]

قوله: (ولما) الخ. علة ثانية، وما واقعة على الميثاق والعهد، وقد بينها الشرح بقوله: «من الميثاق». قوله: «أي استحلفهم»؛ هذا تفسير للميثاق. قال الخازن: وأصل الميثاق في اللغة: عقد يؤكد بيمين. ومعنى ميثاق النبيئين: ما وثقوا به على أنفسهم من طاعة الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه.[475]

وقال الشهاب، فيما سيأتي: وأخذ المواثيق في معنى الاستحلاف، ولذا دخلت لام القسم في قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾[476]. هـ

وملخصه أن قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ بلام مفتوحة: جواب القسم. فإن قلت: إنه لا قسم هنا؟ أجاب بأن قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ﴾[477]، هو في معنى الاستحلاف؛ فقام مقام القسم. قوله: والمعنى ليظهرنّ الخ، فيه إشارة إلى أن الضمير المنصوب للنبي ﷺ، وبه صرح الشهاب، حيث قال: والضميران المنصوبان للنبي ﷺ، لعلمه مما سبق في كلام المصنف، رحمه الله تعالى، وإن كان في النظم بخلافه، فلا حاجة إلى القول هنا بأنه علم من السياق وإن لم يجر له ذكر كما قيل.[478]

قوله: أي شيئا منه الخ. هذا كأنه جواب عما يقال إن البيان يضاد الكتمان، فلما أمر بالبيان كان الأمر به نهيا عن الكتمان، فما الفائدة في ذكر النهي عن الكتمان؟ أجاب الشارح بأن قوله تعالى: (وَلَا تَكْتُمُونَهُ)[479]؛ تؤكد رفع احتمال عدم الشمول.

وأجاب غيره عن هذا، ومنهم الشيخ زادة، بأن المراد بالبيان ذكر الآيات الدالة

---

(473) [القيامة، الآية: 34 ـ 35]
(474) [جامع البيان: 29/ 100]
(475) [لباب التأويل: 1/ 245]
(476) [آل عمران، من الآية: 81]
(477) [آل عمران، الآية: 187]
(478) [نسيم الرياض: 1/ 48]
(479) [آل عمران، الآية: 187]

على نبوته ﷺ، من التوراة والإنجيل. والمراد من النهي عن الكتمان أن يلقوا فيها التأويلات الفاسدة والشبهات.[480]

قوله: «أو الضمير للكتاب» الخ، أي لتبينن الكتاب. ولا شك أن في تبيين الكتاب تبيين أمر محمد ﷺ.

ثم إنه اختلف أهل التأويل في الآية المقتبس منها، هل المعني بها اليهود خاصة، ورُوي عن ابن عباس والسدي. وقال آخرون: المعني بذلك من أوتي علما بأمر الدين، وروي هذا عن قتادة، فإنه قال:

هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئا فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلفن رجل ما لا علم له به، فيخرج من دين الله فيكون من المتكلفين، كأن يقال مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه، ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب، وكأن يقال طوبى لعالم ناطق، وطوبى لمستمع واع، هذا رجل علم علماً فعلمه وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيراً فحفظه ووعاه وانتفع به.هـ.

وقال آخرون معنى ذلك: وإذ أخذ الله ميثاق النبيئين على قومهم، انظر تخريج الأقوال في «تفسير» ابن جرير، وفي الخازن.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، أي واذكر يا محمد وقت ﴿إِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[481]، يعني اليهود والنصارى، والمراد منهم العلماء خاصة.

وقيل المراد بالذين أوتوا الكتاب العلماء والأحبار من اليهود خاصة، وأخذ الميثاق هو التوكيد والإلزام لبيان ما أو توه من الكتاب، وهو قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾[482]، يعني ليبينن ما في الكتاب، وليظهرنه لِلناس حتى يعلموه، وذلك أن الله أوجب على علماء التوراة والإنجيل أن يشرحوا للناس ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ.

قوله: «وقد قرأ بهما السبعة». أي بالياء والتاء، وقد انتصر الإمام ابن جرير لقراءة الياء، ولفظه:

(480) [حاشية الشيخ زادة: 1 /693]
(481) [آل عمران، الآية: 187]
(482) [آل عمران: الآية: 187]

واختلف القراء في قراءة ذلك، فقرأه بعضهم: لتبيننه للناس ولا تكتمونه، بالتاء، وهي قراءة أعظم قراء أهل المدينة والكوفة، على وجه المخاطب؛ بمعنى: قال الله لهم: لتبيننه للناس ولا تكتمونه. وقرأ ذلك آخرون: ليبيننه للناس ولا يكتمونه، بالياء جميعا على وجه الخبر عن الغائب، لأنهم في وقت إخبار الله نبيهﷺ، بذلك عنهم كانوا غير موجودين، فصار الخبر عنهم كالخبر عن الغائب. والقول في ذلك عندنا أنهما قراءتان، صحيحة وجوههما، مستفيضتان في قراءة الإسلام، غير مختلفى المعاني؛ فبأيتهما قرأ القارئ فقد أصاب الحق والصواب في ذلك. غير أن الأمر في ذلك، وإن كان كذلك، فإن أحب القراءتين إليّ أن أقرأ بها: (لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ يَكْتُمُونَهُ) بالياء جميعا، استدلالا بقوله: (فَنَبَذُوهُ)[483]، انه إذ كان خرج مخرج الخبر عن الغائب على سبيل قوله: (فَنَبَذُوهُ) حتى يكون كله متّسقاً على معنى واحد، ومثال واحد، ولو كان الأول، على بمعنى الخطاب، لكان أن يقال: فنبذتموه وراء ظهوركم، أولى من أن يقال: فنبذوه وراء ظهورهم.[484]

واعلم أن الذي قرأ بالياء من القراء، هو ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عباس.

قوله: «حكاية لمخاطبتهم». يعني من قرأ لتبيننه ولا تكتمونه، بتاء الخطاب فيهما، جعله حكاية للخطاب الواقع في وقت أخذ الميثاق، وقال لهم: لتبيننه للناس.

قوله: «فنَبذُوه وراء ظهُورهم» الخ[485]. النبذ وراء الظهر: مثل في ترك الاعتداد وعدم الالتفات، ونقيضه: جعلهَ نصب عينيه، وأبقاه بين عينيه.

قوله: «وعن علي» الخ. هكذا ذكر هذا الأثر البيضاوي في «تفسيره». وفي «تفسير» الخازن، وقال الحسن بن عمارة: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث، فألفيته على بابه، فقلت: حدثني الحكم بن عُيينة عن يحيى بن الخراز قال: سمعت علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يقول: ما أخذ الله على أهل[الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا،] الخ.[486]

وذكر نحوه في «الإحياء» مرفوعا، ولفظه: قال النبي ﷺ: «ما أتى الله عالما

---

(483) [آل عمران، الآية: 187]

(484) [تفسير جامع البيان: 4 /136]

(485) [آل عمران، الآية: 187]

(486) [لباب التأويل: 1 /307]

علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ من النبيئين أن يبينه للناس ولا يكتمه». وهذا الحديث يروى عن أبي هريرة وابن مسعود، وانظر الكلام على سنده في شرح مرتضى[487].

ثم إن مراد المصنف، رحمه الله، بهذه الآية؛ الحضّ على تعليم العلم ونشره. ومن جملة الآي الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[488]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[489]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[490]، وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الخ[491].

[صيغة التحديث]

قوله: (حدثنا) الخ. هذه أول صيغة التحديث في المتن من التحديث، وهو أحد صيغ الأداء عند المحدثين، ولا فرق بين التحديث والإخبار والإنباء والسماع عند المتقدمين، كالزهري ومالك وأبي حنيفة، وعليه استمر عمل المغاربة كما تقرر في محله.

[من اسمه هشام بن أحمد، من شيوخ القاضي عياض]

قوله: (هشام بن أحمد) الخ. ملخص ما هنا أن المسمى بهشام بن أحمد، من شيوخ القاضي عياض الثلاثة. ولهذا وقع الاضطراب في المراد من هو؛ فهناك هشام بن أحمد بن خالد بن هشام الكناني، يعرف بالوقشي، من أهل طليطلة، أنشد فيه كما في «الصلة»:

وكان من العلوم بحيث يُقضَى ... له في كل فن بالجميع

توفي بدانية سنة 489، وكان مولده سنة 408.

[487] [إتحاف السادة المتقين، بشرح أسرار إحياء علوم الدين، للشيخ مرتضى: 1 /105]
[488] [التوبة، الآية: 123]
[489] [البقرة، الآية: 145]
[490] [فصلت، الآية: 32]
[491] [النحل، الآية: 125]

وهناك هشام بن أحمد بن سعيد، يعرف بابن العواد، من أهل قرطبة، أخذ عن ابن رزق، وتوفي سنة 509.

وهناك هشام بن أحمد بن هشام الهلالي، يُعرف بابن بَقْوَة، من أهل غرناطة، سكن المرية، توفي سنة 530.

ثم انه إذا ثبتت نسخة ابن خالد الأندلسي الوقشي؛ زال الاضطراب. وقد أشار لهذه النسخة الشهاب[492]، والله أعلم.

قوله: «ابن أحمد بن هشام بن خالد» الخ. الذي في «صلة» ابن بشكوال: هشام بن أحمد بن خالد بن هشام، بتقديم خالد على هشام. فلعل أحد النسختين وقع فيها تقديم وتأخير. قوله: «اتهم» الخ. قال ابن بشكوال: وقد نسبت إليه أشياء، الله أعلم بحقيقتها وسائله عنها ومجازيه لها. قوله: «وهو إمام» الخ. قال في حقه ابن بشكوال انه كان من حفاظ الحديث المعتنين بالتنقير عن معانيه، واستخراج الفقه منه، مع التقدم في حفظ مسائل الرأي والبصر بعقد الوثائق، والتقدم في معرفة أصول الدين.

[الحسين بن محمد الجياني]: قوله: «بياء نسبة» الخ، أي نسبة لجيَان، قاعدة من قواعد مدن الأندلس في عهد العرب.

قوله: «السجستاني» الخ،[أي سليمان بن الأشعث السجستاني]، بكسر السين المهملة والجيم، وسكون السين الثانية وفتح التاء المثناة من فوقها، وبعد الألف نون هذه النسبة إلى سجستان، الإقليم المشهور. وقيل بل نسبة إلى سجستان أو سجستانة، قرية من قرى البصرة، قاله ابن خلكان.

[حديث العتيرة ومعناها]

قوله: «وكتب عنه شيخه أحمد بن حنبل حديث القتيرة» الخ. هكذا في هذه النسخة بالقاف، وانظر ما معناها؟ ولعل الصواب: حديث العتيرة، بالعين، وهي الشاة تذبح عن أهل بيت في رجب.

وقال أبو عبيدة: العتيرة هي الرجبية؛ ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في

(492) [نسيم الرياض: 1/ 49]

رجب، يتقربون بها لأصنامهم. وقال غيره: كانوا ينذرونه من بلغ ماله كذا، أن يذبح من كل عشرة منها رأسا في رجب.

وذكر ابن سيدة، أن العتيرة: أن الرجل كان يقول في الجاهلية: إن بلغ إبلي مائة عترت منها عتيرة. زاد في الصحاح: «في رجب». انظر الأقوال في «الفتح».

وحديث العتيرة، الذي رواه أبو داود،[هو]ما أخرجه عن المليح قال: قال نبيشة: نادى رجل رسول الله ﷺ: إنا كنا نعتر عتيرة في الجاهلية في رجب، فما تأمرنا؟ قال: «اذبحوا الله في أي شهر كان، وبروا الله عز وجل وأطعموا». قال: إنا كنا نفرع فرعا في الجاهلية، فما تأمرنا؟ قال: « في كل سائمة فرع تغدوه ماشيتك حتى إذا استحمل(قال نصر استحمل للحجيج) ذبحته فتصدقت بلحمه». قال خالد: أحسبه قال: «على ابن السبيل»، قال: «ذلك خير»، قال خالد: قلت لأبي قلابة: كم السائمة؟ قال: مائة. هـ[493]. وأما حديث «لا فرع ولا عتيرة» فهو في البخاري وغيره.

قوله: «وأراه كتابه»، الخ. أي كتاب السنن له.

[الحافظ موسى بن إسماعيل، أبو سلمة التبوذكي]

قوله: «نسبة إلى تبوذك» الخ. بمثناة فوقية، مفتوحة، فموحدة مضمومة، فذال معجمة مفتوحة، تليها كاف: إسم موضع، نزل قوم من أهله عند أبي سلمة هذا؛ فقيل له تبوذكي، أو لأنه كان له دار بها. وأصل معنى التبوذكي من بيع ما في بطون الدجاج ككبدها ونحوه. وقيل إنه نسبة أيضا لبيع التبوذك وهو السرجين.هـ. وأما ما وقع في نسخ الطبع من النون بعد التاء فتصحيف.

قوله: «الدوري» الخ: [أي عباس الدوري]: لعله بضم الدال نسبة لدور، قال في القاموس: والدور بالضم قريتان بين «سرّ من رأى» وتكريت عليا وسفلى هـ. ومن أهل «الطبقات» السبكية: أحمد الدّوري، وقد ضبطه التاج بضم الدال كما قدمناه.

قوله: «وهو ابن سلمة»؛[أي حماد بن سلمة]: صحيح. وأما ما قاله التلمساني: من أنه حماد بن زيد، فليس بصواب، لأن التبوذكي تفرد بالرواية عن حماد بن سلمة، ولم يرو عن حماد بن زيد، كما قاله الشهاب. وحماد بن سلمة قيل انه كان من الأبدال، وعلامة الأبدال أن لا يولد لهم. تزوج سبعين امرأة فلم يولد له. قاله في «الميزان».

قوله: «أي ابن أبي رباح»؛[أي عطاء بن أبي رباح]: صواب. خلافا لما نقله عن

(493) [«صحيح سنن المصطفى»، لأبي داود: 2/ 7]

التلمساني من أنه ابن يسار، لكون المصنف روى هذا الحديث عن ابن عبد البر، وابن عبد البر صرح بأنه ابن أبي رباح. انظر الشهاب.

[الصحابي أبو هريرة، والأقوال في اسمه]

قوله: «وهو عبد الرحمن» الخ عبارة الشهاب. وفي اسمه أقوال نحو الثلاثين، أشهرها أنه عبد الله، أو عبد الرحمن. وكان اسمه في الجاهلية عبد شمس، وأسلم عام خيبر وشهدها، ولازم مجلس النبي ﷺ. صابرا، زاهدا، ولذا عدّ من أحفظ الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، وروي عنه ما لم يرو عن غيره.هـ وانظر ترجمته في «الإصابة» و «الاستيعاب».

قوله: «وقد رأى النبي ﷺ»، الخ: قال ابن إسحاق: قال لي بعض أصحابنا عن أبي هريرة: كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر، فسماني رسول الله ﷺ، عبد الرحمن، وكُنيتُ أبا هريرة لأني وجدت هرة فحملتها في كمي، فقيل لي أبو هريرة. وكذا أخرجه أبو أحمد الحاكم في الكنى من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق، وانظر «الإصابة».

قوله: «والأوجه» الخ. الحاصل ان المعول عليه، ما ذهب إليه الشمني من المنع، قال ابن هشام في «الحواشي»، إثر قول ابن مالك:

*** وشاع الأعلام ذو الإضافة ***

فأجروا على لفظه أحكام غلام زيد، لأنهم شبهوه به، فمن ثم أعربوا كلا منهما، وعلى كل منهما حكم العلم، ومن ثم منعوا صرف أوبر، وآوى في ابن آوى، ونبات أوبر؛ للعلمية والوزن، وإن كان العلم هو المجموع لا الأخير، وقالوا: جاءني أبو بكر بن فلان بترك تنوين بكر، وإن كان الموصوف بابن المجموع لا الأخير.هـ بنقل العلامة يس. ثم قال: «وبقوله: وقالوا: جاءني» الخ؛ يعلم أن إعطاء الجزء حكم العلم، لا يتقيد بالعلم الجنسي وان وقع التقييد بذلك للدماميني، كما نقله في «التصريح» وأقره.

وبهذا يعلم أن هريرة، في أبي هريرة، غير مصروف، كما قاله الشمني في «حواشي» الشفا.

ورُفع في المسألة نزاع بين أهل فاس وتلمسان ـ من بلاد المغرب ـ وأطال في ذلك ابن غازي عند قول الناظم، كبنات الأوبر والراعي، في «الأجوبة المرضية، عن الأسئلة النحوية».هـ من «حواشي» يس» على الناظم.

وقال الشهاب، لما أشار إلى بعض ما في الشرح هنا، وأن الحلبي قال انه ممنوع من الصرف لكثرة الاستعمال، وأطال فيه من غير طائل، [قال]:

وأنا أقول هذا كلام ناشئ من عدم التأمل، وهو مما يقضى منه العجب، فإن السماع فيه منع الصرف، وكتب العربية مشحونة بنقله عن علماء العربية، وهو مصرح به في «إيضاح» ابن الحاجب وفي كتب ابن مالك، ونقله شراح «التسهيل»، واتفق عليه شراح «الكشاف»؛ فإنهم بقاطبتهم قالوا في شهر رمضان المركب الإضافي إذا جعل علما؛ فجزؤه الثاني هو المنظور إليه في أحكام العلمية، ولزوم أل إذا قارنت الوضع وامتناعها في غيره، كابن داية، وصرح به سيبويه وأبو علي، رحمهما الله تعالى، وإنما غرهم فيه كلام بعض المتأخرين من المغاربة. نعم؛ في بعض «حواشي المفصل» انه لا مانع من لمح أصله، إلا انه يأباه السماع. هـ[494]

وملخصه أن الذي انحط عليه كلام المحققين من المتأخرين، هو منع صرف نحو (هريرة) من أبي هريرة؛ إعطاء لجزء العلم حكم الكل، والله أعلم.

قوله: «ومنه قوله في أبي خرامة: أبا خراشة» الخ. البيت للعباس بن مرداس الصحابي، يخاطب خباب بن ندبه، وهو أبو خراشة بضم الخاء وتكسر، وهو صحابي شاعر.[495]

قوله: «وروى أبو شاة في قوله: فقال رجل» الخ. يعني أن شاة من أبي شاة؛ روي مصروفا وغير مصروف، وهذا بناء منه، رحمه الله، على أن التاء للتأنيث، والذي جزم به الحافظ ابن حجر في «الفتح» هو أنه بهاء منونة.

وفي «الإصابة»: وقيل إن هاءه أصلية، وهو بالفارسي معناه الملك. قال، أي السلفي: ومن ظن انه باسم أحد الشياه، فقد وهم.هـ. وقد ثبت ذكره في الصحيحين في حديث أبي هريرة، في خطبة النبي ﷺ، يوم الفتح: فقام رجل يقال له أبو شاة، فقال: اكتبوا لي يا رسول الله. فقال: «اكتبوا لأبي شاة»، يعني الخطبة.هـ. والحديث مذكور في البخاري في كتاب العلم، وفي اللقطة، وفي غزوة الفتح.

---

(494) [نسيم الرياض: 1 /52]

(495) [نص البيت: أبا خراشة أما أنت ذا نفر/ فإن قومي لم تأكلهم الضبع] هـ من الشرح: 1 /17]

قوله: «محمد». اسم مفعول على الصفة للتفاؤل بأنه يكثر حمده.

[تراجم أجداد النبي، عليه السلام]

قوله: «عبد المطلب»: هو شيخ البطحاء، حرّم الخمر على نفسه[496]، وهو أول من تحنّث بحراء، وكان جوادا، ولهذا يسمى الفياض، واسمه شيبة الحمد، قال علي:

شيبة الحمد الذي كان وجهه ... يضيئ ظلام الليل كالقمر البدري

وإنما قيل له عبد المطلب، لأن أباه هاشما قال لأخيه المطلب، وهو بمكة، حين حضرته الوفاة: أدرك عبدك، استعطافا على ولده. وقيل غير هذا. وهو أول من خضب بالسواد، ويقال عاش مائة وأربعين سنة.

قوله: «ابن هاشم». اسمه عمرو. إنما قيل له هاشم لأنه كان يهشم الثريد لقومه في الجدب والمجاعة، وفيه يقول الشاعر:

عمرو العلا هشّم الثريد لقومه ... ورجال مكة مُسنتُون عجافُ

وقوله: «ابن عبد مناف»، الخ. بفتح الميم وخفة النون من أناف ينيف انافة إذا ارتفع، واسمه المغيرة، وكان مطاعا في قريش، ويدعى القمر لجماله. قال الواقدي: وكان فيه نور رسول الله ﷺ، وإياه عنى القائل:

كانت قريشٌ بيضة فتفلّقت ... فالمحُ خالصُهُ لعبد مناف

قال ابن هشام: ومات بغزة.

وقوله: «ابن قصي»، بضم القاف، تصغير قَصي، بفتح فكسر فياء ساكنة، من قصا يقصُو إذا بعد، واسمه مجمع، قال الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر

وقيل زيد، وقيل يزيد.

---

(496) ط: قوله حرم الخمر على نفسه: ممن حرمها في الجاهلية: عبد الله بن جذعان، وشيبة بن ربيعة، وورقة بن نوفل، والوليد بن المغيرة، وعامر بن الظرب، ويقال انه أول من حرمها على نفسه، ويقال بل عفيف بن معديكرب. قاله السيوطي. المؤلف.

وقوله: «ابن كلاب». بكسر الكاف وتخفيف اللام، إما منقول من مصدر كَالب العدو، وضايقه وشارره. وإما من كِلا ب جمع كلب، الحيوان المعروف، يريدون الكثرة، كما يسمون بسباع وأنمار، والعرب تسمي بذلك لأجل التفاؤل بأن يكون المسمى قاهرا لعدوه، ولهذا لما سئل أعرابي لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء، نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسن الأسماء، نحو رزق ومرزوق ورباح!؟ فقال: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا، لأن العبيد كانت عند العرب لا تراد لقتال العدو، بل كان عاراً عندهم ذلك. واسم كلاب حكيم، وقيل عروة وقيل غير ذلك.

وقوله: «ابن مُرّة». بضم الميم، منقول من وصف الرجل بالمرارة، وقواه السهيلي، فالتاء للمبالغة. وله ثلاثة أولاد: كلاب وتيم، ومن نسله الصديق وطلحة و[ ][497] وبه يكنى.

وقوله: «ابن كعب». منقول من كعب القدم، سمي بذلك لارتفاعه وشرفه. وهو أول من جمع الناس لمجرد الوعظ يوم العروبة، أي يوم الجمعة، وكانت تجتمع إليه قريش في هذا اليوم، فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ، ويعلمهم بأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه إن أدركوه والإيمان به، وينشد في ذلك أبياتا من ذلك قوله:

يا ليتني شاهد فحواء دعوته إذا قريش تُبقّي الحق خذلانا

وكان بين موت كعب ومبعث النبي ﷺ، خمسمائة سنة.

وقوله: «ابن لؤي»، بضم اللام والهمزة، ويسهل بإبدال الهمزة واوا تصغير لأى، واللأى الثور، وقيل تصغير لأى بوزن عبد، وهو البطءُ، ضد العجلة، وقيل تصغير لواء زيدت فيه الهمزة. وكنيته أبو كعب، وكان له سبعة ذكور.

وقوله: «ابن غالب»، بصيغة اسم الفاعل. وقوله: ابن فهر، بكسر الباء وسكون الهاء فراء، منقول من الفهر؛ الحجر الطويل قاله السهيلي، أو حجر ملء الكف، أو الحجر الصغير. واسمه قريش وإليه تنسب قريش، فما كان فوقه فكناني لا قرشي، على ما صححه الدمياطي والعراقي وغيرهما. وقيل جماع قريش النضر، وبه قال الشافعي وعزاه العراقي للأكثرين، قال:

أما قريش فالأصح فهرُ جماعها والأكثرونَ النضرُ

(497) [كلمة تعذر فهمها]

وقوله: «ابن مالك»؛ اسم فاعل من ملك يملك. وقوله: ابن النضر؛ بفتح النون وإسكان الضاد المعجمة فراء. واسمه قيس ولقب بالنضر لنضارة وجهه وإشراقه، من النضر اسم الذهب الأحمر.

وقوله: ابن كنانة؛ بكسر الكاف، ونونين مفتوحتين بينهما ألف، ثم هاء؛ منقول من الكنانة التي هي الجعبة، تفاؤلا بأن يكون ساترا لقومه.

وقوله: «ابن خزيمة»؛ تصغير خَزَمة، بمعجمتين مفتوحتين مرة، من الخزم، وهو شد الشيء وإصلاحه، قال ابن عباس: مات خزيمة على ملة إبراهيم، عليه السلام.

وقوله: «ابن مدركة»؛ بضم فسكون، فكسر ففتح ثم هاء مبالغة منقول من أهم فاعل الإدراك، لقب به لإدراكه كل عز وفخر، واسمه عمرو على الصحيح.

وقوله: «ابن إلياس»؛ بكسر الهمزة، كاسم النبي، عليه السلام. واختلف في اشتقاقه، وقيل إنه اليأس، ضد الرجاء، وأن أل للتعريف، والهمزة وصلية. وأنشدوا عليه: *أُمهتي خِندَف واليَاسُ أبي*[498] قال السهيلي: وهذا القول أصح.

وهو أول من أهدى البُدن للبيت. ويذكر عن النبيﷺ، أنه قال: «لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمنا»، وذكر أنه كان يسمع في صلبه تلبية النبيﷺ، بالحج. قاله في «الروض».

وقوله: «ابن مضر»؛ بضم الميم وفتح الضاد المعجمة، غير مصروف للعلمية والعدل. قيل سمي به لأنه كان يحب اللبن الماضر، وهو الحامض. وفي «الروض»: سمي مضر لبياضه، والعرب تسمي الأبيض أحمر، فلذلك قيل: مضر الحمراء. وهو أول من سن للعرب حداء الإبل، وكان أحسن الناس صوتا.[499] قال البلاذري: وذلك أنه سقط عن بعيره وهو شاب، فانكسرت يده فقال: يا يداه، فأتت إليه الإبل من المرعى. وأخرج ابن سعد من مرسل عبد الله بن خالد، قال ﷺ: «لا تسبوا مضر فإنه كان أسلم».

وقوله: ابن نزار، بكسر النون، من النزر، وهو القليل. لقب بذلك، قيل لأنه لما ولد، ونظر أبوه إلى نور محمد ﷺ، بين عينيه؛ فرح فرحا شديدا وأطعم وقال: إن هذا كله

---

(498) [صدر البيت: *إني لدى الحرب رخي اللبب* وتمامه: * أمّهتي خندف والياسُ أبي* - الروض الأنف:1 /7].

(499) [الروض الأنف: 1/8]

نزرا، أي قليل بحق هذا المولود. وقيل لكونه كان فريد عصره، وقيل لنحافته. واسمه خلدان.

وقوله: «ابن معَد»، بفتح الميم والمهملة وشد الدال: مفعل من العد، أو مفعلا من معد في الأرض أي أفسد، لأنه كان صاحب حروب وغارات على بني إسرائيل، ولم يحارب أحدا إلا يرجع بالنصر.

وقوله: «ابن عدنان»، بزنة فعلان من عدن إذا أقام. قاله السهيلي.

قوله: «على هذا النسب» الخ. قال في «المواهب»: قال ابن دحية: أجمع العلماء -والإجماع حجة- على أن رسول الله ﷺ، إنما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه.[500]

وعن ابن عباس أنه ﷺ، كان إذا انتسب، لم يجاوز معد بن عدنان، ثم يمسك ويقول: «كذب النسابون»، مرتين أو ثلاثا. رواه في «مسند الفردوس». قال في «الروض»: والأصح في هذا الحديث أنه من قول ابن مسعود. وروي عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: إنما ننتسب إلى عدنان، وما فوق ذلك لا ندري ما هو.[501]

[سؤال الإمام مالك عمن يرفع نسبه لآدم]

وسئل الإمام مالك عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم؟ فكره ذلك. قيل له: فإلى إسماعيل؟ فأنكر ذلك أيضا، وقال: ومن يخبره به!؟

وكره أيضا، أن يرفع في نسب الأنبياء، مثل أن يقال: إبراهيم بن فلان بن فلان، قال: ومن يخبره به!؟ وقع هذا لمالك في «الكتاب الكبير»،المنسوب إلى المعيطي، وإنما أصله لعبد الله بن محمد بن حنين، وتممه المعيطي، فنسب إليه. وقول مالك هذا نحو ما روي عن عروة بن الزبير أنه قال: ما وجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسماعيل. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون. هـ[502].

---

(500) [المواهب للقسطلاني: 1 /14]

(501) [الروض الأنف: 1 / 8]

(502) [الروض الأنف: 1 /11]

[مكان ولادته ﷺ]

قوله: «وقد ولد ﷺ، بالشعب». بكسر الشين، أي شعب بني هاشم. وقوله: «وقيل بالدار التي عند الصفا، التي بنتها زبيدة مسجدا» الخ.

هذه الدار صارت تدعى لمحمد بن يوسف، أخي الحجاج، وكانت قبل ذلك لعقيل ابن أبي طالب ولم تزل بيد أولاده بعد وفاته إلى أن باعوها لمحمد المذكور بمائة ألف دينار، قاله الفاكهي، فأدخلها في داره وسماها (البيضاء)، لأنها بنيت بالجص، وصارت تعرف بدار ابن يوسف.

[ترجمة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد]

وقوله : «التي بنتها زبيدة» الخ. زبيدة هذه هي أم جعفر، زبيدة بنت جعفر ابن أبي جعفر المنصور، زوجة هارُون الرشيد، وهي أم ولده الأمين. وكان لها معروف كثير وفعل خير، وقصتها في حجها وما اعتمدته في طريقها مشهورة. قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي: إنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وأنها أسالت الماء عشرة أميال بخط الجبال وتحت الصخر، حتى غلغلته من الحل إلى الحرم. وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة ورد عشر القرآن، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن. أعرس بها هارُون الرشيد سنة 165، وتوفيت سنة 216، وانظر ابن خلكان والشريشي وغيرهما.

[إتمام الكلام عن مكان ولادته ﷺ]

هذا وفي كلام ابن دحية أن الخيزران، أم هارُون، لما حجت، أخرجت تلك الدار من دار ابن يوسف، وجعلتها مسجدا.

ويجوز أن تكون زبيدة جدّدت ذلك المسجد الذي بنته الخيزران؛ فنسب لكل منهما. أو يقال إن الخيزرَان بنت دار الأرقم مسجدا، وهي عند الصفا أيضا. ولعل الأمر التبس على بعض الرواة، لأن كلا منهما عند الصفا. قاله الحلبي في «إنسان العيون»[1/67].

ثم إن الشارح يفيد أنهما قولان، وأن الثاني مغاير للأول، وهو ظاهر كلام غيره.

وفي «إنسان العيون»: قد يقال لا مخالفة، لأنه يجوز أن تكون تلك الدار من شعب بني هاشم، ثم رأيت التصريح بذلك.[503]

وفي «شرح المواهب»، عن الخميس[504]، عن بعضهم: ولد بمكة، في الدار التي تعرف بدار محمد بن يوسف، في زقاق معروف بزقاق المدكك، في شعب مشهور بشعب بني هاشم، من الطرف الشرقي لمكة. تزار ويتبرك بها إلى الآن. هـ. وفيه ما فيه! فبين الصفا والشعب مسافة بعيدة.[505]

وقيل انه ولد، عليه السلام، بالردم، بفتح الراء وسكون الدال المهملتين، قال في «النور»: أي ردم بني جمح. وقيل لم يولد بمكة بل بعسفان، قرية على ستة وثلاثين ميلا من مكة. وهذا القول شاذ لا يعول عليه.

[العلم المتوعد على كتمانه]

قوله: «مما يتعين تعليمه» الخ. أي كمن رأى من يريد الإسلام ويقول: علمني ما الإسلام. وكمن يرى حديث عهد بالإسلام لا يحسن الصلاة، وقد حضر وقتها، يقول: علمني كيف أصلي. وكمن جاء مستفتيا في حلال أو حرام يقول: أفتوني وارشدوني؛ فإنه يلزم في هذه الأمور أن لا يمنع الجواب، فمن فعل كان آثما مستحقا للوعيد. وليس كذلك الأمر في نوافل العلوم التي لا ضرورة بالناس إلى معرفتها. قاله الخطابي ونقله السيوطي في شرح ابن ماجه.

قوله: «وقيل الحديث ورد في الشهادة»ا لخ. أي فيمن علم شهادة وسئل عن أدائها؛ فإنه يجب عليه أداؤها. فإذا امتنع كان مستحقا للوعيد المذكور في الحديث، ولهذا قال السيوطي عن الخطابي: ومنهم من يقول: هو، أي العلم المذكور في الحديث، علم الشهادة.هـ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[506]. قال

---

[503] [إنسان العيون، للحلبي: 1 /67]
[504] ط: «الخميس»: اسم كتاب.
[505] [شرح الزرقاني للمواهب اللدنية: 1 /137]
[506] [البقرة، الآية: 283]

الخازن: يعني إذا دعيتم إلى إقامتها وأدائها. وذلك لأن الشاهد متى امتنع من إقامة الشهادة، وكتمها، فقد أبطل بذلك حق صاحب الحق، فلهذا نهى عن كتمان الشهادة وبالغ في الوعيد عليه، فقال تعالى: (وَمَنْ يَكْتُمْهَا)، يعني الشهادة، (فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)، أي فاجر قلبه. هـ[507] وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، حسبما نقله النسفي: أكبر الكبائر؛ الإشراك بالله، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة.[508]

قوله: «والأظهر أن المراد به العلم الشرعي» الخ. أي الذي أصله الكتاب والسنة وما يتعلق بهما، كالقراءات والتفسير، وعلم الحديث ومعرفة رجاله وما يتفرع عنها من أصول الدين وفروع الفقه.

وملخصه ان العلم الشرعي هو العلم بالكتاب والسنة، أو ما تعلق بهما أو تفرع منهما. فأصل العلوم الشرعية: الكتاب والسنة، وفرعها أصول الدين، أي العقائد وفروع الفقه، وهي الأحكام المتعلقة بالأعمال والمعاملات. ويتعلق بالكتاب القراءات والتفسير. وبالسنة علم الحديث ومعرفة رجاله، وقد يضاف إلى هذا ما تتوقف عليه، التي تسمى آلة علم الشرع، وذلك كأصول الفقه وعلوم اللسان، وهي النحو واللغة والأدب والبيان.

[بيان العلوم الشرعية وأصولها وفروعها]

فقول الشارح: «والعلوم الشرعية» الخ؛ عبارة غير واضحة، ولا بد من بيانها. بحسب فهمنا. يعني أن العلوم الشرعية التي قلنا أن الأظهر هي المراد بها في الحديث، وأن من سئل عنها وكتمها يكون متوعّداً؛ هي ما يستفيدون، أي العلماء، من الكتاب والسنة، أي ما يأخذونه العلماء من الكتاب والسنة، أي ما يحفظونه. فالعلم بالكتاب والسنة أنفسهما هو من علوم الشرع.

وقوله: «من أصولها»، أي من أصول علم الشرع، وهي الكتاب والسنة وفروعها، كأصول الدين وفروع الفقه.

---

(507) [لباب التأويل : 1 /204]

(508) [مدارك التنزيل: 1 /204]

وقوله: «ومقدماتها التي تتوقف على معرفتها»، أي كأصول الفقه وعلوم اللسان العربي، من نحو وصرف ولغة ومعان وبيان.

وما قررنا به كلام الشارح، مأخوذ من تقسيم ابن جزي لأنواع العلوم حيث قال:

العلوم في الجملة ثلاثة أنواع؛ شرعية، وعلوم هي آلات للشرعية، وعلوم ليس بشرعية ولا آلات للشرعية. فأما العلوم الشرعية فأصلها الكتاب والسنة، ويتعلق بالكتاب علمان: القراءات والتفسير. ويتعلق بالسنة علم الحديث ومعرفة رجاله. ويتفرع من الكتاب والسنة علمان: أصول الدين وفروع الفقه، وينخرط التصوف في سلك الفقه، لأنه في الحقيقة فقه الباطن، كما أن الفقه أحكام الظاهر. وأما آلات الشرعية فهي أصول الفقه وعلوم اللسان، وهي النحو واللغة والأدب والبيان. هـ وانظر بقية كلامه في «القوانين» له.[509]

ثم إن الحق هو ما صدّر به «الشارح»، وأن العلم المتوعد على كتمه هو الواجب عينا، وبه جزم الخطابي، حسبما تقدم، ونقله عنه الجلال السيوطي في «شرح ابن ماجه»، واقتصر عليه تلميذه العلامة الشيباني في «تيسير الوصول»؛ لأن العلوم إما واجبة، أو غير واجبة.

والواجبة: إما عينا، وهو ما لا يتأتى أداء الواجب إلا بمعرفته، أو كفاية.

فالأول: كأحكام كيفية الوضوء والغسل، والصلاة، والصيام، والزكاة لمن له مال، والحج لمن كان مستطيعا، وحكم المعاملات من نكاح، وبيع وإجارة وشركة وقراض، لمن يتعاطى ذلك، للإجماع على انه لا يحل لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه. لكن يكفي، في غير العبادات، تعلم الحكم بوجه إجمالي يبرؤه من أصل الجهل بالحكم، بقدر وسعه، وكعلم المعتقدات في حقه تعالى وحق رسله؛ لتوقف الإيمان الواجب على معرفته ذلك، أي الجزم به ولو بالتقليد، على رأي. وكعلم أمراض القلوب وعلاجها، كالكبر والعجب والحقد والحسد، وحب المدح والجاه، بناء على قول الغزالي إن معرفة حدودها وأسبابها وعلاجها فرض عين.

وعلى العلم الواجب عينا حمل حديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وهو حديث قويّ، خلافا للنووي في «أذكاره».

والثاني: إما مقاصد، وهي حفظ القرآن والتفسير والحديث والفقه، من غير

---

(509) [القوانين الفقهية: 403]

العبادات، والكلام والتصوف على رأي. وإما وسائل؛ فمنها ما يتعلق بالقرآن، وهو علم القراءة والرسم والضبط. ومنها ما يتعلق بالحديث، وهو علم أقسامه ومراتبه، وعلم أحوال الرواة وطبقاتهم وأعمارهم وعدالتهم وجرحهم، وعلم السير والمغازي والشمائل. ومنها ما يتعلق بهما وبغيرهما من كلام العرب، وهو اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان. ومنها ما فيه منفعة عامة، وهو الحساب والتوقيت، والمنطق على رأي.

وبهذه العلوم مثّل شرّاح «خليل» لقوله في الجهاد فرض كفاية: «كالقيام بعلوم الشرع». قال الزرقاني: والمراد بالقيام بها: حفظها، وإقراؤها وقراءتها، وتحقيقها وتهذيبها وتعميمها، إن قام دليل على تعميمها. وتخصيصها إن قام دليل.[510]

وغير الواجبة، بل معرفته مستحسنة فقط. قال القلشاني: وهو معرفة الكتابة والطب، وما يحتاج إليه من النجوم. وقال قبل هذا: من النوافل عويص الفرائض، والتدقيق في العربية وفي التصريف ومعرفة شواذ اللغة. ومن المستحسن أيضا علم العروض والقوافي، على رأي، والبديع. ومن المباح علم الأنساب الزائد على ما توصل به الرحم. هـ من «الأزهار».[511]

[معنى اللجام]

قوله: «واللجَام» الخ. قال الشهاب إنه معرب لكام أو لغام. وقيل إنه عربي لتصريفه، كألجم وملجم، وهو في المعرب نادر، وألجمه إذا وضعه في فمه، وألجمه الغرق إذا وصل الماء لفمه. ويقال: ألجم إذا سكت. قال أبو نواس:

مُتْ بداء الصّمت خيرٌ   لك من داء الكلام
إنما السّالم من ألْـ   ـجَمَ فاهُ بلجام

ثم قال: والمقصود هنا انه يحرق جملته، كما في ألجمه الغرق، وأن يراد إحراق لسانه بدخول النار لفيه، أو بوضع حديدة محماة فيه، ويجعل ذلك علامة عليه

(510) [شرح الزرقاني على المختصر: 3 /108]

(511) [الأزهار الطيبة النشر. لابن الحاج:31 طبعة تطوان]

كالحيوانات العجم؛ فجُوزِيَ من جنس عمله لفظا ومعنى، فهو مستعار لما يمنع الكلام كاللجام المانع من الجماح، أو هو مجاز مرسل. ثم قال: وقيل إن الله يخلق له صورة لجام من نار يوضع في فيه. وقيل: إنه تشبيه لما وصل لفيه من النار. وخص اللجام لتشبيهه بدابة مُنعت عما تريد، وهو تكلف.[512]

قوله: «وخصّ اللجام»، إلى قوله: «فإن العلم» الخ. أوْلى ما يفهم عليه كلامه، رحمه الله، أن يقال: وخصّ في الحديث اللجام بالذكر، تشبيها لهذا العالم الذي كتم العلم، بحيوان سخر فمنع عما يريد. فحيث ألجم نفسه في الدنيا عن بثَ العلم الذي من شأنه أن يبلغ الناس مرادهم؛ ألجِم في القيامة كما تلجم الدابة، مجازاة له من جنس عمله، فتأمله.

[تخريج هذا الحديث]

قوله: «وقد أخرجه» الخ. هذا الحديث يروى عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبي سعيد، وأنس بن مالك، وابن مسعود، وابن عباس وابن عمر، وطلق بن علي، وجابر، ولا يصح منها إلا حديث أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس، كما قاله في «شرح الإحياء».

وحديث أبي هريرة، هو الذي أشار الشارح إلى تخريجه بقوله: وقد أخرجه الخ. وبقي عليه ممن أخرجه البيهقي. قال الشهاب:

وأسنده أيضا ابن عبد البر من طرق كما مرّ. فما نقل عن الإمام من أنه لم يصح، وعن غيره من أنه ضعيف؛ لا يلتفت إليه.[513]

وقال الحافظ ابن حجر في «القول المسدد»، حسبما نقله شارح الإحياء: والحديث وإن لم يكن في نهاية الصحة، لكنه صالح للحجة.

قوله: «وفي حديث ابن مسعود» الخ. حديث ابن مسعود رواه الطبراني بإسنادين ضعيفين، قاله العراقي. وقال الشريف مرتضى، ولفظه: «من كتم علما عن أهله ألجم يوم القيامة لجاما من نار». هذا لفظ أبي داوود، وعند ابن عدي في «الكامل»،

---

(512) [نسيم الرياض: 1/ 53]
(513) [نسيم الرياض: 1 /52]

والسجري في «الإبانة»، والخطيب في «التاريخ»: (من كتم علما يُنتفع به ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار).[514]

قوله: «وعن أنس» الخ. حديث أنس رواه ابن ماجه بلفظه السابق، وأخرج ابن عدي عن أنس: «من كتم علما عنده، وأخذ عليه أجرة، لقي الله يوم القيامة ملجما بلجام من نار». قاله «شارح الإحياء».

[مسألة الإجارة على تعليم العلم]

وقوله: «وأخذ عليه أجرا» الخ. هذا الحديث حجة لمن منع أخذ الأجرة على تعليم العلم، وهو أحد أقوال ثلاثة، كما في جواب لأبي عثمان العقباني؛ فإنه [سئل]عن أخذ الأجرة على تعليم العلم؟ فأجاب: كره مالك في «المدونة» الإجارة على تعليم العلم. وقيل بالمنع، وقيل بالإباحة، حسبما اختلف في بيع كتبه. ومذهب «المدونة» مقدم في النقل ليلا يضيع العلم لضعف أرزاق العلماء، فإن منعوا الإجارة شغلهم طلب المعيشة عن التعليم.هـ بنقل العلامة الطرنباطي.

وقال الشيخ بناني، عند قول الشيخ خليل في باب الإجارة، عطفا على ما تكره الإجارة فيه: «وتعليم فقه وفرائض»، ما نصه: كذا في المدونة. وقال ابن يونس: الصواب جواز الإجارة.[515]

---

(514) [إتحاف السادة المتقين، للشيخ مرتضى: 1 /109]

(515) [حاشية بناني، بهامش شرح الزرقاني لخليل: 7 /20].

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين
وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

تم والحمد لله تخريج ورقن
ما وجد من هزا الكتاب من
خط المؤلف المرحوم محمد المُرير، في
غرة شهر رمضان المبارك، عام 1435 هـ.
(رب أوزِعْني أن اشكر نعمتك التي أنعمتَ عليّ
وعلى والدَي وأن اعمل صالحاً ترضاهُ وأصلح لي في
ذريتي إنيّ تبتُ إليك وإنّي من المُسلمين)،
آمينَ. والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

(انتهى)

النسخة الأولى المنقولة من خط المؤلف العلامة محمد [illegible]

نقلها أحمد بن محمد المرير في عام 1435 هـ 2014م

